مكتبة نوبل ٢٠٠٦

أورهان باموق

ذات الشَّعر الأحمر



ترجمة: جلال فتاح رفعت

أورهان باموق

ذات الشَّعر الأحمر

ترجمة: جلال فتاح رفعت



ذات الشَّعر الأحمر

رواية

Author: **Orhan Pamuk**

Title: **The Red-Haired Woman**

Translated by: **Jalal Fattah Rifaat**

Cover Designed by: **Majed Al-Majedy**

P.C.: **Al-Mada**

First Edition: **2019**

اسـم المؤلف: أورهان باموق

عنوان الكتاب: ذات الشَّعر الأحمر

ترجمة: جلال فتاح رفعت

تصميم الغلاف: ماجد الماجدي

الناشر: دار المدى

الطبعة الأولى: 2019



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول
dar@almada-group.com
+ 961 706 15017
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
al-madahouse@net.sy
ص.ب: 8272
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

القسم الأول

-1-

في الحقيقة كنتُ أودُّ أن أكون كاتباً، ولكنني بعد هذه القصّة التي سأخبركم بها أصبحت مهندساً جيولوجيّاً ومقاولاً. وما دمت قد عزمت على سرد أحداث قصتي أرجو ألّا يساور الشكّ قرائي بأنّ الأمر قد انتهى إلى غير رجعة وحسب، بل أجدني إلى الآن منغمساً أكثر فأكثر في أدقّ تفاصيل الأحداث التي عشتُها.

في العام 1985 كنّا نعيش في شقّة في عمارة قصر الزيزفون. كان أبي يملك صيدليّة صغيرة اسمها «صيدليّة الحياة» يأتي دور الخفارة عليها وتكون صيدليّةً خافرةً مرّةً واحدة في الأسبوع. ويتوجب على أبي السهر فيها إلى الصبح. أما أنا فكنت أجلب له العشاء. وبينما كان أبي ينهمك في تناول طعامه كنت أحب أن أبقى في المحل لمدة أطول لكي أستنشق روائح الأدوية. اليوم بعد ثلاثين سنة، وأنا في الخامسة والأربعين من عمري أرى أنّني ما زلت أتلذّذ باستنشاق روائح الأدوية في الصيدليّات القديمة.

«صيدليّة الحياة» لم يكن يرتادها سوى القلّة القليلة من الزبائن، وكان أبي يقتل فراغه في ساعات الليل الطويل أمام جهازٍ تلفازٍ صغير، نقّال، حاله حال معظم الناس الذين صارت متابعة التلفاز لديهم تقليعة. وفي بعض الأحايين كان أصدقاؤه (أصدقاء السياسة) يزورونه لكي يتناقشوا فيما بينهم. كانوا يتهامسون دوماً، ويقطعون كلامهم عندما أحضر. حالما يرونني يديرون دفّة الحديث ليتكلّموا عنّي. يقولون إنّني وسيم ومحبوب

بالضبط مثل أبي. ثم يسألونني عن الصفّ الذي أنا فيه، إنْ كنت أحب المدرسة أم لا؟ وماذا أطمح أنْ أكون في المستقبل؟ وهلمّ جرّا...

أثناء تواجد أصدقاء السياسة كنت أشعر بأنّ أبي منزعج منهم، أما أنا فلم أكن أطيل البقاء في الدكّان، بل كنت أُلملمُ السّفرطاس مسرعاً وأسلك طريقي إلى البيت مارّاً تحت مصابيح الشارع الذي تحفّ به أشجار الجمّيز. واعتدت في البيت ألّا أذكر لأمّي أيّ شيء عن زيارات أصدقاء السياسة إلى أبي في الدكّان، لأنني أعرف أنها سوف تصبّ جامَ غضبها عليهم. ستقلق على أبي مخافة أن يقع في متاعب بسببهم وتخشى أن تتكرّر غياباته أو يضطر لتركنا فترة من الزمن. فضلاً عن هذا كنت أدرك أيضاً أنَّ السياسة وحدها لم تكن سبباً رئيساً للشجار والزعل الصامت بين أبي وأمّي. ففي بعض الأحيان كانا يظلّان متخاصمَين لفترة طويلة، لا يكلّمان بعضهما بعضاً. ربما كان الحبّ قد انطفأ بينهما. إلّا أنَّ ثَمَّةَ شعوراً غريباً جعلني أخمّن أنّ أبي ربما له علاقات مع نساء أخريات يبادلهن الحبّ. وفي أحيان أخرى كان يلمّح لي أنّ أمّي قد تغيّرتْ كثيراً عما كانت عليه من قبل. يقول إنّها أصبحت امرأةً مختلفة تماماً. كلّ هذا كان يدفعني إلى الحزن حتى حرّمت على نفسي أن أفكّرَ فيهما، أو يَذْكُرَهما لساني. آخر مرّة رأيت فيها أبي كانت في واحدة من الليالي التي جلبت إليه طعامه فيها، يومها كنت في الصف الأول الإعدادي.

ذات أمسية من أماسي الخريف بينما كان أبي يتابع الأخبار على التلفاز، وقد وضع طعامه على منضدة الشغل، جاءنا اثنان من الزبائن فقمت بتلبية طلبهما، وكانت الوصفتان اللتان جاءا بهما تحتويان على أدوية بسيطة: الوصفة الأولى تحتوي على أسبرين وفيتامين سي، أما الوصفة الثانية فكانت مُجرَّد مضادات حيوية. صرفت الوصفتين ووضعت النقود في الخزانة القديمة التي كانت تصدر جرساً لطيفاً مميزاً حينما تفتح. التفتُّ وألقيت نظرة نحو أبي عبر الباب وأنا عائد إلى البيت، فلوّح لي بيده مبتسماً. وفي صبيحة اليوم التالي لم يأت أبي إلى

المنزل. سمعت بالخبر من أمّي حينما عدت من المدرسة بعد الظهر. بدا أنها بكت كثيراً لأن أسفل عينيها كانا منتفخين. ظننت أنّ أبي اقتيد ليلة أمس واعتُقل من قبل الشعبة السياسية، مثلما حصل ذلك من قبل. فكرت أنهم ربما سيقومون بتعذيبه أو ضربه بالفلقة أو يصعقون جسمه بالتيار الكهربائي.

قبل سبع أو ثمانِ سنوات كان أبي قد اختفى بالطريقة نفسها التي غاب فيها وعاد إلى البيت بعد سنتين من اليوم الذي اختفى فيه، لكن أمّي لم تتعامل مع هذا الحدث مثلما كانت تفعل في السابق حينما تعتقله الشرطة ويخضع للتعذيب في أثناء التحقيق. على العكس كانت غاضبة عليه هذه المرّة وتقول: هو وحده يعرف ماذا جنت يداه! بينما كانت قد ارتدَتْ جلباب الحزن حين أخذه العساكر من الصيدليّة في تلك الليلة، مباشرة بعد الانقلاب العسكري. يومها ظلّت تردِّد قائلة: إن أباك بطل! وما عليك إلّا أن تشعر بالفخر بسبب اعتقاله. كانت تحرص على الحضور إلى الصيدليّة لملء الفراغ من بعده ولتكون عوناً لـ«ماجد» مساعد أبي. في بعض الأحيان كنت أرتدي صِديريّ «ماجد» الأبيض، برغم أنّني لم أكن راغباً في أن أكون صيدلانيّاً في المستقبل، مثلما كان أبي يرغب في أنْ أكون، فقد كنت عازماً على أن أكون رجل علم.

في آخر مرّة غاب فيها أبي لم تعر أمّي أدنى اهتمامها لا بأمر الصيدليّة ولا بمصير العاملين فيها. فلا تحدثت عن «ماجد» ولا تكلمت عن أيّ واحد من المشتغلين في الدكّان. هذا ما دفعني إلى التفكير بوجود أسباب أخرى تكمن وراء اختفاء أبي. ولكن ما هو هذا الذي يدعونه تفكيراً؟

أدركت يومها أن الأفكار تراود مخيلتنا حيناً ككلمات وحيناً آخر كصور. ولم أكن لأقوى على التفكير في فكرةٍ ما بكلمات مُجرَّدة. ولكن صورة ذلك الشيء مثلاً كانت تتجسد أمام عيني. أحسست بالصورة متجسدةً حينما كنت أعدو تحت زخات المطر النازل كأنه سكب من كأسٍ مليئة بالماء. وفي أحيان أخرى كنت أفكر بالأشياء بواسطة كلمات

ما ولم أكن أستحضرها كصور تتجسد أمام ناظريّ: كأنها ضوء أسود. مثل موت أمّي أو مثل اللانهائية... ربما ما زلت غرّاً: أجدني أنجح أحياناً في تحاشي الخوض في مواضيع لا أرغب التفكير فيها. وأحياناً يحدث العكس تماماً، إذ لا أستطيع طرد كلمة أو إبعاد صورة معينة غير مرغوب فيها عن مخيلتي.

قضى أبي مدة طويلة في غيابه، لم يتصل بنا في أثنائها حتى نسيت شكله، ولم أعد أستطيع استعادة ملامح وجهه إلّا بصعوبة بالغة. يومها كنت أشعر وكأن التيار الكهربائي انقطع ومُحيَتْ صور كل الأشياء التي كانت تتجسد أمام عيني يوماً ما.

ذات مساء مشيت من دون وعي باتجاه قصر الزيزفون. «صيدليّة الحياة» كانت مغلقة الأبواب، فقد ضرب عليها قفل أسود، كأنها لن تفتح أبداً... ثَمَّةَ سحابة من الضباب تنبعث من قصر الزيزفون. بعد وقت من الزمن ليس بطويل قالت والدتي لم نعد نسمع أخبار أبيك كما لم تعد تأتينا أيّة واردات من الصيدليّة، وموقفنا المالي بائس لا نُحسد عليه.

كنت في الثانوية العامة، أذهب إلى ثانوية «كاباتاش» وأعود مشياً على القدمين ولم تكن لي مصروفات إضافية زائدة عن اللزوم غير ارتياد السينما واقتناء لفّة شاورمة أو شراء الروايات المصوَّرة. لي بعض الأصدقاء ممن يمتهنون بيع وشراء المجلات التي تنشر روايات مصوَّرة، وبعض منهم يقومون بتأجير المجلّات. لكنني لست صبوراً مثلهم كي أنتظر متداولي تلك المجلّات في الأزقة الخلفية أو أمام أبواب الخروج الجانبية لسينما «بشيكتاش».

قضيت صائفة 1985 في سوق الكتب في «بشيكتاش» بائعاً للكتب في مكتبة اسم صاحبها «دنيز» أنيطت إليّ مهمة اصطياد حرامية الكتب. أحياناً كنّا نذهب أنا وربّ العمل المُعلِّم «دنيز» بسيارته إلى «جاغال أوغلو» لشراء الكتب. يوماً بعد يوم توطّدت علاقتي بالمُعلِّم «دنيز» وصار يحبّني أكثر. وازداد تمسكاً بي لمّا عرف أنّني أحفظ عن ظهر قلب

عناوين الكتب وأسماء مؤلفيها ودور النشر بسرعة فائقة. فكان يسمح لي بأنّ أستعير بعض الكتب إلى البيت. آخذ الكتاب إيَّاه، أقرؤه ثم أعيده. وهكذا صرت أقرأ الكتب تباعاً. أقرأ الكتاب ثم أعيده وأستعير غيره وهكذا... حتى تسنى لي أن أقرأ العديد من الكتب في تلك الأيام. ومن جملة ما قرأت: روايات للصغار، روايات تاريخية، مجاميع شعرية مختلفة، وقصصاً مختارة لإدغار ألان بو. كما قرأت كتاب «رحلة إلى مركز الأرض» لمؤلِّفه «جول فيرن» وكتاباً آخر هو عبارة عن دراسات في عالم الأحلام، دراسة واحدة بعينها في هذا الكتاب قلبت حياتي رأساً على عقب.

كان بعض من الأدباء يأتون إلى المكتبة فينبري صاحبها المُعلِّم «دنيز» بتقديمي إليهم ويعرّفني على أنّني سأكون كاتباً مثلهم في المستقبل. قلتُ لمُعلِّمي إنَّ ما يقوم به هو إطراء بحقّي، ثم طابت لي الفكرة. وبعد مدّة قصيرة أخذت أفكر فيها بجدّ تحت تأثير ربّ العمل نفسه.

-2-

أمّي لم تكن راضية بالمبلغ الذي يعطينيه صاحب المكتبة لأنه لم يكن يكفي لتسديد أجور المدرسة التي ستقبل بي لأداء الامتحانات التمهيديّة لدخول الجامعة. بعد اختفاء أبي توطّدتْ أواصرُ العلاقة بيني وبين أمّي، فكانت تؤكّد أنّه يتوجَّبُ عليّ أنْ أكسب مقعداً في كليّةٍ مرموقة قبل أيّ شيء. وقد تقبّلَتْ قراري في أن أكون كاتباً على أنّه مُجرَّد مزحة.

ذات يوم بعد عودتي من المدرسة قادني شعور داخلي لألقي نظرة إلى خزانة الملابس في غرفة والديّ، فلاحظت اختفاء ملابس أبي من الدرج، إلّا أنَّ زجاجة «عطر التبغ» والكولونيا الخاصة به ما زالتا في محلِّهما. لم نكن أنا وأمّي نتحدَّث عنه قَطّ، حتى إنّ صورته المضبَّبة كانت ماضية في طريقها إلى الزوال من مخيّلتي.

في الصيف من السنة نفسها التي أنهيت فيها الثاني الإعدادي نقلنا أثاثَ بيتنا إلى «جبزة» حيث قُدّر لنا أنْ نسكن مجّاناً في مشتمل البيت ذي الحديقة الذي يمتلكه زوج خالتي. وكان عليّ أن أقبل بالعمل الذي وجده لي. فإذا اشتغلت في النصف الأول من العطلة الصيفية ووفَّرتُ مبلغاً جيداً، وعملت في مكتبة «دنيز» في «بشيكتاش» بعد شهر تموز، فإنني سأتمكن من أخذ حصص التقوية والتهيُّؤ للدخول إلى الجامعة في العام الذي يليه. ربّ العمل المُعلِّم «دنيز» كان على دراية بأنني حزين لأننا هجرنا منطقة «بشيكتاش»، فقال يمكنك أن تنام ليلك في المكتبة في الصيف.

أما صهرنا فقد أعطاني فرصة عمل لأشتغل لديه كحارس لبساتين

الكرز والخوخ في الأراضي التي يملكها، والواقعة خلف منطقة «جبزة». أدركت أنّني كنت على خطأ حين تهيّأ لي أنّني سأحظى بوقت فراغٍ سانحٍ يمكنني استغلاله في مطالعة الكتب، بمُجرَّد أن وقع بصري على منضدةٍ عتيقة وُضعت تحت خيمة بالية... كان موسم جني الكرز قد حلَّ بصخبه، وانتشرت أسرابٌ من الغربان التي كانت تهاجم الأغصان بوقاحة، إضافة إلى الأولاد وعمّال المنشآت القريبة الذين كانوا يأتون أيضاً لسرقة الكرز ومختلف الثمار.

في الأرض المجاورة لبساتين الكرز كانت هنالك بئرٌ تُحفَر. كنت أذهب أحياناً إليهم لأراقب العمل الجاري عن كثب، ولأرى المُعلّم الذي يعمل في الأسفل ولا أسمع سوى أصوات ارتطام مِعوله في جوف البئر، وأتابع اثنين من عُمّاله، واللذين كانا يديران الرافعة الخشبية المستخدمة في نقل التراب من الأسفل. يبذلان قصارى جهدهما في نقل ما يُخرِجان من تراب. يُديران الرافعة الخشبية وهما يستلذّان بالأنين الذي يصدره الخشب. يُفرغان التراب في عربة تُدفع باليد. بعد ذلك يتولّى صبيٌّ، يبلغ عمري نفسه، نقلَ العربة إلى بعيد، بينما كان العامل ذو الطول الفارع يدلّي السطلَ الفارغ لمُعلِّمه في جوف البئر منادياً بأعلى صوته: جاءك!

طوال النهار نادراً ما كنت أرى المُعلِّم يصعد إلى فوق. لأوّل مرّة شاهدته في أثناء استراحة الظهيرة وهو يدخّنُ سيجارة. كان وسيماً مثل أبي، طويل القامة نحيلها، ولكنه لم يكن هادئاً وبشوشاً مثله، فقد كان كثير الغضب يوبّخ العمّال باستمرار. عندما يصعد إلى فوق كنت أتحاشى الاقتراب من الشابَّين خشية أنْ يوبِّخَهما أمامي وأتسبَّب في إحراجهما.

في ذات يوم في أواسط حزيران سمعت هتافات تعبِّر عن فرح أصحابها، أعقبها إطلاق أعيرةٍ ناريّة في موقع البئر. اقتربت إليهم وألقيت نظرة. قيل لي توصَّل الحفّارون إلى الماء، وجاء صاحب الأرض وهو رجل من «ريزة»[1] مبتهجاً بالخبر، وأخذ يطلق النار من مسدَّسه حتى

1- ريزة: مدينة ساحلية تقع في منطقة شرقي البحر الأسود. (المترجم).

انتشرت في الجوار رائحة البارود. كان الرجل يُغدق العطايا على الأُسطى والعاملين معه، وكان محقّاً في فرحه لأنه سوف يستخدم ماء البئر في الأبنية التي سينشئها على هذه الأراضي. إذ لم تكن خطوط إسالة المياه قد وصلت بعد إلى منطقة «جبزة».

بعد ذلك اليوم ما سمعت قَطّ أنْ قام الأُسطى بتوبيخ أيّ واحد من عمّاله. جلب أكياساً من الإسمنت وقليلاً من القطع الحديدية نقلها على عربة يجرّها حصان، وقام بصبِّ الخرسانة حول فوهة البئر وجعل فوقها غطاءً من حديد. كان الجميع سعداء لذلك لم أتحرَّج من الانضمام إليهم ومشاركتهم الفرح. وفي ذات يوم بعد الظهر ظننتُ أنَّ الجوَّ خالٍ، اقتربت إلى محيط البئر فخرج لي الأُسطى «محمود» من بين أشجار الكرز والزيتون يحمل بيده قطعة غيار من محرِّك المضخَّة الكهربائية التي ركَّبها في البئر. قال: أيها الشاب! أرى أنَّ فيك فضولاً تجاه هذا الشغل. تذكَّرتُ من فوري شخصيات «جول فيرن» الذين باشروا بالحفر في جانب من جوانب الكرة الأرضية وخرجوا من الطرف الآخر منها. قال: سأذهب إلى «كوجوك جكمجه» لحفر بئر هناك... عمّالي سوف يتركون العمل، هل تأتي معي؟ ربما شعر بالارتباك الذي أصابني فأردف قائلاً: عامل البئر يحصل على أجر كبير يبلغ أربعة أضعاف ما يتقاضاه حارس الغيط. هكذا إذن... سينتهي عملنا في غضون عشرة أيام وسوف أعود بعدها إلى البيت. قالت أمّي: «لن أقبل بذهابك إلى هذا العمل أبداً. لن أقبل أن تكون صبيّاً لدى حفَّار بئر، بل ستكون طالباً جامعيّاً رائعاً».

ولكن كان تفكيري قد انصبّ على وجوب كسب المال بسرعة. قلتُ لها: «سوف أكسب خلال أسبوعين ضعف ما أكسبه في شهرين من العمل المضني في بستان صهرنا، وهكذا سأسجّل اسمي في الامتحانات التمهيدية ويكون لي متسعٌ من الوقت لقراءة ما شئت من الكتب». حتى إنّني قمت بتهديد أمّي المسكينة. قلت لها:

«إذا رفضتِ سوف أهرب من البيت».

«لا تثبطي عزيمة الولد»، قالها صهرنا، «إنْ كان يهوى العمل وكسب المال فدَعيْه! علينا الآن أنْ نتحرَّى عن هذا الأُسطى حفَّار البئر».

جرى اللقاء في مكتب صهرنا في مبنى البلدية، دون أن أكون حاضراً، بين أمّي والأُسطى «محمود»، فقطع الأُسطى عهداً على نفسه ألّا يسمح لي بالنزول إلى البئر لأنه يشغّل عاملاً آخر لهذا الغرض. أخبرني صهرنا بالمبلغ الذي سوف أتقاضاه لقاء عملي هناك. فأخذت حقيبة أبي الصغيرة القديمة، وحشرت فيها قمصاني وحذائي البلاستيكيّ الذي اشتريته خصّيصا لدرس الرياضة.

كان ذلك اليوم ممطراً، يخرّ المطر من السّقف في بيتنا ذي الغرفة الواحدة ونحن ننتظر الشاحنة التي تأخّرت عن موعدها وكانت ستأخذنا إلى موقع العمل. بدأت أمّي تبكي وتنشج في البكاء. توسَّلت بي مراراً من أجل أنْ أعدل عن قراري؛ ذلك أنها ستشتاق لرؤيتي، وأنني مخطئ لكوني أقدمت على هذا العمل من أجل المال.

«أنا لن أنزل إلى البئر!».

قلتُ لها وأنا رافعٌ رأسي عالياً والحقيبة في يدي، بالضبط مثل أبي الذي كان ذاهباً إلى المحكمة، إذ خرج من البيت بخطى سديدة وقال آخر كلماته بشيء من الجدّ والهزل.

كانت الشاحنة تنتظر في المساحة الفارغة من الأرض الواقعة خلف «الجامع الكبير». جئت حاملاً حقيبتي فاستقبلني الأُسطى «محمود» مبتسماً مثل مُعلِّمي المدارس، وأخذ يجول ببصره على هندامي من أعلى الرأس إلى أخمص القدمين والسيجارة في يده، ثم حدّق في حقيبتي.

«هيا ادخلْ، اجلسْ سنذهب في الحال».

جلست بين السائق الذي أرسله «خيري بيك»، رجل الأعمال الذي يريد أن يحفر بئراً في أرضه، وبين الأُسطى «محمود». ساد الصمت بيننا طوال الطريق، وفيما كنّا نعبر الجسر المعَلَّق فوق المضيق نظرت إلى

شمالي عسى أن أحظى برؤية مبنى مدرستي (ثانوية كاباتاش) من الأعلى أو أرى المباني التي أعرفها. قال الأُسطى «محمود»: «لا تقلقْ سننهي عملنا بسرعة»، ثم أردفَ قائلاً: «ستلحقُ بمدرستك أيضاً».

سرّني أنَّ أمّي وزوج خالتي قد تحدَّثا عن همومي وشعرتُ بالثقة. بعد أنْ عبرنا الجسر المعلَّق عَلِقْنا بزحمة شوارع إسطنبول، ولم نستطع أن نجتاز حدود المدينة إلّا بعد أن صارت الشمس الغاربة قبالتنا تماماً، تغرز أشعتها الحارقة داخل مآقينا.

عندما أقول حدود المدينة أرجو من قُرّاء اليوم ألّا يخطئوا في التصور، فنفوس إسطنبول يومئذٍ كانت خمسة ملايين نسمة، ولم يكن قد بلغ تعداد نفوسها خمسة عشر مليون نسمة مثلما هو حالها في الوقت الحاضر الذي أقصُّ عليكم فيه هذه الحكاية. كلّما ابتعدتَ عن أسوار المدينة كانت البيوت تتصاغر وتزداد فقراً ويتباعد بعضها عن بعضها الآخر. ومن حيث تنتهي البيوت الفقيرة تبدأ المصانع ومحطات الوقود بالظهور وتنتشر الفنادق هنا وهناك.

سِرْنا مسافةً معينةً بمحاذاة السِّكك الحديديّة، وبعد أنْ حلَّ الظلام افترقنا عن الطريق العام. هنالك كنّا قد اجتزنا بحيرة «بيوك جكمجة» حين شاهدتُ مرّة أو مرتين أشجار السرو، كما رأيت مقابر وجدراناً من الخرسانة وأراضي شاسعةً فارغة... وفي معظم الأحيان لا يبصر المرء أيّ شيء. وعلى الرغم من أنّني كنت أشدد النظر فإنني لم أعرف أين نحن. كنّا نرى أحياناً ضوءاً أصفرَ داكناً ينبعث من غرفة عائلة متحلِّقةٍ حول مائدة الطعام أو أضواء مصابيح النيون لأحد المصانع. بعد حين صعدنا مرتفعاً، فرأينا البرقَ يومض أحياناً ويضيء السماء في البعد، أما الأراضي القريبة المترامية فكانت غارقةً في الظلام، لا يصل إليها البريق وكأنها أراضٍ منسيَّة. في بعض الأحيان كانت تتراءى لي مساحات شاسعة من أراضٍ جرداء، من خلال ومضات مجهولة المصدر، أراضٍ قاحلة ليس عليها زرع، أراها في لمح البصر وبعد ذلك أفقدها فلا أرى منها شيئاً.

بعد مرور وقت طويل توقّفنا في منطقة ما من هذه الأراضي الموحشة. لم يكن في الجوار بصيصٌ من نور، ولا مصباح يضيء لنا الدرب، ولم يكن هنالك منزلٌ قريب فظننتُ أنَّ الشاحنة القديمة هذه قد تعطَّلتْ.

قال الأُسطى «محمود»:

«هيا ساعدني لكي نُنزل هذه الحاجيات».

فأنزلنا سيور الأخشاب، قطع غيار الرافعة، أدوات حفر، قُدور ومقالي، أفرشة ولُحُف مربوطة بالحبال وحاجيّات أخرى ملفوفة في أكياس نايلون.

«هيا إذن يعطيكم العافية، ويسهّل أمركم»، قالها السائق وتركنا مبتعداً بشاحنته. حالما ابتعد عنا شعرت كم كانت الليلة حالكة الظلام فانتابني القلق.

في مكان بعيد كانت السماء تومض أحياناً إلّا أنَّ السماء خلفنا كانت مفتوحة والنجوم فيها تبدو في أشد لمعانها. في الأفق البعيد كنت أستطيع رؤية أضواء إسطنبول تنعكس على صفحة الغيوم مثل طبقة صفراء رقيقة من الضباب.

كانت الأرض نَديَّة وثَمَّةَ بقع بليلة بسبب تساقط الأمطار. بحثنا عن قطعة أرض يابسة على الأراضي المنبسطة، وجدناها أخيراً ثم نقلنا أثقالنا إليها.

وجد الأُسطى «محمود» تلك الأوتاد التي أنزلناها من الشاحنة وحاول أنْ ينصبَ الخيمة إلّا أنّه لم يفلح في ذلك. الحبال التي كان ينبغي علينا سحبها والأوتاد الصغيرة كلها ضاعت ولم نعد نستدلّ على أيّ شيء في الظلام الحالك. كل الأشياء تحولت إلى عقدة مستعصية في روحي. فكان الأُسطى «محمود» يهتف في الظلام:

«امسِكْ من هناك... لا ليس من هنا!».

ومن مكان ما سمعنا نعيقَ غراب. فكَّرتُ، بما أنَّ المطر قد توقَّف فلماذا ننصب الخيمة؟ ولكنني نزلت عند رغبة مُعلِّمي وبدأتُ أقدّر رأيه.

كان قماش الخيمة السميك يخفق، يتمايل ويفوح رطوبةً، منسدلاً علينا مثل الليل البهيم.

بعد منتصف الليل استطعنا نصب الخيمة ثم فتحنا الأفرشة وبسطناها.

كانت الغيوم التي جاءت بمطر الصيف قد ولَّت الأدبار وخلفت من بعدها سماءً مرصَّعةً بنجومٍ متلألئة. شعرت بالراحة حين سمعت من مكان غير بعيد صوت صرصار الليل. استغرقت في النوم حالما استلقيتُ في فراشي.

-3-

حينما استيقظتُ وجدتُ نفسي وحيداً في الخيمة. وكان هنالك دبُّورٌ يطنّ عند رأسي. نهضت من مكاني وذهبت إلى الخارج. كان قرص الشمس قد ارتفع في كبد السماء، واحتدَّتْ أشعة الشمس حتى كاد أُوارها يحرق عينَيّ.

وجدتُ نفسي على أرضٍ منبسطة مرتفعة، تنخفض عن شمالي شيئاً فشيئاً، وتهبط منحدرة باتجاه إسطنبول. ثَمَّةَ مساحات اصطبغت باللَّون الأخضر الفاتح وأخرى يشوبها الصفار... إنها حقول قمح وأخرى زُرِعَتْ ذُرةً، تليها أراضٍ جرداء قاحلة ومرتفعات صخرية. ثَمَّةَ بيوتٌ ومسجدٌ تشير إلى وجود بلدة صغيرة هنالك في وسط السهل، بينما ارتفعت تلّة صغيرة تولَّت حجبَ مرمى البصر وإخفاءَ مدى اتساع تلك البراري.

تُرى أين هو الأُسطى «محمود»؟ صوتُ البوق الذي حملَتْه الريح إلينا من بعيد، ومنظر الأبنية الرصاصية المجاورة للبلدة، يَشِيَان بأنّ هنالك ثكنةً عسكريةً قريبة. كانت هنالك في البعد جبال لازورديّة. لبُرهةٍ من الوقت خُيِّلَ إليّ أنَّ الدنيا كلها قد خرجت من خواطر بني البشر وها هي ذي لائذةٌ بالصمت. كنت أشعر بالثقة بالنفس لأنني بدأت بكسب قوتي بنفسي بعيداً عن سطوة الجميع، وبعيداً عن إسطنبول.

جاء صوت صفير قاطرة تشقُّ طريقها عبر السهل الذي كان بمثابة فاصل يقع بين البلدة وبين ثكنة الجيش. شدَّدتُ النظرَ إلى تلك النقطة فإذا بي أرى العربات المقطورة خلفها تشقُّ طريقَها عبر السهل المُقفِر

صوبَ أوروبّا. لم تكن القاطرة قد قطعت مسافة ما وهي متجهة نحونا حتى انحرفت بالتواءٍ متناغم وتوقّفت في المحطة. بعد ذلك ظهر الأُسطى «محمود» قادماً من ناحية البلدة. يمشي على طول الطريق ثم استدار باتجاهنا قاطعاً الحقول والأراضي الجرداء في خطٍّ مستقيم.

«اشتريتُ ماءً» قالها الأُسطى «محمود»، «هيّا حضّر لي شاياً».

وبينما كنت أحضر الشاي جاءنا صاحب الأرض «خيري بيك» بالشاحنة نفسها التي نقلتْنا إلى هنا البارحة. ومن الحوض الخلفيّ للشاحنة ترجّل شابٌّ أكبرُ مِنّي عمراً. فهمتُ من فحوى الكلام أنَّ الفتى يُدعى «عليّ» يعمل لدى «خيري بيك» وهو رجل من رجال الأعمال الذين يعملون في الصناعات النسيجية، اشترط معه أنْ ينزل إلى البئر، وقد جاء كبديل للعامل من أهل «جبزة» الذي غيّر رأيه في اللحظة الأخيرة ولم ينضم إلى الأُسطى «محمود». أخذ «خيري بيك» والأُسطى «محمود» يَذرَعان تلك الأراضي جيئة وذهاباً. كانت هنالك نسمةٌ تهبُّ من الاتجاه الذي كانا يذهبان فيه. كنّا نسمعهما وهما يتجادلان، ولا يكفّان عن الجدال حتى عندما كانا يصلان إلى أبعد نقطة في ذلك الاتجاه. يبدو من حركاتهما أنهما لم يتوصَّلا إلى اتخاذ قرار في تحديد الموقع الذي سيتمّ فيه حفرُ البئر. بعد ذلك حين اقتربتُ إليهما سمعتُ أنّ «خيري بيك» يخطط لإقامة مصنع لغسل وصبغ المنسوجات. فالماء ضروري في مثل هذه المصانع التي يكثر عليها الطلب، وخاصةً من قبل معامل الخياطة التي تعمل على تصدير منتجاتها إلى خارج البلاد.

تبلغ مساحة هذه الأرض القاحلة أكثر من عشرة دونمات، تغطّيها الأدغال هنا وترتفع هناك تلالٌ صخريّة، اشتراها «خيري بيك» بثمنٍ بخس وهو يعرف حقَّ المعرفة أنها أرضٌ لم تصل إليها بعد لا خدمات المياه ولا إمدادات الطاقة الكهربائية. يقول: «إذا اكتشفنا الماء هنا فستدرُّ علينا هذه الأرض أرباحاً طائلة». المهم هو إيجادُ الماء. إذا وُجد الماء فإنّ معارفَه السياسيّين سوف يوصلون الكهرباء إلى هنا. وفي كلّ مرّة

كان «خيري بيك» يجلب معه الخرائط التي ثُبِّتَتْ عليها أماكنُ وُرَش غَسل النسيج ومخطَّطات غرف الصباغة والمستودعات ومباني مكاتب الإدارة، وحتى خريطة المطعم. وفي كل مرّة يؤكّد على أنّه ينوي تشييد مصنع متكامل من جميع النواحي هنا على هذه الأرض. هناك لمست أنّ الأُسطى «محمود» يفهم جيداً ما يعنيه «خيري بيك»، أما نحن فكنّا نتخيّل كم من الهدايا سنحصل عليها عندما نكتشف الماء. ولم نكن نهتمّ بأيّ شيء إلّا بما سيغدقه علينا «خيري بيك».

«الله يعطيكم العافية، يسهّل أمركم ويقوّي بصركم»، قالها «خيري بيك» وكأنّه يودّع الجيش العثماني إلى ساحة القتال، وفيما ابتعدتْ الشاحنة أخرج نصف جسمه من نافذة السيارة ولوّح لنا بيده.

لم أستطع النوم لأنّ مُعلِّمي الأُسطى «محمود» كان يشخر في نومه فاضطررت إلى إخراج رأسي من جانب الخيمة. كانت أضواء البلدة تتلألأ، والسماء تطغى عليها مسحة لازورديّة، أما بريق النجوم فقد أحال الجوار إلى عالم برتقالي. وبدلاً من أنْ نعرج إلى السماء لنصل إلى النجوم، ترانا نحاول أنْ نغفو في الظلام ونحن جلوسٌ على برتقالة عظيمة، نحاول أن نخترقها. هل نحن على صواب حين نتسابق كيف يخترق الواحد منا جوف الأرض؟

-4-

يومئذٍ لم تكن أبراج الحفر شائعة الاستخدام في حفر الآبار، وقد تعارف الأسطوات كما كانوا في السابق منذ آلاف السنين في العثور على أماكن وجود المياه الجوفية معتمدين على حدسهم.

الأُسطى «محمود» كان واحداً من أولئك الأسطوات الثرثارين ممن يمتلكون شيئاً من البلاغة التي يمتاز بها القدماء من أمثاله، ولكنه كان يهزأ بأسلافه الذين كانوا يحملون غصناً متفرِّعاً ويذرَعون الأرض جيئةً وذهاباً ويقرؤون الأدعية وينفخون شمالاً وجنوباً للعثور على المياه. كان يعتبر نفسه آخر حبّة في عنقود أُسطوات الصنعة القدامى الذين امتهنوا حفر الآبار. لم يكن متبجِّحاً بل كان متواضعاً، وبفطرته السليمة أيقنَ أنَّ الانقراض سيحلّ بهذا الجيل حتماً.

ذات مرّة تحدَّثَ إليّ قائلاً:

«عليك أنْ تأخذ نوعية التراب ولونَه بعين الاعتبار. إنْ كان غامقاً أم أسود، أو كان رطباً أم مبلَّلاً... عليك أن تلاحظ إن كانت الأرض منخفضةً أم مرتفعة، تربتها صخريّة، غضاريّة، أم تكثر فيها الحَصَى! والأهم من هذا وذاك هو أنْ تشعر بالمياه الموجودة في أعماق الأرض». وفي مناسبة أخرى قال لي (وكان يهدف إلى تعليمي ونقل خبرته إليَّ): «التربة تكون غامقة ورطبة حيث تكثر الأشجار، أليس كذلك؟ عليك أنْ تتحقّق من جميع تلك العلامات وأنْ تكون حذراً لئلّا تخدعَك الإشارات بسهولة».

الأرض مثلها مثل السماوات السبع؛ فهي مكوّنة من طبقات. (ففي

بعض الليالي كنت أتأمّل النجوم في السماء وأشعر بالعالم السفلي المظلم الموجود تحتنا). مثلاً الطبقة السوداء تقع على عمق مترين، يشكّلها الوحل فلا تسمح هذه الطبقة بمرور الماء، وربّما يخرج من تحتها تراب غاية في الرداءة جافّ، أو يتمخَّض عن موقعٍ يكثر فيه الرمل. كان على الأُسطوات القدامى الذين يبحثون عن الماء أنَ يشعروا بأنفاس التراب والعشب الذي يدوسون عليه، أن يفهموا لغة الطير ويسمعوا ما يدور بين اليعاسيب والحشرات. وفيما هم ينقلون خطواتهم فوق السطح ينبغي عليهم أنْ يشعروا بطبقات الأرض تحتهم، وما يخفي جوفها من طين وصخور.

هذه القابلية التي يتميّز بها بعض حَفَّاري الآبار يعتقدون واهمين أنها صفة خارقة تولَّدتْ لديهم بفعل تدخُّل قوى ما وراء الطبيعة. يشعرون بفطرتهم وبحدسهم بمكوّنات جوف الأرض، مثلهم في ذلك كمثل الكهنة الشامانيِّين في آسيا الوسطى عندما يخاطبون الآلهة وشياطين العالم السفلي.

كان أبي يضحك مستهزئاً بهذه الخرافات، أمّا عامّة الناس فكانت تريد تصديق هذه الخزعبلات. لا لشيء إلّا من أجل الحصول على الماء بتكاليف زهيدة. فما زلت أتذكر إلى الآن كيف كان الناس يبحثون عن المياه في حدائق بيوتهم في أحياء «بشيكتاش» وهم يؤمنون بهذه الأوهام. وكم من مرّة رأيت حفَّار بئرٍ ينصت إلى الأرض في حديقة خلفيَّة يتجوَّل فيها الدَّجاج.

لم يكن أبي يستشيرني في أيّ أمرٍ قَطّ ولا يشركني في المسائل الكبيرة ذات الأهمية، تماشياً مع عادة الكتمان والحفاظ على السريّة التي اكتسبها من جرّاء العمل في السياسة. بينما قام الأُسطى «محمود» بطرح أفكاره عليّ قبل أنْ يتّخذ قرارَه. وصف لي هذه الأرض على أنّها أرضٌ صعبة، ففرحت بتصرُّفه هذا وبدأتُ أحبّه. ولكنّه بعد ذلك انغلق على ذاته، وبدأ يتّخذ قراراته من دون الرجوع إليَّ. هكذا أحسست بتأثيره القويّ عليّ

وطابت نفسي لهذا التقرُّب وهذا الحُنُوّ. سُرِرتُ بذلك حيناً وفرحت بأبي، وحيناً آخر شعرت بالسخط عليه. بعد أن ذَرَعَ الأُسطى «محمود» هذه الأرضِ جيئةً وذهاباً وهو يفكر أين يحفر البئر وقع اختياره على موقع ما فدَقَّ وتداً فيه. تُرى لِمَ اختارَ هذه النقطة؟ وما الفرق بينها وبين الأماكن الأخرى؟ إذا نقلنا هذا الوتد وقمنا بتثبيته في مكان آخر فهل نجد الماء هناك؟ أردت أن أوجه هذه الأسئلة إلى الأُسطى «محمود» ولكنني مع ذلك كنت مدركاً أنّني لن أفعل. فقد كنت طفلاً غرّاً، أما هو فكان على العكس منّي. لست أيّ شيء بالنسبة إليه، أنا من عثر على مزايا الأبوّة فيه، أمّا هو فلا هو أبي ولا هو صديقي...

ربط حبلاً إلى الوتد ثم ربط مسماراً منبلاً إلى الطرف الآخر من الحبل. قال يجب أن يكون طول الحبل متراً واحداً. حجارة هذه الأرض لن تتحمّل ثقل بناء جدار حول البئر. وسيكون الجدار من الخرسانة المسلَّحة بسُمْكِ عشرين أو خمسة وعشرين سنتيمتراً. حافظ على أن يكون الحبل مشدوداً إلى آخره ثم رسم بالمسمار دائرة قطرها متران. في الحقيقة لم يكن يرسم دائرة بالمسمار بل كان يؤشّر بنقاط متباعدة على سطح الأرض. ثم عملنا أنا و«عليّ» على توحيد المسافات ما بين النقاط المؤشَّرة حتى ظهرت الدائرة المرسومة إلى العيان. قال الأُسطى «محمود»:

«يجب أن تكون فوهة البئر دائرة منتظمة جدّاً، فإذا كانت غير منتظمة تهاوى الجدار المحيط بفوهة البئر».

لأول مرّة سمعت كلاماً كهذا يعبّر صاحبه عن خشيته من هَيَلانِ التربة. بدأنا أنا و«عليّ» بالحفر داخل الدائرة بالمعول والمجرفة. كان الأُسطى يحفر الأرض حيناً وأنا أجرف الأتربة وأضعها في العربة ليذهب بها «عليّ». والحقّ يقال إنّ كلينا لم نكن لنلحق بالأُسطى. كان «عليّ» يقول لي وهو يلهث: لا تملأ العربة إلى آخرها لكي نذهب بها بسرعة، لنفرغها ونعود بها بسرعة. وبينما يهدّنا التعب نحن الاثنين بعد مرور وقت قصير،

نجد أنَّ أكواماً من التراب المحفور قد خلفه الأُسطى «محمود» بمعوله النازل والصاعد على نحو سريع. وفيما كانت تتجمَّع أكوامٌ كثيرة من التراب كان يرمي المعول ويذهب إلى شجرة الزيتون ليستلقي في ظلّها. يدخّن سيجارة وينتظرنا متى ننتهي من رفع أكوام التراب من بعده. وقد أدركنا أن مهمَّتنا في العمل هي أنْ نحذو حذوه، وأن نتصرف كما يرتئي هو ونمتثل لأوامره، وأن نلحق به إن استطعنا.

أشعة الشمس أحرقت مُؤخّر عنقي، والعمل الشاق ذهب بالجلد في باطن كَفَّيَّ وتسبَّبَ في تقرُّح أصابعي. وقد بلغ بي التعب مبلغه، حتى إنّني لم أستطع تناولَ وجبتي أو تناولَ حساء العدس من صحني.

«ستتعلَّم أيها السيد الصغير ستتعلَّم»، قالها الأُسطى «محمود» مُطَمئِناً إيّايَ وهو يرمش من دون أن يشيح ببصره عن شاشة التلفاز الصغير.

أحسست أنّه كان يحصبني بكلامه هذا، ذلك أنّني لم أتعوَّد على العمل العضلي بعد، ولكن غمرتني السعادة لأنه دعاني بالسيد الصغير، وهذا دليل على تقبُّله إيَّاي لكوني فتى طريّ العود، سليل عائلة حضريّة أصابتْ شيئاً من التعليم. كذلك تأكَّد لي أنَّ مُعلِّمي سيشملني برعاية أبويّة ويفي بوعده؛ إذ قطع عهداً على نفسه ألّا يسمح لي بالنزول إلى البئر، وألّا يحمّلني أكثر من طاقتي، ولأنني شعرت بأنه يشفق عليّ ويوليني أقصى اهتمامه.

-5-

على بعد خمس عشرة دقيقة من النقطة التي حفرنا بها البئر وفي مدخل المنطقة الآهلة بالسكان تواجهك لوحةٌ صُبغت بلون أزرق كُتب عليها بحروف كبيرة باللون الأبيض: بلدة «أونجوران» نفوسها 6200 نسمة. في الأيام الأُوَل وما إنْ اشتدَّت بنا الحاجة إلى شراء المؤونة حتى اضطررنا إلى النزول إلى بلدة «أونجوران».

اصطحبَنا «عليّ» إلى البلدة وذهب بنا إلى دكّان النجَّار. ومثلما هو الحال مع جميع حَفَّاري الآبار، كان علينا أنْ ننْصبَ رافعة خشبية عند فوهة البئر، لأنّنا وصلنا إلى عمق مترين ويتعذّر علينا نقل الأتربة إلى خارج البئر، إذ لم تكن كمية الأخشاب التي نقلها الأُسطى «محمود» بشاحنة «خيري بيك» كافية لعمل رافعة. سألنا النجّار من نحن؟ وماذا نعمل هنا؟ فقال له الأُسطى «محمود» إننا حفّارو آبار. وما إنْ عرف مكان عملنا حتى انبرى قائلاً: «هاه... عرفت... على السهل فوق».

وفي الأيام التالية جعل الأُسطى «محمود» من المرور بالنجّار عادةً متَّبعة لا يستغني عنها كلّما نزلنا إلى البلدة، كما كان يمرّ بصاحب المحلّ بائع السجائر أو ببائع التبغ أبي النظارات، أو بائع العُدَد الإنشائية الذي كان يظلّ فاتحاً دكانَه إلى ساعة متأخِّرة من الليل. في الأيام التي كنّا نقضيها في الحفر كنت أحب أن يصطحبني الأُسطى «محمود» إلى بلدة «أونجوران» وأن أتجوَّل في الأزقَّة والحارات، أو أجلس في الحديقة الصغيرة التي تحيط بها أشجار الصنوبر والسرو، أو على المصاطب التي

ألقيت على الرصيف خارج أحد المقاهي، أو التسكع في الزوايا الظليلة داخل المحطّة.

الكارثة التي ابتلِيَتْ بها بلدة «أونجوران» هي أن سكانها سُحِقوا تحت تأثير الأعداد المتزايدة من العسكر الذين جيء بهم إبّان الحرب العالمية الثانية واتخذوا مواقع لهم جوار البلدة، بهدف مواجهة خطرِ زحفٍ ألمانيٍّ عبر البلقان، أو مواجهة أيٍّ هجوم قد يقوم به الروس عبر أراضي بلغاريا، والهدف هو الدفاع عن «إسطنبول». عسكرتْ ألوية المشاة هذه هنا في الجوار وظلّت، أو لَكأنَّها نُسيَتْ هنا على مدى أربعين سنة. ولكن هذه المعسكرات صارت مصدر رزق لأناس هذه البلدة، كما أصبحت مصدر معاناتها.

كانت المحلّات الكائنة في مركز البلدة تؤمِّن الكثير من الاحتياجات الضرورية للجنود الذين كانوا يتمتعون بإجازة النزول إلى السوق في عطلة نهاية الأسبوع، وتبيع لهم بطاقات معايدة، جوارِب، وأقراص «الجيتون» للمكالمات الهاتفية، والبيرة. ومن أجلِ هؤلاء افتتحت المطاعم ومحلّات الكباب في مكان واحد بعينه أُطلِقَ عليه «زقاق المطاعم». يشهد الزّقاق ازدحاماً منقطع النظير طوال النهار في أثناء عطلة نهاية الأسبوع ويتوالى جنود الدَّرك على حمايته. وما إن يحلّ المساء حتى تجد المقاهي ومحلّات المعجَّنات قد خلتْ من زبائنها، وفي الليل تلمس الوجه الآخر لبلدة «أونجوران». تجد جنود الانضباط يتدخّلون لقمع الجنود غير المنضبطين والمتسرِّبين من ثكنة الحامية، الذين يثيرون الشغب. حتى إنهم كانوا يتدخّلون على الفور من أجل كبح جماح الجنود الذين يتشاجرون في أماكن اللَّهو.

قبل ثلاثة عقود من السنين وبينما كان تعداد الحامية أكثر من تعداد أهالي البلدة، افتتح فندقان لإيواء العوائل التي تأتي لزيارة أبنائهم الجنود. وما إن تيسَّرت طرق الذهاب والإياب إلى إسطنبول حتى تم إغلاق الفندقين. وتحوَّل أحدُهما إلى بيت للدَّعارة شبه علنيّ، هذا ما قاله لنا

«عليّ» في يومنا الأول في البلدة حين أراد أنْ يعرّف لنا معالمها مثل أيّ مرشد سياحيّ. يقع هذان الفندقان بميدان المحطّة حيث نُصب وسطه تمثال لأتاتورك. هذا الميدان أحببناه منذ اليوم الأول بأضوائه البرتقالية المنبعثة من دائرة البريد والتلغراف ومقهى الروملي ومحلّ «ييلدز» الذي كان يبيع المثلجات بكثرة، ويبقى مفتوحاً إلى وقت متأخِّر بعد الظهيرة.

«عليّ» هذا كان أبوه يعمل حارساً ليليّاً في مستودع للعجلات ملحق بموقع بناء تعود ملكيّته لأحد أقارب «خيري بيك». اصطحبنا الفتى إلى أحد الأسطوات الحدّادين. كان الأُسطى «محمود» قد انتزع مبلغاً من المال من «خيري بيك» صاحب الأرض، وراح من فوره واشترى ألواحاً خشبية نشَرَها ثم اختار حلقات حديدية لربط أجزاء الرافعة بعضها ببعض، ثم أخذ أربعة أكياس من الإسمنت، مجرفةً صغيرة، مساميرَ وحبلاً. هذا الحبل لن يستخدم في النزول إلى البئر، فالحبل الذي سوف نستخدمه في النزول إلى البئر قد جلبناه معنا من «جبزة» وكان ملفوفاً على أسطوانة الرافعة.

كل هذه المواد والعُدَد التي اشتراها المُعلِّم حمّلناها على عربة خشبية يجرّها حصان لكي ينقلها صاحب العربة إلى مكان العمل. وفيما كانت الدواليب المعدنية تدور وتصطكّ على بلاطات الشارع لتصدر ضوضاء مخيفة فكّرتُ بأنّ أيامي هنا قد اقتربت من خواتيمها، وأنني في القريب العاجل سأرحل إلى «جبزة» لأمكث بجانب والدتي، ومِن ثَمَّ سأذهب إلى إسطنبول. وأذكر أنّني سرت إلى جانب الحصان بينما كنت أغذّ الخَطوَ لألحق بالعربة، وبمُجرَّد النظر إلى عَينَي الحصان السوداوين استطعت أن أتكهَّن كم كان هذا الحيوان مرهَقاً.

كنّا في ميدان المحطّة حين فُتح باب أحد البيوت وظهرت إلى الخارج امرأةٌ في أواسط عمرها، ترتدي بنطلون جينز أزرق. التفتت إلى الوراء وقالت بنبرة فيها تأنيب ودلال: «أين أنتم؟».

خرج من بعدها شابٌّ أكبر مِنِّي سنّاً بخمس أو ستّ سنوات ووقف أمام الباب الذي جئنا قبالته أنا والحصان ثم تبعتهما امرأةٌ جذّابة ذاتُ

شعرٍ أحمرَ، رشيقةٌ، فارعةُ الطول. تلك المرأة التي ترتدي بنطلون جينز ربما هي أمّ الفتى والفتاة.

«أنا سأجده حالاً»، قالتها المرأة ذات الشعر الأحمر وعادت مرّة أخرى إلى الداخل. ولكنها قبل أن تدخل إلى البيت ألقت نظرةً خاطفة إليّ وإلى الحصان الهرِم الذي كان يسير في الخلف. كلانا، أنا وربما الحصان أيضاً، قد لمحنا مسحة الحزن التي شابت الابتسامة المطبوعة على شفتيها المدوّرتين. كان قوامها ممشوقاً، ترتسم على محيّاها تعابير رقيقة وجذّابة، تزداد ألقاً حينما تبتسم.

وما إنْ خرجت العربة بحملها وحصانها من «أونجوران» ووصلت بنا إلى نهاية الطريق المعبَّدة بالبلاطات القاسية حتى انقطع صرير دواليبها، وعندما صعدنا المنحدر وبلغنا السهل الذي كنّا نعمل عليه شعرتُ أنّ عالماً آخر قد فَتَحَ لنا أبوابه. فالأرض التي يمكن وصفها على أنها نصف جرداء وبلا عشب قد أزهرت وأينعت فيها الألوان. كانت الغربان تظهر خارج حقول الذُّرة، وهي تتقافز هنا وهناك عند المنعطفات وعلى حافّات الطريق المتعرجة. حينما ترانا قادمين تنشر أجنحتها وتطير.

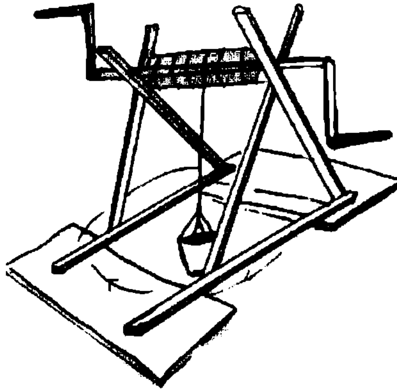
في البعد لمحتُ المرتفعات اللّازورديّة المترامية صوب البحر الأسود وقد تلفَّعت بلونٍ أزرقَ فريدٍ من نوعه، يليها سهلٌ منبسطٌ تتَّضح عليه قِطَعٌ من أراضٍ صفراء وأخرى كالحة اللّون تتخلَّلُها بقعٌ خضراء تعلن عن وجود أشجار متراصّة هنا وهناك. بفضل رؤيتي للمرأة ذات الشعر الأحمر بدأتُ أشعر كم كانت الأشياء المحيطة بي رائعة، السهل المرتفع الذي تعيَّن علينا أن نحفر عليه بئرنا، البيوت البعيدة ذات الألوان الشاحبة، أشجار الحور المتأرجحة أغصانها، سكك الحديد المقوّسة، العالم برمَّته وكلّ شيء كان جميلاً يبعث السرور في النفس والروح.

في الحقيقة لم تسنح لي الفرصة كي أنظر إلى وجهها مليّاً. بدأتُ أتساءل لم كان الولد والبنت يتشاجران مع والدتهما؟ دلالها أثَّر فيّ وخلب لُبّي. خصلات شعرها الأحمر كانت تأتلِق في النور بشكل رائع.

نظرتْ إلى وجهي باستغراب وكأنها تعرفني قبل هذا، كأنَّ بها تقول: ما الذي أتى بك إلى هنا؟ تماماً في تلك اللحظة كنّا قد تقابلنا وجهاً لوجه وتأمَّل الواحد منا وجه الآخر، وكأن كل واحد منا كان يفتش عن ذكرى كانت تجمعنا في يوم ما، أو يتحرّى عنها. فكلّما ذهبتُ في إغفاءة انبثقت النجوم أمام ناظري وحضر وجه المرأة ذات الشعر الأحمر أمام عيني.

-6-

في صباح اليوم التالي، أيْ في اليوم الرابع لمباشرتنا العمل، وبواسطة الألواح الخشبية، تمكَّنَّا من نصب الرافعة التي جلبناها معنا. الرافعة هي عبارة عن أسطوانة تُدار بواسطة مقبضين. يكون طرف المقبض في العادة رفيعاً، أما طرفه المثبت إلى محور الأسطوانة فغليظٌ. لُفَّ حبلٌ طويلٌ حول الأسطوانة رُبِطَ في آخره سطلٌ كبير.



ترتكز الرافعة برمّتها على قاعدتين خشبيّتين تستند عليهما لكي يتسنّى لنا نحن المشتغلين عليها أن نضع السطل بسهولة على إحداهما حين نرفعه إلى الأعلى. وبهدف إرشادنا إلى الطريقة الصحيحة في العمل وتعليمنا، راح الأُسطى «محمود» يرسم بالقلم الرصاص أجزاء الرافعة بأدقّ تفاصيلها.

أنا و«عليّ» ندير مقبضَي الرافعة لنرفع السطل إلى الأعلى. في العادة يكون السطل أكبر بقليل من دلو الماء، ويصبح ثقيلاً حين يُملأ بالتراب والحصى فلا نستطيع رفعه إلى الأعلى إلّا بِشِقّ الأنفس. كنّا ندير العتلة حتى يصل السطل إلى متناول أيدينا ثم نرخي الحبل ونسحبه إلى جانب، على إحدى القاعدتين لنفرغه. إنّه عمل يتطلّب قوةً وجلداً إلى جانب الخبرة التي لا بدّ منها. بعد سحب السطل وركنه جانباً على المسند الخشبي للرافعة كانت عينانا أنا و«عليّ» تلتقيان، ونقول بصوت واحد: صار! ونتنفّس الصعداء، ثمّ يتناول كلٌ واحد منا مجرفته ونبدأ بإفراغ شيء من السطل لتخفيف وزنه ثم نرفعه معاً ونفرغ محتواه في العربة اليدوية. بعد ذلك ندلي السطل بتمهّل إلى البئر ونُعلِم الأسطى «محمود» بمجيء السطل؛ نهتف قائلين: جاءك!

فيتسلَّم الأُسطى «محمود» السطلَ ويضعه في مكانٍ مناسبٍ على أرضية البئر ثم يعمل بالمجرفة ليملأه بالتراب والأحجار التي كان قد أخرجها. كنت وأنا في الأعلى عند فوهة البئر أسمع ضربات معوله وهمهمته وهو يجالد صلابة الأرض بهمة ونشاط. ينزل نحو عمق الأرض بمعدل متر واحد يوميّاً، أراه من فوق، يصغر حجمه شيئاً فشيئاً ويبتعد حتى يصعب علينا سماع همهماته.

كنا نسمع صوته قادماً من الأسفل من قعر البئر، وهو منهمك في ملء السطل بالأتربة. وفي الوقت نفسه كان يخاطبنا من دون أن يرفع رأسه لينظر إلينا إلى فوق، ويصيح: اسحبْ!

أنا و«عليّ» كنّا ننتظر في الأعلى لدى الرافعة، وحالما نسمع إيعازَه ندير عتلة الرافعة فوراً، لكي نرفع السطل الممتلئ إلى الأعلى. كان «عليّ» فتى يحب المُداهَرة، يتركني أحياناً لوحدي فأنتظره ريثما يقابلني على المقبض الآخر، لكي ندير الأسطوانة معاً. وأحياناً عندما يتلكّأ الأُسطى «محمود» لبعض الوقت كان «عليّ» يجدها فرصة سانحة ليهبّ إلى الرافعة قبل التوقيت المناسب ونظلّ ننتظره متى ينتهي من الحفر، ومتى يملأ السطل بالتراب.

دقائق الانتظار هذه في خِضَمّ العمل المتواصل كانت بالنسبة إلينا فرصةً لنيل قسط من الراحة، والتحدُّث بعضنا إلى بعض. فكُنّا نتبادل بضع كلمات مقتضبة ليس إلّا، ولكن لم نكن نتكلم عن الأشخاص الذين التقينا بهم في البلدة. إذ إنّني ومنذ اللحظات الأولى أدركت أنّه من البلادة أن أسأله: من هي تلك المرأة الغامضة المتميزة بنظراتها الحزينة وشفتيها الرائعتين، المرأة ذات الشعر الأحمر؟ لا أدري لِمَ امتنعت عن إلقاء السؤال عليه، هل لأنني أيقنتُ أنّه سيحسم الأمر منذ البداية ويقول لي لا أعرفها؟ أم أنّني كنت أخشى أن أسمع منه كلاماً يتسبّب في خدش مشاعري؟

صورتها تراود مخيّلَتي على الدوام. كنت أخفي ذلك عن «عليّ» بل كنت أنوي إخفاء ذلك حتى عن نفسي. ففي الليل بينما كانت إحدى عينيّ تتأمل النجوم والأخرى تتابع تلفزيون الأُسطى «محمود» وفيما كان النوم يلألئ أجفاني كانت صورتها تراودني وتتجسّد ابتسامتها أمام ناظري. ربّما لمْ أكنْ لأفكّر فيها على هذه الدَّرجة من الجدّية لولا تلك المعاني الكامنة في تعابير وجهها وقَوْلة: أحبك! البادية على مُحيّاها، ولولا هذا الكَمّ الهائل من الحنان الذي كانت نظراتها مشحونة به لما فكرتُ بها إلى هذا الحد.

مرّة واحدة في كل ثلاثة أيام، نحو الظهر، اعتاد صاحب الأرض «خيري بيك» أن يمرّ بنا بشاحنته ويسأل بنفاد صبر: كيف يجري العمل؟ فإذا كنّا في استراحة الظهيرة كان الأُسطى «محمود» يدعوه إلى المائدة ليشاركنا الطعام. وكان غداؤنا في العادة مكوَّناً من الطماطم والخبز والزيتون والجبن، إضافة إلى شربات الزبيب والكوكاكولا. ويصادف أحياناً أنّه يجد الأُسطى «محمود» في داخل البئر على عمق بضعة أمتار، حينها كان يطل عليه من فوق، كما نفعل نحن، ويكتفي بالنظر إليه باحترام ودون أن ينبس ببنت شفة.

أمّا إذا كان الأُسطى خارج البئر فكان يقود «خيري بيك» ويذهب به إلى أقصى مكان في السهل، حيث يفرغ «عليّ» محتوى العربة اليدويّة

من تراب وحجارة. يتحدّث عن مجرى العمل وتكهُّناته بخصوص الحفريّات ومستوى المياه ومدى بُعدها عن مستوى السطح. يتناول كِسَرَ الحجارة، يريها للسيد «خيري بيك» ثم يفتّتها بين أصابعه ويعرض الغامق والفاتح منها أمام ناظِرَيه.

في الأيام الأولى فيما كنّا نحفر بوتيرة معتادة في أرضٍ رخوة يتخلَّلُها القليلُ من الحصى والأحجار. وعلى عمق ثلاثة أمتار، أيْ في اليوم الرابع والخامسِ حين اعترضتْنا طبقة صخرية صلدة جعلتنا نبطئ من سرعتنا. كان الأُسطى «محمود» مفعماً بالثقة يتحدّث قائلاً: بعد أن نجتاز هذه الطبقة سوف تواجهنا أرضٌ رخوة رطبة. أمّا «خيري بيك» صاحب معمل النسيج فيقول: إنْ شاء الله... هيا إذن! ويعيد إلى الأذهان تعهُّدَه بأنه سوف يذبح لنا ذبيحة، كما يذكر أنّه سوف يغدق على المُعلِّم هدايا كثيرة ويعطي بقشيشاً لعماله، ويعدّ مائدة عريضة وطويلة ويذكر اسم محلّ المعجنات الذي سيشتري البقلاوة منه.

بعد الظهر، بعد أن يكون «خيري بيك» قد غادر المكان كانت وتيرة العمل تتباطأ. كنت أذهب إلى شجرة الجوز التي تبعد عنا مسيرة دقيقة واحدة وأخلد إلى النوم في ظلالها الوارفة. قبل أن أسترسل في النوم، وقبل أن أفكر في المرأة ذات الشعر الأحمر أو أستحضر صورتها في مخيلتي كانت هي بالذات تسبقني بالخروج عليّ بكل عنفوان وحيوية لتسحرني بكلامها قائلة: أنا أعرفك حقّ المعرفة! كان هذا الكلام يروق لي.

لم تفارق صورتها مخيّلتي حتى في أشد الأوقات حرارة. كنت أجد في هذه الأحلام متعةً تجعلني مشدوداً إلى الحياة بأواصر متينة وكان فيها الشيء الكثير ممّا يمنحني الأمل والتفاؤل.

في الأجواء القائظة كنّا أنا وعلي نتراشق بالماء ويسكب أحدنا الماء على رأس صاحبه ونشرب الكثير منه. فالماء يُحمَل إلينا على شاحنة «خيري بيك» في حاويات بلاستيكية كبيرة مرّة في كل يومين أو ثلاثة. الشاحنة نفسها كانت تجلب لنا من البلدة ما أوصينا من أرزاق.

تأتينا الشاحنة مرّة واحدة خلال ثلاثة أيام، حاملة إلينا ما سبق أن أوصينا به من طماطم وفلفل أخضر طازج وزبدة «صانا» وخبز وزيتون فيخرج الأُسطى «محمود» إلى سائقها ليدفع إليه ثمن البضاعة. إلى جانب ذلك كانت زوجة «خيري بيك» ترسل إلينا البطيخ وبعض الشوكولاتة والسكاكر، وأحياناً ترسل قِدراً مليئةً بأكلات معمولة في المنزل مثل طبق الفلفل المحشي أو أكلة الرُّز بالطماطم إضافة إلى اللّحم المحمَّص وأكلات أخرى.

كان الأُسطى «محمود» يتحلّى بالكثير من الجدية في اختيار الطعام الذي نأكله على العشاء. ففي كل يوم، ما إنْ يحل وقت الظهيرة، وقبل أن يعدّ العُدّة لصبّ الخرسانة كان يشير إليّ أن أغسل ما يتوافر عندنا من بطاطس وباذنجان وطماطم وفلفل طازج. يقطعها إلى وَذْرٍ صغيرة ويأتي بكمية من العدس ثم يضعها في الطنجرة التي ابتعنا إيّاها من «جبزة» يضيف شيئاً من السمن، يوقد النار في المشعل المثبت على قِنّينة الـ«آي غاز» ويوكل إليّ أنا أمرَ تقليب محتوى الطنجرة وتفحص محتواها. حتى مغيب الشمس كان إنضاج الطعام على مهل، وفوق نار هادئة من ضمن مسؤولياتي؛ لذلك كان يتوجَّب عليّ أن أقلّب الطبيخ بين الحين والآخر لئلّا يلتصق الطعام في قعر الطنجرة.

في الساعتين الأخيرتين من كل يوم اعتاد الأُسطى «محمود» أن يغلّف جدار البئر بالألواح الخشبية. وكخاتمة لعمل يوم كامل كنّا نصبّ ما بينهما بخرسانة إسمنتية. أنا و«عليّ» نجهز خلطة من الإسمنت والرمل ونظلّ نرشّ الخلطة بالماء. نحمل الإسمنت إلى العربة اليدوية ثم نصبّ الخلطة في مجرى نصف مخروطي صنع من خشب. يدّعي الأُسطى «محمود» وبكل فخر واعتزاز أنّه هو أول من استعمل هذه العدة، مِن دون أن تكون هنالك حاجة لاستخدام السطل. ولكي يصل الخليط الذي ننقله بالمجارف إلى مَزْرَد الأخدود الخشبي، ومن أجل تصويب وجهته بشكل صحيح، كان الأُسطى «محمود» يعطينا إيعازاته من الأسفل قائلاً: «إلى الأعلى، إلى اليمين قليلاً».

إذا تلكّأنا في تقليب الخلطة أو تأخَّرْنا في نقلها إلى العربة اليدوية كان يغضب ويبدأ بالصراخ من تحت قائلاً: «هيا استعجلوا، الخلطة بردت». حينها كنت أشتاق لرؤية والدي الذي لم يصرخ في وجهي، ولم يؤنّبني يوماً، لكني كنت غاضباً عليه لأن الفاقة التي نعيش كانت بسببه، ولهذا أجدني أعمل هنا. بينما كان الأُسطى «محمود» يهتمّ بي، ويقصّ عليَّ القصص قاصداً فيها إعطائي بعض العبر، وهذا ما لم يكن أبي يفعله. وبين هذه وتلك لم يكن الأُسطى ليبخل في الاستفسار عن صحّتي، ويسألني بين الحين والآخر إن كنت متعباً أم جائعاً؟ عندما كان أبي يؤنبني على تصرف ما كنت أجده محقّاً، فأشعر بالخجل وأنسى الموضوع. أما تأنيب الأُسطى «محمود» فكان يترك في نفسي أثراً بالغاً. كنت أطيع أوامره، أمتثل لإرادته وأكفّ عمّا أقوم به، وفي الوقت نفسه كنت أغضب عليه.

في نهاية يوم العمل كان الأُسطى «محمود» يهتف من أسفل البئر: أرسلْ! فنُدلي السطل إليه. يضع إحدى قدميه في السطل أما نحن فندير عتلة الرافعة ونسحبه إلى الأعلى ببطء كأنه يستخدم مصعداً كهربائيّاً. وما إن نصل به إلى سطح الأرض كان يذهب من فوره إلى شجرة الزيتون القريبة ويستلقي تحتها. عندئذ كان الصمت يطبق على الجوار، وكل شيء في المحيط ينبئني كم أنا بائس، كم أنا بعيد عن أهلي، وعن أيّ مظهر من مظاهر الازدحام وعن إسطنبول، فيشتد بي الحنين إلى حياتنا الغابرة في «بشيكتاش» وإلى أمّي وأبي.

أنا أيضاً كنت أرمي نفسي إلى ظل شجرة مثلما يفعل مُعلِّمي الأُسطى «محمود» ولكنني كنت أشيّع «عليّ» العائد إلى المدينة مشياً على الأقدام وأظل أراقبه حتى يختفي عن الأنظار. لم يكن يستخدم الطرقات المتعرجة وحسب بل كان يسلك طريقاً مختصرة عبر السهول الخالية المغطاة بالدغل والأشواك. تُرى في أيّ حيّ من أحياء البلدة تقع دارهم التي لم نَرَها قَطّ؟ تُرى هل المرأة الجميلة ذات الشعر الأحمر هي أخته؟ أم أنّ أمَّها القبيحة تسكن بالقرب من الدار التي يقيم فيها «عليّ».

بينما كنت منهمكاً في التجوال بين أفكاري كمتشرّد كنت أشمّ رائحة الدخان المنبعث من سيجارة الأُسطى «محمود» ومن هناك يصل إلى سمعي زعيق الجنود وهم يصرخون واحداً إثر آخر: حاضر... حاضر! ومن مكان آخر قريب أسمع طنين دبّور يطنّ وأفكر كم هو مثير أن تشهد أنك تعيش في عالمٍ مشحونٍ بالغرابة.

في اليوم الرابع بينما كنت ذاهباً لتقليب الطبيخ في طنجرة الطعام رأيت الأُسطى «محمود» مستغرقاً في نوم عميق، ووجدت في نفسي ذلك الطفل الصغير الذي ينظر إلى أبيه النائم على أنّه مارد غارق في قيلولة، وأنه قزم صغيرٍ مثل «جليفر» الذي يقع في بلاد المردة. طفل ينظر بتمعّن إلى هذا الطُّود المستلقي، وإلى ذراعيه وساقيه. يداه، كفّاه وأصابُعه، كانتا صلدتين ذات تقاطيع قاسية ولم تكونا رقيقتين مثل يدي أبي. كانت هنالك ندوب وآثار قطع حاد وزغب أسود يغطي أماكن متفرّقة من ذراعيه وعلى بشرته السمراء التي لوَّحتْها الشمس. أما الأجزاء التي لم تطلْها الشمس من جسمه فكانت تبدو بيضاء من تحت رُدن القميص. نظرتُ إلى أنفه الطويل الدقيق ومنخريه اللَّذين كانا ينفتحان ويتحرَّكان ببطء حينما يتنفَّس، مثلما كنت أتأمّل أبي وأنظر إليه بحيرة. شعر رأسه الكثيف كان قد غزاه الشيب هنا وهناك. لمحتُ قطعاً صغيرة من التراب المتكلِّس عالقةً بين خصلات شعره، وبعض النمل كان يدبُّ صاعداً على طول رقبته إلى الأعلى.

-7-

عندما تغيب الشمس ويحلّ المساء كان مُعلِّمي يلقي عليّ السؤال ذاته كما في كل يوم، يسألني: هل ستستحمّ؟

الشاحنة إياها كانت تأتينا مرّة واحدة كل ثلاثة أيام محملة بحاوية بلاستيكية مليئة بالماء، مركّبٌ عليها صنبور. هذا الماء لم نكن نستعمله إلّا في غسل أيدينا. إذا أردنا أن نستحمّ فكان علينا أن نجمع الماء في طَشْتٍ بلاستيكيٍّ آخر.

كنت أشعر بالقشعريرة عندما يسكب الأُسطى «محمود» الماء على رأسي من فوق، وكان بدني برمَّته يقشعرّ ليس لأنَّ الماء لم يدفأ بما فيه الكفاية تحت أشعة الشمس فحسب بل لأنه كان يراني عارياً. قال لي: «أنت ما زلت طفلاً!».

لا أدري هل كان يقصد بكلامه أن جسمي لم يكن قد نما نموّاً كاملاً أم لأنّي كنت هزيل الجسم وليست بي قوة، أم كان يقصد شيئاً آخر؟ في حين كان هو قويّاً، غليظ العضلات، كثَّ الشعر، نبت شعرٌ كثيفٌ على مِنكبيه وصدره. لم أكن قد شاهدت رجلاً عارياً في حياتي، سواء كان هذا الرجل أبي أو أيّ رجل آخر غيره. كنت أتحاشى النظر إليه حين كنت أسكب الماء على جسمه بطاسةٍ من تنك، ولكنني كنت أتأمّل الرضوض والبقع المزرقّة وندب الجروح التي انتشرت على ذراعيه وساقيه وظهره بسبب عمله في الحفر. أتأمّلها وألوذ بالصمت. وعندما كان الأُسطى «محمود» يسكب الماء على رأسي ويجسّ بطرف أجد

أصابعه مكانَ أيّ رضٍّ في جسمي بخفّة وحبّ استطلاع، كان ينتظر مِنّي أن أتأوّه وأتألّم، وفي الوقت نفسه كان يضحك ويقول بصوت عطوف: ها... كُنْ حذراً!

ثم أخذ يردِّد حيناً بشفقة وحيناً بما يشبه التّهديد، قائلاً: «كن متيقّظاً! فصَبيٌّ حفّار البئر إذا كان بلا عقل فإنه يتسبّب في إعاقة مُعلِّمه بدنيّاً، أما غير المتيقّظ فإنه يتسبّب في هلاكه. حَذارِ يا ولد! خَلِّ بالك عند مُعلِّمك الذي يكدّ في أسفل البئر».

لم تكن تروق لي قصصه المرعبة التي كان يرويها وهو ينظر إليّ ويحدّق في عينَيَّ بحُنُوّ. كان يشرح كيف يمكن أن يُسحق الرجل الموجود تحت في البئر إذا أفلت السطل من كلّابه، وكيف ينتقل إلى عالم الأموات، مختصراً في خمس جملٍ قصيرةٍ فرضيّة تعرُّض الأُسطى في أثناء تواجده في الأسفل إلى تسمُّم بالغاز المنبعث من البئر في حال تأخر صبيُّه عن اكتشاف ذلك.

كنت أشعر بالقشعريرة عندما أسمع مُعلِّمي يحكي قصصاً عن الصبيان عديمي الانتباه. وفي الغالب لم يكن يروق لي سماع هذه القصص المخيفة لأنني كنت أفكر بعالم الأموات وأعماق الأرض متنقّلاً بين الجحيم والجنّة.

كلّما توغّلنا في الأرض (هذا بالنسبة إلى مُعلِّمي الأُسطى «محمود») كنّا كأننا نتقدم نحو ملكوت الله وملائكته، في حين كان النسيم البارد الذي يهب في منتصف الليل يذكّرني بأننا نتقدم في كل خطوة ننتقلها نحو اتجاهٍ معاكس، صوبَ عشرات الآلاف من الكواكب المتلألئة المرتجفة، المعلّقة في قبّة السماء اللازوردية فوقنا.

وفي هدأة السكون الجميل الذي كان يخيم على الجوار في وقت مغيب الشمس كان الأُسطى «محمود» يتوزّع بين مراقبة نضوج الطعام وبين الانشغال مع جهاز التلفاز. في العادة تراه منشغلاً، يروح ويجيء إلى القِدر، يفتح غطاءه ليتأكد إن كان الطعام قد نضج أم لا، ثم يعيد

الغطاء إلى مكانه ويهرع إلى جهاز التلفاز في محاولة لضبطه من أجل الحصول على صورة جيدة.

كان قد جاء بجهاز التلفاز من «جبزة» ومعه بطارية سيارة تستعمل لتشغيله. عندما جئنا إلى هنا، وفي أول أمسيتين قضيناهما هنا في هذا المكان لم تشتغل البطارية كما ينبغي، لهذا السبب أرسلها الأُسطى «محمود» مع سائق الشاحنة إلى «أونجوران» لغرض تصليحها. كان يبذل قصارى جهده من أجل الحصول على صورة واضحة على الشاشة، وعندما يفشل في ذلك يستبدّ به اليأس، تثور ثائرته فينادي عليّ، طالباً إليّ أن أحمل الهوائي، المصنوع محليّاً، وكان عبارة عن قطعة من التنك ومجموعة من الأسلاك العارية. يصيح بي:

«إلى اليمين قليلاً! إلى اليسار! إلى الأعلى!».

بعد جهد جهيد استغرقَ وقتاً طويلاً اتضحت معالم الصورة على شاشة التلفاز، ولكننا حين بدأنا بتناول الطعام وعيوننا على نشرة الأخبار كانت الرؤية تتضبَّب ثانية مثل الذكريات القديمة، ثم تبدأ الصورة بالوضوح والتلاشي من ذات نفسها.

في بادئ الأمر كنّا نهبّ إلى الجهاز مسرعين لنضرب على قفاه أو على أحد جوانبه ونستمر في ذلك حتى يتلخبط الجهاز تماماً. بعدها ما كنّا نحرّك ساكناً حين نرى ذهاب الصورة وإنما كنّا نرضى بالاستماع إلى صوت المذيع وهو يقدم نشرة الأخبار ونكتفي بسماع صوت الإعلانات.

حين كانت الشمس تعرّج نحو المغيب قبالتنا تماماً، كان المحيط برمّته يعجّ بأصوات عجيبة للعديد من الطيور النادرة، بعد ذلك يبزغُ قمرٌ ورديّ. وقبل أن يحلّ الظلام، أشم رائحة رماد تفوح من النار المنطفئة، أسمع صوت تكسّر الأعشاب هنا وهناك حول خيمتنا، ومن مكان بعيد يتناهى إلى أذني نباح الكلاب. وكنت أحسّ بظلال أشجار السرو المشكوك في وجودها.

إلى ذلك اليوم لم يكن أبي قد قصّ عليّ أيّة حكاية، أما الأُسطى

«محمود» فكان يروي لي حكايات يستمد موضوعاتها إما من إحدى الصور العابرة التي يراها على الشاشة، وإما انطلاقاً من إحدى الهموم التي تواجهنا في نهار يوم العمل، أو مما يخطر على باله. حكايات لم تكن مطالعها أو نهاياتها معروفة، ولا أدري إن كانت قصصاً حقيقية أم من نسج خيال صاحبها؟ وعلى الرغم من أنّني لم أكن أفهم مغزى بعض حكاياته لكنني كنت أتفاعل مع أيّة حكاية وأستمتع بالحكمة التي يروم توصيلها إلى مستمعه. فمثلاً باطن الأرض عنده لم يكن مظلماً بل على العكس كان عالماً مضيئاً. ففي ذات مرّة حكى لي أنّه كان قد اختُطف في صغره من جانب ماردٍ عملاق وسِيقَ إلى عالمِ تحت الأرض. اقتيد إلى قصر منير متلألئ ثم دُعي إلى مائدة عليها قَشور الجوز وقحوف الحشرات ورؤوس الأسماك وعظامها الدقيقة. ثم قُدِّمتْ إليه صنوفٌ من الأطعمة إلّا أنّه وجد خلفه صفّاً من النساء الباكيات، فأبى أن يتناول لقمة واحدة. وقال إنّ أصوات تلك النسوة تشبه تماماً صوت مذيعة أخبار كانت تظهر على شاشة التلفاز.

وفي مرّة أخرى روى لي أنّه كان هنالك جبلان، أحدهما من فلّين والآخر من مرمر. قضى هذان الجبلان مئات السنين ينظر الواحد منهما إلى الآخر دون أن يتعارفا أو يفهم بعضهما بعضاً. وبعد أن قصّ الحكاية استشهد بآية ادّعى أنها من القرآن الكريم معناها أن انحتوا مساكنكم في الجبال، ومعنى ذلك أن الزلازل لا تضرب الأماكن المرتفعة. ومن محاسن الصُّدَف أنْ وقع اختيارُنا على مكان مرتفع في السهل اتخذناه كموقع لحفر بئرنا، وأنَّ الماء سوف يخرج بسهولة من الأماكن المرتفعة. وفيما كان الأُسطى «محمود» يروي لي هذا الكلام، كنّا نحن الاثنين نبحلق في الشاشة المشوَّشة بانتباه بالغ، وكأنها مشاهد يمكن فهم شيء منها لأنه لم تبقَ أيُّ برامج أخرى تذكر في التلفزيون تستحق مشاهدتها بعد ذلك، بعد أن يحلّ الظلام تماماً. في بعض الأحيان كان الأُسطى «محمود» يقول: انظرْ! هل ترى؟ يقولها وهو يشير إلى بقعة ما على

الشاشة ويضيف: إنّ هذا ليس من باب الصدفة! وفي وهلةٍ ما كنت أرى ذلكما الجبلين المتقابلين بين تفاصيل المرئيات الخيالية التي كانت تتراءى لي، وقبل أن أبوح لنفسي بأنّ هذه مُجرَّد تهيُّؤات كان مُعلِّمي الأُسطى «محمود» يسارع إلى تغيير دفّة الحديث إلى موضوع آخر، ينصحني بقوله: غداً لا تملؤوا السطلَ كثيراً.

كان يسحرني حين يروي هذه الحكايات والأساطير في أثناء عمله على صبّ الإسمنت أو ربط التلفزيون بالبطارية المشحونة. كان يتكلّم عن تلك الأحداث وكأنه قد عاشها بالفعل أو كان هو أحد أبطالها. وبينما أنشغل أنا في لملمة المائدة بعد تناولنا وجبة المساء كان الأُسطى «محمود» يقول:

«هيا بنا نذهب إلى البلدة لشراء المسامير، أو كان يقول: نفدت السجائر».

فيما كنّا ماضيين إلى بلدة «أونجوران» نسير في الظلمة الباردة كان ضوء القمر يسقط على أسفلت الشارع. طوال حياتي ما حظيت برؤية قبّة السماء قريبةً إليّ كلّ هذا القرب.

خابرت والدتي من البلدة وطمأنتُها علي أنَّ كلَّ شيء يسير على ما يرام، ولكنّها بدأتْ تبكي. قلتُ لها إن مُعلِّمي الأُسطى «محمود» قد أعطاني أجوري (وكان هذا صحيحاً)، كما قلتُ لها إني سأكون في البيت خلال أسبوعين (هذا ما لم أكن متأكداً منه). في زاوية ما من زوايا عقلي كنت أشعر بأنني سعيد بشكل أو بآخر بخصوص وجودي بصحبة الأُسطى «محمود»، ولا أدري إن كان ذلك بسبب أنّي بدأت بكسب المال أم لكوني صرت مسؤولاً عن الأسرة بعد غياب أبي.

كنت أدرك السبب الحقيقي لمشاعر الغبطة التي كانت تجتاحني حينما كنّا نذهب إلى «أونجوران» فقد كنت أمنّي النفس أنّني قد ألتقي ثانية بتلك المرأة ذات الشعر الأحمر التي رأيتها في ميدان المحطّة. وفي كل مرّة نحلّ في المدينة كنت أحرص على أن نسلك الطريق من أمام

منزلهم. وإنْ لم يحالفنا الحظ في أن نمرّ بذلك المنزل إلى حلول الليل من يومنا فإنني كنتُ أجدُ عذراً ما لأفترق عن مُعلِّمي وأذهب إلى تلك النواحي، وأمرّ بخطى وئيدة من أمام بيتهم.

بناية بائسة المنظر غير مطلية ذات ثلاثة طوابق. في المساء بعد نشرة الأخبار كانت الأضواء تشتعل في الطابقين العلويِّين. ستائر الطابق الأوسط كانت مسدلةً على الدوام، أما ستائر الطابق الأخير فكانت نصف مفتوحة. واحدة من تلك النوافذ كانت تشرع على آخرها.

كنت أتصوَّر أنَّ المرأة ذات الشعر الأحمر وأخاها وأمَّها يسكنون في الطابق العُلويّ، وفي بعض الأحيان كنت أفكر أنهم ربما كانوا يتخذون من الطابق الأوسط مسكناً لهم. فإذا كانوا يقطنون في الطابق العُلويّ فذلك يعني أنهم ميسورو الحال، ولديهم نقودٌ كثيرة.

تُرى ماذا يشتغل أبوها؟ لم يحالفْني الحظّ في أنْ أراه. ربّما هو أيضاً... مثل أبي هَجَرَ عائلته.

فيما كنت أكِدّ وأعمل طوال النهار، وبينما كنّا نسحب السطل المليء بواسطة الرافعة باتجاهنا بتثاقل، أو حينما كنت أتقيَّل لبعض الوقت في استراحة الظهيرة انتبهت إلى أنّني كنت أفكر بالمرأة ذات الشعر الأحمر، وأحياناً كنت أجسِّدُها أمامَ ناظِريّ.

شعرت بشيء من الخجل ليس لأنني أفكّر فيها وحسب، بل لأن التفكير فيها بحد ذاته كان محضَ بلاهة وفيه شيء من البدائية. فضلاً عن هذا كنت أسبِقُ الأحداثَ وأتخيّل أنّني تزوجتُ بها، وأمارس الحبَّ معها، وأننا نعيش حياةً سعيدة تحت سقف واحد. تلك الصور التي طُبعت في ذهني كانت تراود مخيّلتي بينما كنّا لدى باب بيتها، حين لمحتُ بعضَ حركاتها السريعة، يدَيها الناعمتَين، طولَها الفارع، شفتَيها المكتنزتَين ومسحةَ الحزن الشّفيف على مُحيّاها. وأكثر ما كان يؤثّر فِيَّ هو مسحةُ الفُكاهة التي كانت تشوب ابتسامتَها حينما تضحك. هذه الصُّور كانت تتفتَّح في عقلي كما تتفتّح الأزهارُ البرّية. ومن جملة ما

كان يتجسَّد أمامَ ناظري: أراني وإيّاها نقرأ كتاباً، وبعد ذلك تلتحم شفتانا بقبلة مطوّلة ثم نمارس الحب.

قراءة أيّ كتاب في سني الشباب مع فتاة جميلة، من أجل فكرٍ ما، والارتباط بها بعلاقة قوية، ومِن ثَمَّ الاقتران بها كانت فكرة عظيمة لدى أبي. هذا ما قاله أبي ذات مرّة، أو لمّح به لأمّي حين كان يصف سعادة شخص آخر.

-8-

عندما كنّا نعود أنا والأُسطى «محمود» من البلدة باتجاه خيمتنا كنت أشعر بنفسي وكأننا كنّا نخطو صاعدين إلى أعلى نحو السماء. لم تكن هنالك أيّة بيوت على الطريق الصاعد من البلدة صوب الهضبة حيثُ كنّا نعسكر، فكنّا ننقل خطانا في الظلام الدامس، وكلّما صعدنا إلى أعلى بدا لي أننا كنّا نقترب إلى النجوم الواقعة قبالتنا فكنتُ أتصوّر أننا نمضي في طريقنا إليها. وكانت أشجار السرو المنبثقة حول المقبرة الصغيرة الكائنة في أعلى المرتفع، عندما نقترب إليها تعلو أمامنا لتشكّل سدّاً بيننا وبين النجوم فتُحيل الجوار إلى ظلام دامس. ذاتَ مَرَّة رأينا في قطعة السماء الظاهرة من بين الأشجار شهاباً يهويَ فكان أنْ التفتَ أحدُنا إلى الآخر قائلاً: أرأيت؟

بعد ذلك كنّا نجلس في جانب الخيمة، نتجاذب أطراف الحديث ونراقب النجوم التي تنزلق في صفحة السماء. وبالنسبة إلى الأُسطى «محمود» فإنّ كلَّ نجمةٍ ترمزُ إلى حياةٍ ما، وقد جعل الله تعالى السماء في ليالي الصيف مزدانة بالنجوم ليذكّرَنا بعدد الحيوات الموجودة، وبعدد البشر في هذه الحياة. لذا كانَ الأُسطى «محمود» يحزن ثمَّ يعمدُ إلى قراءة الأدعية عندما تهوي نجمة. وكان ينزعج عندما يجدُني غيرَ مبالٍ بكلّ هذا الكلام، فيحكي قصَّةً جديدة. فهل أنا مجبر على أنْ أُصدِّق بالقصص التي يرويها؟ بعد سنوات عندما بدأتْ تَرسم تلكم القصص صفحاتٍ من مسيرة حياتي رُحتُ أبحث في بطون الكتب عن المصادر التي يستقي منها الأُسطى «محمود» قصصه.

وجدت أن معظم القصص التي كان مُعلِّمي يلقيها على مسمعي مستمدّة من القرآن الكريم. فمثلاً قصة الشيطان وكيف أغوى بني آدم وعلَّمَهم الرسم ثُمّ أسدى إليهم النصح أن يرسموا موتاهم، ولكي يستحضر الخَلَفُ صورَ أسلافهم دفَعَهم إلى أن يكونوا عبدةً للأوثان، وبهذا أخرجهم عن سواء السبيل. قصة مثل هذه أو شيء من هذا القبيل. ولكن القصص التي أصابها التغيير هنا أو هناك كان قد سمعها في أحد المقاهي يرويها واحدٌ من الدراويش. وكان الأُسطى «محمود» يعيد سردَها وكأنَّه قد عاش أحداثَ تلك القصص، وبعد الانتهاء من القصّة كان ينقلبُ على وجه السُّرعة إلى الحديث عن حدثٍ ما من أكثر الأحداث واقعيّة.

حدَّثَني في ذات مرّة عن بئر معطلة يعود تاريخها إلى ما قبل خمسمائة سنة، وأنه هو من أثبت بالدليل القاطع بأنّ البئر المهجورة هذه التي كان يظن الجميع أنها بئر منحوسة، مسحورة ومسكونة بالجِنّ لم تكن سوى بئرٍ اجتمع فيها الغاز. ولإثبات ذلك جاء بجريدة وجعل صفحتيها مثل جناحي حمامة، ثم أشعل النار في الجناحين وأرسلها لتنزل إلى جوف البئر. فهبطت الجريدة كطائر ملتهب الجناحين إلى قعر البئر ببطء، وما لبثت النار أن انطفأت قبل أن تصلِ الجريدة قعر البئر بسبب انعدام الهواء. فقمت بتصحيح المعلومة لمُعلِّمي قائلاً: ليس بسبب الهواء بل بسبب انعدام الأوكسجين. وبرغم ذلك لم يكترث بنَزقي الصبيانيّ بل على العكس راح يتحدَّث عن الآبار التي تسكنُها السحالي والعقارب، ويقارِن بين الآبار البيزنطيّة التي كانت جدرانها تحزّم إلى النصف بالطابوق ويبنى نصفُها الآخر بالأحجار وبين الآبار العثمانية. كما كان يشرح كيف يُطلى جدارُ البئر بالكلس الخراساني. وكان يسرّ لي أنَّ أشهرَ أسطوات إسطنبول في حقبة ما قبل أتاتورك وما قبل تأسيس الجمهورية كانوا من الأرمن.

كان يتذكَّر بشوق سنوات العقد السبعينيّ حين كانت الأعمال جيدة.

يومئذٍ كانت أعمال حفر الآبار تجري على قدم وساق حتى إنّه كان ينشغل في حفر ثلاث آبار في آن معاً. وأنه استطاع أن ينشئ جيلاً من حَفَّاري الآبار، ومن حفر آبارٍ كثيرة في أحياء «صاري ير» و«بيوك دره» وفي الأحياء التي كانت معظم بيوتها من الأكواخ المشيّدة ليلاً[2]. يومها كانت هنالك موجة نزوح كبيرة من قرى الأناضول إلى إسطنبول. الجميع كانوا يهاجرون إلى إسطنبول ويشيّدون أكواخهم في غضون ليلة واحدة على المرتفعات المطلّة على المضيق. أكواخٌ تفتقر إلى أبسط وسائل الحياة، لا ماء فيها ولا كهرباء. فكان كل ثلاثة من الجيران يتّفقون فيما بينهم، يجمعون مبلغاً من المال ويبدؤون بالبحث عن الأُسطى «محمود» ليحفر لهم بئراً. وكان الأُسطى «محمود» في تلك الأيام يملك «حنطوراً» مُزوّقاً نقشت عليه رسوم أزهار وفواكه، يتنقَّل بواسطته، مثله مثل ربّ عمل ثري يتابع مصالحه. يتجوَّل بين الآبار التي يقوم بحفرها شخصيّاً أو يشرف على حفرها في الوقت نفسه، وكان أحياناً يعاود زيارة الآبار التي يحفرها في اليوم نفسه في ثلاثة أماكن متفرقة. وكان على استعداد لينزل إلى جوف أيّ بئر ويعمل في الحفر، وإذا اطمأن اطمئناناً تامّاً إلى أنّ العمل سوف يسير من بعده على ما يرام قام بترك الموقع والذهاب إلى موقع آخر.

إن لم تكن لك ثقة بصبيِّك فلن يطلع منك حفّار آبـار! كان يقولها ويضيف: على المُعلِّم أن يتأكد أن الصبي الذي يعمل فوق يقوم بمهمته على أكمل وجه لكي يطمئن ويشدّ نفسه إلى العمل بهمة ونشاط. فالمُعلِّم الذي يثق بصبيه مثلما يثق الرجل بابنه هو من يبقى محافظاً على

2- في السبعينيّات من القرن الماضي خصّصت مناطق معيَّنة من إسطنبول للبناء العشوائي لتشجيع هجرة الأيدي العاملة من الريف إلى المدينة. وأصدر قانون بذلك، والشرط الوحيد لتسجيل البيت باسم المواطن هو أن تتمكن من إكمال بناء البيت في ليلة واحدة، من المساء إلى صباح اليوم الثاني. في نهار اليوم الثاني يتجوّل موظَّفو البلدية ويقومون بهَدم أي بيت لم يكتمل. وهكذا سميت هذه البيوت بالبيوت المشيَّدة ليلاً، وأهلُها يسمون الذين نزلوا ليلاً.

مكانته في المهنة. يسألني: هل تعرف من كان مُعلِّمي؟ وبرغم معرفتي بالجواب فإنني كنت أتغابى وأسأله: من هو؟ كان يعرف حق المعرفة أنّني أعرف الجواب لأنه قصّ عليّ هذه الحكاية مراراً وتكراراً، ومع ذلك كان يجيب عن سؤاله بنفسه قائلاً: مُعلِّمي هو أبي! يقولها بأسلوب تعليمي وكأنه مُعلِّم مدرسة، ثم يضيف: إذا أردت أن تكون صبيّاً جيداً فما عليك إلّا أن تكون مثل ابني.

يرى الأُسطى «محمود» أن سرّ علاقة المُعلِّم بصبيه يكمن في كونها مشابهة لعلاقة الأب وابنه. وأن أيّ مُعلِّم مجبر على أن يحب صبيه مثلما يحب ولده، يرعاه ويحميه ويعلمه، لأنه سيكون وريث مهنته. وفي مقابل هذا تنحصر مهمة الصبي في أن يكون آذاناً صاغية لتنفيذ أوامر مُعلِّمه وإطاعته واكتساب الصنعة منه وإتقانها. فإذا دخلت البغضاء والتمرُّد بين الأُسطى وصبيه فسوف يلاقيان مصيراً مشابهاً لمصير الوالد والولد الذي يُدَقّ بينهما إسفين، وينتهي كلا الطرفين في آنٍ معاً ويبقى الشغل معطَّلاً. قلبُ مُعلِّمي مطمئنٌّ من ناحيتي ولا يَتوقَّع أن أتمرَّد على أوامره يوماً، أو أسيء الأدب معه لأنني أنحدر من عائلة طيِّبة.

ولد الأُسطى «محمود» في بلدة «صوشهري» التابعة لمدينة «سيواس». جاء إلى إسطنبول مع عائلته المكونة منه ومن والديه وعمره عشر سنوات، ليقضي سنوات صباه في كوخ مشيَّد ليلاً، بنوه بأنفسهم على السفح الآخر من «بيوك دره». لم يتحرَّج «محمود» من كونه سليل عائلة فقيرة. كان أبوه يعمل بستانيّاً في منطقة «بيوك دره» ولكنه في السنين الأخيرة من حياته تحوّلَ إلى مهنة حفر الآبار التي اكتسبها من أحد المُعلِّمين عندما ساعده في حفر بئر. كانت له بضعة رؤوس من الحيوانات باعها كلها وأخذ ابنه «محمود» إلى جانبه ليشتغل صبيّاً في مهنته الجديدة، قولاً منه إن هذه الصنعة سوف تدرُّ عليهم بالكثير من المال. فاشتغل «محمود» كصبي مبتدئ لدى أبيه حتى أنهى دراسته الإعدادية. وبعد تسريحه من الخدمة في الجيش عمل حفّار آبار. بعد

وفاة أبيه ورث عنه هذه المهنة واستمر فيها. ففي السبعينيات في الحقبة التي كثر فيها الطلب على حفر الآبار في الحقول وبين الأكواخ المشيَّدة ليلاً، تمكن من حفر أكثر من مائة وخمسين بئراً على مدى عشرين سنة. ومن كدّ عمله اشترى عربة يجرها حصان. كان في الثالثة والأربعين من عمره، أيْ في عمر أبي ولكنه لم يكن قد تزوَّج قَطّ.

حينما كان الأُسطى «محمود» يتحدَّث عن طفولته التي قضاها في مصارعة الفقر كنتُ أسألُ نفسي قائلاً: هل يعرف أنّ أبي هجرنا أنا وأمّي؟ ولهذا السبب صرنا نعيش حياةً ملؤها الحرمان. كلّما كان يتحدّث عن الفقر كنتُ أشعر بأنّ الكلام موجَّه إليّ، وأنه يحصبني به. أسائل نفسي: هل يعرف أنّني كنت سيداً صغيراً، أيْ الابن المدلَّل لأسرة كان عميدها صيدلانيّاً.

بعد أسبوع واحد من مباشرتنا بحفر البئر قصّ عليَّ الأُسطى «محمود» قصة النبي «يوسف» وإخوته. وتطرق إلى أن أباهم «يعقوب» كان يحب ابنه «يوسف» أكثر ويفضله على إخوته؛ لذلك أضمروا له الكراهية وفعلوا ما بوسعهم للتخلص منه. أصغيت بانتباه شديد إلى قصة يوسف وكيف ألقيَ في غيابة الجب. وما ظل عالقاً في ذهني من كلام مُعلِّمي هو قوله: نعم كان يوسف جميلاً وذكيّاً! قالها وهو يحدّق في وجهي. وبعد ذلك أضاف: يجب أن يكون الأب عادلاً، فالأب الذي لا يعدل بين أولاده يدفعهم إلى ظلمة العمى.

لماذا دفع بالحديث حتى وصل به إلى موضوع العمى؟ من أين جاءتنا هذه المسألة؟ هل كان يهدف إلى إثبات أن يوسف بقي في الظلمة حين ألقيَ في الجب؟ سألت نفسي مرّات عديدة: لماذا أزعجتني هذه القصة؟ ولماذا أجد نفسي غاضباً من مُعلِّمي إلى هذا الحد؟

-9-

في نهار اليوم التالي بينما كان الأُسطى «محمود» يحفر في قعر البئر ظهرت صخرة جلمود، غير متوقعة، اعترضت طريقه، فغادر الفرحُ وجوهَنا جميعاً. أخذ يتصرّف بتأنٍّ خشية أن يضرب الصخرة بحد معوله، وهذا بحد ذاته كان يثبط من عزيمته.

فيما كنّا ننتظر أن يملأ السطل في الأسفل كان «عليّ» يتحيّن الفرصة وينأى جانباً، يستلقي على العشب ليأخذ قسطاً من الراحة، أما أنا فلم أكفّ عن متابعة مُعلِّمي الذي يكافح في الأسفل. كان الجوُّ حارّاً، متعباً، والشمس تحرق رقبتي.

نحو الظهر جاءنا صاحب الأرض «خيري بيك» فلم يسرّه سماع خبر الصخرة التي اعترضت طريق الحفر. أمضى بعض الوقت تحت أشعة الشمس الحارقة وهو يدخّن سيجارة وينظر إلى البئر، بعد ذلك قفل عائداً إلى إسطنبول. قطعنا البطيخة التي جاء بها وتركها لنا وتقاسمنا الخبز الذي ما زال حارّاً وقطعة الجبن الأبيض على أنها وجبة غدائنا.

في ذلك اليوم لم يقم بتهيئة الخشب لتغليف جدار البئر أو صبّ الخرسانة، لأن العمق الذي تمّ حفره لا يستحق أن يقوم بكل هذه التحضيرات، وظلّ يكدّ بهمة حتى غروب الشمس. حينما خرج كان متعباً ويائساً. وبعد أن ذهب «عليّ» ساد الصمت بيننا حتى بعد أن قدّمتُ إليه طعامه.

كان «خيري بيك» قد قال للأُسطى «محمود»: ليتك سمعت كلامي

وحفرت في المكان الذي أشرت إليه أول مرّة. هذا الكلام كان قد أثّر تأثيراً بالغاً في الرجل وتسبّب في جرح مشاعره والاستهانة بقدراته. فكّرتُ أنّه ربما كان منزعجاً طول الوقت بسبب سماع مثل هذا الكلام.

دعنا نبقى هنا ولا ننزل إلى البلدة، قالها الأُسطى «محمود» بعد أن انتهى من طعامه.

كان متعباً والوقت متأخراً. وجدته محقّاً في تصرفه هذا، ولكنني شعرت بالإحباط. تشدّني الرغبة في الذهاب إلى ميدان المحطة كما كنت أفعل كل مساء، لكي أتمشى وأنا أفكر بالمرأة ذات الشعر الأحمر، أو أنظر إلى شبابيك تلك البناية على أمل الفوز برؤيتها إن كانت في الداخل. كل هذه الرغبات كانت قد أصبحت عندي من الاحتياجات الضرورية التي لا غنى لي عنها، وتكفيني لمدة أسبوع.

«اذهب أنت وعُدْ»، قالها الأُسطى «محمود» وأضاف: «اجلب لي علبة سجائر (مالتبه) أنت لا تخاف من الظلمة، أليس كذلك؟».

في الأعالي كانت هنالك سماء صافية متألقة، مشيت مسرعاً صوب أضواء بلدة «أونجوران» الصغيرة وأنا أنظر إلى النجوم. وقبل أن أصل إلى المقبرة هَوَتْ نجمتان في آن معاً، فانتابتني مشاعر مفعمة بالشوق، تأكد لي أنّني سوف ألتقي بالمرأة ذات الشعر الأحمر. ولكنني عندما بلغت ميدان المحطة وجدت أضواء المبنى مطفأة. قصدت بائع التبغ واشتريت السجائر التي طلبها مُعلّمي. على بعد خطوات مِنّي كانت هنالك دار سينما تقدم أفلامها في الهواء الطلق، سمعت أصوات مشهد للمطاردة. ألقيت نظرة من بين الحائط إلى وجوه الجالسين في الداخل بحثاً عن المرأة ذات الشعر الأحمر وعائلتها فلم يكونوا موجودين هناك.

على قارعة الطريق المؤدي إلى الثكنة العسكرية خارج البلدة نُصبت خيمة عُلِّقَتْ في محيطها يافطاتٌ مسرحية كتب عليها: مسرح الأساطير المثالية.

في سنة من سنوات طفولتي وفي أحد مواسم الصيف نُصِبَ مسرح

الخيمة بجوار مدينة الألعاب الكائنة في الأراضي الخالية خلف حيّ «قصر الزيزفون» ولكنه لم ينجح، وما لبث أن أغلق أبوابه. وهذا المسرح قد يكون شيئاً من هذا القبيل. تعمدت أن أتسكع لبعض الوقت في الأزقة. خرج الناس من السينما وتفرّقوا، ثم انتهى آخر برنامج تلفزيوني، حتى خَلَتْ الشوارع من الناس، أما نوافذ المبنى المطلّة على المحطّة فقد ظلّتْ مظلمة. عدتُ أدراجي وبدأت أركض بخطى واسعة وأنا أشعر بالذنب. أحسست أن قلبي يدق بقوة حين بدأت بصعود المنحدر المؤدي إلى المقبرة. كنت أشعر بأنّ هنالك غراباً في أعالي أشجار السرو، يراقبني بصمت.

المرأة ذات الشعر الأحمر وعائلتها ربما تركوا «أونجوران» ولربما ما زالوا في البلدة إلّا أن الهواجس اجترحتني وتصرّفتُ بعجالة لم تكن في محلّها. عدت مبكراً، مخافة أن أتأخر على الأُسطى «محمود» ولا أدري لِمَ كنتُ أتحاشاه؟

«أين أنت؟ قلقت عليك»، قالها الأُسطى «محمود».

بدا لي أنّه قد استعاد شيئاً من حيويته لأنه ربما غفا لبعض الوقت. هرع إليّ وخطف علبة السجائر من يدي ثم أشعل سيجارة. قال: «ما أخبار البلدة؟».

«لا جديد»، قلت. «جاءت فرقة من مسارح الخيمة!».

«أولئك السَّفَلة كانوا موجودين منذ أن جئنا إلى هنا».

قالها الأُسطى «محمود»: «إنهم يرقصون للجنود ويمارسون الرذائل. تلك المسارح لا تختلف عن بيوت الدعارة بشيء. دعْكَ من أولئك السفهاء! أيها السيد الصغير ما دمت قد نزلت إلى البلدة والتقيت بالناس فعليك أن تقصّ عليّ قصة ما!».

لم أتوقّع منه أن يطلب مِنِّي طلباً كهذا. تُرى لمَ ناداني بالسيد الصغير؟ فكرت أن أبحث عن قصة تتسبّب في إزعاجه، فمثلما كان يهدف في محاولاته الدؤوبة إلى تعليمي، توجّب عليّ الآن أن أحكي له قصة تزعجه.

ثَمَّةَ عمى في زاوية من زوايا عقلي، يوجد فيه شيء ما، نظير لما يقدم على المسرح. وهكذا رحت أخبره بقصة الملك الإغريقي «أوديب» ولم يكن قد حالفني الحظ في قراءة نسخة كاملة من القصة، وإنما قرأت نبذة مختصرة عنها في كتابِ جامعٍ للمعلومات بعنوان «أحلامكم وحياتكم» عندما كنت أعمل في مكتبة «دنِيز» في الصيف الفائت، وما زلت أتذكرها. ظلت القصة حبيسة في دهاليز عقلي لمدة سنة بأكملها مثلما حُبس الجنّي في مصباح علاء الدين. وفضلاً عن ذلك أخذت أروي القصة بعنفوان الذكريات المعاشة لا مثل القصص المكتسبة عن طريق السماع.

أوديب هو ابن لايوس ملك ثيبة الإغريقية حين كانت أمه حاملاً به، جمع أبوه المنجمين وسألهم عن طالعه فبهت لسماع النبوءة المؤلمة... بعد هذه الجملة كنت قد لذت بالصمت قليلاً، وحدّقت بشاشة التلفاز مثلما كان الأُسطى «محمود» يفعل، وبحسب النبوءة فإن ابن الملك أوديب سوف يقتل أباه ثم يجلس على عرشه ويتزوج من أمه. وحالما وُلد ابنه أمر أبوه لايوس بخطفه وإرساله إلى الغابة ليقتل هناك. فيترك الطفل في الغابة للموت إلّا أن إحدى نديمات الملك في مملكة مجاورة لمملكتهم تجده بين الأشجار فتنقذه وتذهب به ليعيش في المملكة المجاورة كأمير. ولكنه على الرغم من أنّه أحيط بعناية بالغة في تلك البلاد، وتربى كأمير أصيل فإنه شعر بالغربة عندما بلغ أشده. سأل أحد المنجمين عن سبب ذلك وعن طالعه فكانت النبوءة نفسها. فقد خُطَّ قدره على هذا النحو، وأنه سوف يقتل أباه ويتزوج من أمه. فهجر «أوديب» بلاده لكي يتخلص من قَدَره المخيف. ولم يكن يعرف أنّه قد سلك الطريق باتجاه مدينته الأولى «طيبة»، وبينما كان يحاول عبور أحد الجسور قابل رجلاً مسنّاً فنشب بينهما جدال لا داعي له، ثم تحول الجدال بينهما إلى نزاع. وفي الحقيقة كان هذا الرجل أباه الملك لايوس. (طفقت بشرح الصراع الدائر بين الأب وابنه وهما لا يعرفان بعضهما الآخر، بإسهاب وإطالة مثلما يُمَثل ذلك في مشاهد مماثلة في أفلام «يشيل جام») وراح الواحد منهما

يطوّح بغريمه، مرّة هذا يسقط ومرّة ذاك يسقط، حتى تمكن أوديب أخيراً من التغلب على الرجل وقتله بضربة سيف. لم يكن يعرف أن المقتول أبوه. قلت هذه الجملة وأنا أنظر إلى وجه الأُسطى «محمود».

كان مُعلِّمي قد عقد حاجبيه، لم يكن يشبه من يلقي السمع لحكاية تقص عليه، بل كان يصغي إليّ بحزن، مثله مثل رجل يتلقى خبراً مفجعاً.

لم ير أحد أوديب حين قتل أباه، لهذا لم يجرّمه أحد في مدينة «طيبة» التي شدّ إليها الرحال (حينما استمعت لهذه القصة، تخيلت كم هو بشع أن يقترف المرء جريمة نكراء كقتل الأب، ثم يتمكن من الإفلات من العقاب)، فضلاً عن هذا فقد حلّ أوديب بلاءً على المدينة إذ أجلسه الناس على العرش بعد أن تمكن من حلّ اللغز المحيّر الذي كان الوحش يطرحه على جميع المارة. لغز لم يستطع أحد قبله أن يحلّه. ذلك الوحش كان له جسم أسد، ووجهه وجه امرأة وله جناحان عظيمان. وهكذا أعلنوا أوديب بطلاً واتخذوه ملكاً جديداً لطيبة، وزوجوه من الملكة، ولم يدرِ أنّه إنما يتزوج من أمه، وهو ابنها الحقيقي أوديب. ألقيت بالمعلومة الأخيرة كما لو أنّني أهمس بها خشية أن يسمعنا أحد ما. قلت: وهكذا تزوج أوديب من أمه ثم أضفت قائلاً: «وقد رزقا بأربعة أطفال... في الحقيقة أنا قرأت هذه القصة في كتاب»؛ قلت ذلك لئلّا يتصور الأُسطى «محمود» أنّني أقوم بتلفيق كل هذه الأحداث المخيفة.

وأنا أحدّق في النهاية الحمراء لسيجارة مُعلِّمي في الظلام واصلت حديثي قائلاً:

وبعد سنوات عديدة حلّ الطاعون على المدينة التي كان أوديب يعيش فيها سعيداً مع زوجته وأبنائه. فأهلك الوباء نفوساً كثيرة حتى راح أهل المدينة الخائفون إلى الآلهة وأرسلوا إليها من يمثلهم فقالت الآلهة: «إذا كنتم عازمين على الخلاص من الوباء فما عليكم إلّا أن تجدوا القاتل الذي قتل الملك وتطردوه إلى خارج مدينتكم، يومئذٍ سينكشف عنكم البلاء».

أصدر أوديب أوامره بالعثور على القاتل، ولم يكن يدري أن الرجل

المسن الذي صارعه على الجسر ثم قتل على يده هو أبوه، وهو الملك السابق لمدينة طيبة. وصار من أكثر المتحمّسين للعثور على القاتل. وفي كل خطوة كان يخطوها في البحث عن القاتل كان يتأكد له بما لا يقبل الشك أنّه هو القاتل بعينه. والأنكى من هذا هو أنّه علم أن زوجته هذه هي أمه الحقيقية التي ولدته.

هنا عمدْتُ إلى السكوت عن الكلام لبعض الوقت مثلما كان الأُسطى «محمود» يفعل. فقد كان يلوذ بالصمت حين يروي قصة من قصصه الدينية. وحينما يصل إلى أكثر المواقف الحرجة التي تنطوي على حكمة ما، كنت أكتشف نوعاً من أنواع التهديد في نبرات صوته: «انظر! مصيرك سيكون مثل هذا»، كنت أقلّده في هذه الحركة، ولكنني لم أكن أعرف ما فحوى القصة، لذلك رحت أروي القصة في محاولة لختم الحكاية بنهاية سعيدة على الرغم من أنها كانت حزينة لأوديب: «حين أدرك أوديب أنّه قد تزوّج من أمه فقأ عينيه بيده وهجر المدينة إلى مكان آخر».

«أي أنَّ القدر الذي كتبه الله هو الذي تحقق»، قالها الأُسطى «محمود»، «معنى ذلك أن لا أحد يقوى على الهرب مما كُتِبَ له».

لقد حيَّرني الأُسطى «محمود» حين توصَّل إلى استنباط الحكمة من هذه القصة وهي «القَدر»!

أردت أن أنسى موضوع القَدَر، قلتُ:

«أجل! وهكذا حين عاقب أوديب نفسه تخلَّصت المدينة ورفع البلاء».

«أريد أن أفهم، لماذا جئتني بهذه القصة؟».

«لا أدري!»، قلتها وأنا مترع بالشعور بالذنب.

«لم تَرُقْ لي هذه القصة أيها السيد الصغير»، قالها الأُسطى «محمود»، «ماذا كان ذلك الكتاب؟».

«كان كتاباً عن الأحلام»، قلتها وفهمت أن الأُسطى «محمود» لن يطلب إليّ أن أقُصّ عليه حكاية بعد هذا أبداً.

-10-

كان نزولنا إلى البلدة ومرورنا بالأماكن المهمّة يندرج في جدول متسلسل تتحكم به أولويات معينة. أولاً كنّا نشتري السجائر لمُعلّمي، إما من بائع التبغ وإما من البقّال الذي كان تلفازه شغال على مدار اليوم. الأُسطى «محمود» كانت علاقته قد توطّدت مع نجار من أهالي «سامسون»، فكان يجلس أحياناً على الطبلة الصغيرة الموضوعة في مدخل المحلّ ويدخّن سيجارة. عندئذ أتحيّن الفرص لأذهب إلى ميدان المحطّة من أجل إلقاء نظرة إلى شبّاك المبنى حيث تسكن المرأة ذات الشعر الأحمر مع عائلتها. كنت أذهب وأعود من دون أنْ يشعر مُعلّمي بغيابي. في بعض الأحيان حين يكون محلّ النجارة مغلقاً كان مُعلّمي يصطحبني إلى مقهى «الروميلي» في أول الزقاق الطويل المشرع على الميدان، يقول: تعال، أدعوك لشرب قدح من الشاي هنا! فنجلس إلى إحدى المناضد الفارغة أمام باب المقهى ذي الدرفتين. ومن هناك يمكن مشاهدة الميدان ونحن جلوس هنا، أما المبنى الذي تسكنه المرأة ذات الشعر الأحمر فلا يشاهد. بين الحين والآخر أجد لنفسي حجّةً ما لكي أنهض من مكاني وأبتعد وصولاً إلى مكان ملائم يمكنني من هناك رؤية شبابيك ذلك المبنى، وعندما أجد أضواء الغرف مطفأة أعود أدراجي.

في أثناء نصف الساعة التي كنّا نقضيها جلوساً هناك على مصاطب المقهى كان لا بدّ للأُسطى «محمود» أن يجري تقييماً لما أنجزنا من أعمال الحفر طوال يومنا وما وصلنا إليه. في الأمسية الأولى قال:

«الصخرة قاسية جدّاً ولكن لا تقلق سأهزمها»، وفي الأمسية الثانية حين شاهدني يائساً فاقد الصبر قال: على الصبي أن يتعلم كيف يثق بمُعلِّمه، وفي الأمسية الثالثة قال: لو كان عندنا بارود مثلما كان متوفراً قبل الانقلاب العسكري لكانت مهمتنا سهلة. ثم أردف قائلاً: العسكر منعوا تداوله. وفي أمسية أخرى ارتضى كأيّ أبٍ ذي نوايا حسنة أن يأتي معي إلى سينما «جوناش» وشاهدنا فيلماً مع الأطفال، من مكان منخفض فوق حائط السياج. وعندما عدنا إلى مخيَّمنا قال: «بعد أسبوع سأعثر على الماء. غداً عندما تكلّم أمّك بالتلفون قلْ لها ألّا تقلق».

ثمن تذكرة الدخول كانت تبلغ تقريباً خُمْس ما كنت أتقاضاه من الأُسطى «محمود»، ولم تعلن أيّ تخفيضات تذكر للشباب أو للتلاميذ، ماعدا لافتة كبيرة كُتِبَت عليها عبارة: «تخفيضات هائلة للجنود، أيام السبت والآحاد من الساعة الثالثة والنصف إلى الخامسة».

كانت بي رغبة للذهاب إلى مسرح الأساطير المثالية لا لشيء إلّا لأن الأُسطى «محمود» وصفها بالبذاءة. ففي المساءات التي كنّا ننزل فيها إلى بلدة «أونجوران»، إن كان الأُسطى «محمود» معي أم لا، كنت أجد لنفسي حجة لكي أتقرب إلى خيمة المسرح، وأقف متأمّلاً، وإن كان ذلك من بعيد، ممتعاً نظري بذلك اللون الأصفر البهيّ.

ذات مساء بينما كان الأُسطى «محمود» جالساً إلى منضدة المقهى ذهبت إلى ميدان المحطة لأنظر إلى غرفة المرأة ذات الشعر الأحمر في ذلك المبنى وشبّاكها الذي لم يُضَأ منذ أيام. وفيما كنت أسير وأتلكّأ هنا وهناك في زقاق المطاعم، لمحتُ الشاب الذي ظننت أنّه أخو المرأة ذات الشعر الأحمر وبدأت أتعقّبه.

بدا الشاب أكبر مِنِّي، ولا بدّ أنّه يكبرني بخمس أو ست سنوات. بلغ ميدان المحطة في أسرع وقت ثم دخل العمارة التي كنت أراقب شبابيكها، فتح الباب وغاب في الداخل. أخذ قلبي يدقّ بسرعة وأنا أسأل نفسي تُرى أيّ الطوابق ستضاء أضواؤه؟ المرأة ذات الشعر الأحمر

هل هي هناك؟ حين أُنيرت أضواء الطابق الثاني زادت وتيرة انفعالاتي. وفي الوقت نفسه ظهر الشاب أخوها خارجاً من باب العمارة متوجّهاً صوبي، الأمر الذي أربكني تماماً، إذ لا يمكن أن يكون قد صعد إلى الطابق الثاني وأشعل الأضواء ونزل إلى الطابق الأرضي بهذه السرعة وخرج إلى الباب.

كان يتقدم باتجاهي بالضبط. ربما كان على دراية بأني وضعت أخته الكبرى نصب عينَيّ وأراقبها. اضطربت أحوالي من شديد القلق فدخلت مبنى المحطة وجلست على إحدى المصاطب. كان جو المحطة في الداخل بارداً منعشاً يسوده الصمت. ولكن الشاب وبدلاً من مواصلة التقدم نحو المحطة راح ينحرف باتجاه زقاق مقهى «الروميلي» فكرت أنّني إذا واصلت مراقبته فسوف يراني الأُسطى «محمود»، الذي ما يزال جالساً هناك يشرب الشاي، فهرعت إلى الزقاق الآخر الموازي وقطعته مسرعاً ثم رحت إلى الشجرة السامقة في آخر الزقاق ولبدت خلف جذعها أنتظره. مرّ من أمامي وهو ساهم لا يشعر بمراقبتي له، فأخذت أتبعه عن قرب. مررنا عبر زقاق النجار، خلف سينما «جوناش» ومن جانب «الحنطور» الذي يستخدمه الحدّاد.

كلّما رأيت دائرة البريد، حيث كنت أتخابر مع والدتي يتأكد لي أنّني قد خبرت بلدة «أونجوران» جيداً. وقد تمكنت من التعرف عليها في غضون أسبوعين، وذلك بسبب كثرة تردُّدي عليها وهَيَمَاني على وجهي في دروبها.

حالما شاهدت الشاب يدخل إلى خيمة المسرح الصفراء، المضيئة، التي نصبت في أقصى البلدة عدت إلى مُعلِّمي راكضاً.

«أين أنت؟».

«أردت أن أخابر أمّي»، قلت.

«هل اشتقت إليها كثيراً؟».

«نعم اشتقت إليها».

«ماذا تقول أمك؟»، هل قلت لها «ما إن نهزم الصخرة ونجد الماء فسآتي في غضون أسبوع في الأقل».

«قلت».

كنت أتِخابر مع أمّي بطريقة الدفع المقابل من دائرة البريد التي تبقى مفتوحة لحد الساعة التاسعة، فكانت الموظفة تسأل أولاً عن اسم أمّي. فتقول: «السيدة آسومان جليك معك على الخط جيم جليك، هل أنت موافقة؟».

«نعم موافقة!».

وجود الفتاة الموظفة، وكون أجور المكالمة ذات الدفع المقابل باهظة الثمن كانت تدفع بنا خارج السياقات الطبيعية. فكنا نكرّر الكلام نفسه دوماً عن المسائل نفسها ويسود الصمت بيننا.

القطيعة والصمت كانا يشوبان علاقتي بأمّي، وقد جاءت هاتان الخصلتان بثقليهما وصارتا كالطّود بيني وبين الأُسطى «محمود»، كنّا نلوذ بالصمت طوال الطريق حينما كنّا نصعد المنحدر المؤدي إلى مُخيَّمنا ونحن ننظر إلى النجوم. وكأننا اقترفنا إثماً، تشهد عليه النجوم وتشهر به كل صراصير الليل، أما الغراب الذي كان يعشّش فوق أشجار السرو فقد كان يؤدي لنا التحية.

أشعل الأُسطى «محمود» آخر سيجارة له قبل أن يدخل الخيمة ويخلد إلى النوم: أتذكّر القصة ذات الحكمة التي رويتها لي يوم أمس! قالها بادئاً بالكلام:

«فكّرت بها اليوم، أنا الآخر عندي حكاية عن القدر نظيرة لها».

للوهلة الأولى لم أتذكر أنّه كان يقصد أسطورة أوديب بكلامه هذا، فقلت على عجل: «هيا هاتها!» فبدأ الأُسطى «محمود» بالكلام قائلاً:

«كان يا ما كان في قديم الزمان أمير مثل الأمير الذي تحدّثت عنه. هو الابن الكبير للملك. كان أبوه يحبّه حبّاً جمّاً، يعطف عليه ولا يرفض له أيّ طلب، يقيم الاحتفالات والمآدب من أجله. خلال مأدبة ما شاهد

بين المدعوين رجلاً أسود اللحية، مكفهر السحنة، وقد أوحي إليه أن هذا الرجل إنما هو ملك الموت بعينه. تقابل الاثنان ونظر أحدهما في عيني الآخر فارتبك الأمير وهرع إلى والده الملك يشكو أمره. وأسرّ له بوجود ملك الموت بين المدعوين، ومن نظراته الغريبة فهم أنّه جاء ليقبض روحه.

الملك تملَّكه الخوف على ابنه فقال: «هيا اذهب إلى إيران يا ولدي ولا تخبر أحداً بذلك. اختفِ في القصر، فالشاه في تبريز صديقنا وسوف يحافظ عليك ولا يسمح لأحد أن يخطفك».

وأرسل الملك ابنه الأمير إلى إيران في الحال، ثم أقام مأدبة كبيرة، دعا إليها كثيراً من الناس، كما وجّه الدعوة إلى ذلك الرجل ذي السحنة الرهيبة وكأن شيئاً لم يحدث. قال ملك الموت بنبرة قلقة: «جلالة الملك أرى أنَّ ابنك الأمير لم يحضر هذا المساء».

«ابني... إنّه فتىً يافع... قالها الملك: سوف يتسنّى له أن يعيش لمدة أطول إن شاء الله... لا أدري لم سألت عنه؟».

فقال عزرائيل: «قبل ثلاثة أيام أمرني الله تعالى أن أذهب إلى إيران وأدخل قصر شاه تبريز لأقبض روح الأمير، ابنكم. لذلك عندما رأيته البارحة هنا في إسطنبول استغربت، وفي الوقت نفسه فرحت كثيراً. حتى إنّ ابنكم أدرك مغزى نظراتي المستغربة الموجَّهة إليه»... وبعد أن أطلق عزرائيل كلامه هذا غادر القصر على الفور.

-11-

في الغد بينما كانت حرارة تموز تحرق أعناقنا انشقّت الصخرة التي كان الأُسطى «محمود» يكافح على عمق عشرة أمتار من أجل ثقبها. فرحنا في بادئ الأمر ولكننا رأينا أن هذا لن يدفعنا للعمل بوتيرة أسرع، لأننا لم نكن نقوى على سحب السطل المليء بكسر الأحجار إلى أعلى إلّا بِشِقِّ الأنفس. كنّا نتلكّأ لوقت طويل حين يطلب المُعلِّم إلينا سحب الدلو إلى فوق.

بعد الظهر طلب الأُسطى «محمود» أن نرفعه إلى فوق خارج البئر. قال: «إذا عملت بنفسي على الرافعة فوق فإننا سنفرغ ما تراكم من تراب في الأسفل بسرعة». ثم أردف قائلاً: «أنا سأبقى هنا فوق ولينزل واحد منكما إلى الأسفل. من منكما ينزل؟».

أنا و«عليّ» لم ننبس ببنت شفة.

«لينزل «عليّ» إلى الأسفل»، قالها الأُسطى «محمود».

وضع «عليّ» إحدى قدميه في الدلو فأنزلناه إلى الأسفل ونحن ندير مقبضي الرافعة على مهل. راق لي أن الأُسطى «محمود» شملني بحمايته. إذن فأنا مدين له بالشكر لأنه لم ينزلني إلى البئر. وكان عليّ أن أترجم هذه المشاعر قولاً وعملاً، بتنفيذ كل ما يطلبه إليّ. كنت أؤمن بأنني سأكون أسعد في حياتي فيما لو قمت بتنفيذ كل ما يطلبه إليّ وزيادة، وبذلك ستكون حياتي أفضل وسنجد الماء عاجلاً. أنا ومُعلِّمي كنّا فوق وننتظر إيعازات «عليّ»، ندير دفتي الرافعة، نصغي للأصوات

في محيطنا من دون أن نتكلم إلى بعضنا بعض. ثَمَّةَ صرير متواصل تصدره الجداجد في الجوار، وتحت هذا الصوت الرفيع ثَمَّةَ غمغمة عميقة مجهولة تصدرها إسطنبول المستلقية على بعد ثلاثين كيلو متراً. لم نسمع هذه الغمغمة عندما جئنا إلى هنا أول مرّة، فقد كانت تطغى عليها أصوات الغربان والسنونو وتختلط معها تغريدات منوَّعة: منها ما يشبه الزعيق، ومنها ما يكون أشبه بالتوسل منه إلى الهديل، ومنها ما يشبه التوسل أو ما يشبه التشكّي لأنواع من طيور مختلفة لا تعد ولا تحصى. بعدها كنّا نسمع جعجعة قطار الشحن الطويل الذاهب إلى أوروبّا، وأناشيد الجنود المتدربين تحت رحمة هذا القيظ، الذين كانوا يهرولون وهم يحملون أسلحتهم.

أحيانا كنّا نتقابل عيناً بعين وأتساءل في سرّي، تُرى بِمَ يفكر الأُسطى «محمود» بالنسبة إليّ؟ ولكنني كنت أشيح بنظري عنه عندما نتقابل وجهاً لوجه.

في بعض الأحيان كان الأُسطى «محمود» يقول: «انظرْ! هذه طائرة أخرى تمرُّ»، كلانا كنّا نرفع رأسينا ونحاول أن نرى الطائرة. فالطائرات التي تحلّق من مطار «يشيل كوي» بعد دقيقتين من تحليقها كانت تصل فوق رؤوسنا ومن هنا كانت تستدير نحو وجهتها.

هناك كان «عليّ» يصيح من الأسفل:

«اسحبْ!» فنرفع قطع الصخور التي تحتوي على مادة الحديد والنيكل – الأُسطى «محمود» أراني ما هو النيكل – ونحن ندير مقبض الرافعة التي كانت تئنّ وتصدر صريراً حين تدور.

في كل مرّة يصل فيها السطل إلى فوق كان الأُسطى «محمود» ينادي على «عليّ» داخل البئر، يشير إليه ألّا يملأ السطل كثيراً، ولا يكسّر القطع الصخرية وأن يتأكد من شدّ الحلقة جيداً بالسطل.

حين جاء صاحب الأرض «خيري بيك» في المرّة التالية قال له الأُسطى «محمود» إنّه لا يفكّر بحفر بئر أخرى في مكان آخر، وإنّ وتيرة

العمل لا يمكن أن تتسارع، وهذه الصخرة لن تتفتَّتَ بسهولة. الماء لا بدّ سيخرج من هنا.

تاجر النسيج «خيري بيك» كان يصرف مبالغ نقدية للأُسطى «محمود» بحسب الأمتار التي يحفرها، أمّا عندما ينجح في اكتشاف الماء فسوف يدفع لنا مبلغاً كبيراً، إضافة إلى البقشيش الذي سنحصل عليه.

منذ مئات السنين صارت هذه التقاليد بين الأسطوات حفّاري الآبار وبين المستفيدين من حفر الآبار في أراضيهم كقوانين تتم مراعاتها. فإذا أُجبر الأُسطى على أن يحفر في مكان ليس فيه ماء فلا يحقّ له المطالبة بالحصول على المكافأة الأخيرة، حين يكتشف الماء، لذلك يتوجب عليه أن يكون دقيقاً في اختيار مكان البئر. أما إذا أصرّ صاحب الأرض في اختيار مكان لا ماء فيه بقوله: «عليك أن تحفر هنا» فإن الحفّار سيحصل على أجوره في كل الأحوال. فيقول الحَفّار إذا طلبتَ إليّ أن أحفر هنا كما تريد أنت، فسوف آخذ المبلغ الفلاني عن كل متر، ولا علاقة لي إن خرج الماء أو لم يخرج. يشترطون هذا من أجل أن يحموا أنفسهم بإزاء كافة الاحتمالات. ربما لا تصيب رمياتهم في اكتشاف الماء. وهنالك بعضٌ من الأسطوات من يضاعف سعر حفر المتر الواحد بعد أن يبلغ المتر العاشر. وفي حالة صعوبة اكتشاف الماء في مكان ما، فمن الطبيعي أن يتفق الطرفان في قرارهما بخصوص تغيير مكان الحفر. في بعض الأحايين يعاند صاحب الأرض بقوله: «لا يوجد ماء هنا... هذا المكان صخري أو إنها تربة رملية أو جافة أو فاتحة اللون»، وبالإمكان أن يستمر الحَفّار لأنه يقاضي صاحب الأرض حسب الأمتار. أما إذا صادف الحَفّار طبقة صخرية وتباطأ عمله يجوز له أن يطلب أجوراً يوميّة. ولصاحب الأرض الحقّ في أن يتخذ قراره في إنهاء العمل في الموقع عندما لا يكتشف الماء. وللحَفّار أن يصرّ على الحفر إذا كان يتكهن بقرب وصوله إلى الماء، فيطلب بضعة أيام أخرى لإثبات رأيه. كان موقف الأُسطى «محمود» مقارباً للمثل الأخير هذا.

في اليوم التالي حينما ذهبنا إلى البلدة، قبل نصف ساعة من الوقت الذي رأيت فيه شقيق المرأة ذات الشعر الأحمر، أيْ في الساعة الثامنة والربع دخلت شارع المطاعم، وألقيت نظرة من خلال الواجهة الزجاجية إلى داخل مطعم وبار «كورتولوش» الذي خرج منه أخوها. كانت هنالك خلف الواجهة الزجاجية ستارة مخملية نصف مسدلة. لمّا لم أجد بين الحضور وجهاً أعرفه، فتحت الباب وجلت ببصري في المطعم الذي كان فارغاً تقريباً، ولكنني لم أجد من أعرفه، ولا رأيت شعراً أحمر في هذا الوسط الذي تطغى فيه رائحة الخمور على كل شيء.

وفي اليوم التالي ظهرت تربة ناعمة من تحت الصخرة، ولكن العمل قد تباطأ مرّة أخرى بسبب ظهور صخرة أخرى في طريق الأُسطى «محمود». في مساء ذلك اليوم جلسنا في مقهى «الروميلي» حزينين صامتين. دون أن أنطق ولو بكلمة. قمت من مكاني وذهبت أولاً إلى الميدان لأنظر إلى شبابيك المبنى المقابل، فلم أرَ شبابيك المبنى لأن أشجار اللوز المصطفة على طول الرصيف كانت تحجب الرؤية. يمَّمتُ صوب شارع المطاعم. دخلت مطعم «كورتولوش» وأزحت الستارة المخملية نصف المسدلة ورأيت المرأة ذات الشعر الأحمر جالسة وكذلك أخوها وأمّها جالسين مع بضعة أشخاص آخرين جوار النافذة.

ارتبكت وانتابني الانفعال، لا أدري ماذا أفعل ثم انطلقت إلى الداخل. كان الجالسون يضجّون بالضحك غير منتبهين بوجودي. كانت هناك أقداح فيها عرق وقناني بيرة على المنضدة أمامهم. المرأة ذات الشعر الأحمر كانت تدخّن وتصغي لحديث يدور على المائدة.

جاءني نادل وسألني: «هل تبحث عن أحد ما؟».

فالتفت جميع من كان جالساً في تلك المنضدة. كانت هنالك مرآة واسعة تسنّى لي أن أراهم جميعاً، تقابلنا في المرآة وجهاً لوجه. ارتسمت على محيّاها النظرة المشفقة نفسها ولكنها صارت أكثر مرحاً. كانت تنظر

إليّ بتمعُّن، أنا الآخر بدأت أبادلها النظرات نفسها. كانت جذَّابة، يداها الصغيرتان كانتا تتحرّكان بخفّة على المنضدة.

إلى تلك اللحظة لم أكن قد أجبت النادل.

«بعد الساعة السادسة مساءً يمنع دخول الجنود إلى هذا المكان!».

«أنا لست جنديّاً».

«يمنع كذلك من هم دون الثامنة عشرة. إذا كنت تعرف أحداً هنا تفضل بالجلوس، وإلا... نرجو المعذرة».

قالت ذات الشعر الأحمر للنادل:

«إنه واحد من معارفنا، دعْه يجلس!»، قالت وهي تنظر إليّ وكأنها تعرفني حقّ المعرفة، أو تربطني بها علاقة قديمة منذ زمن طويل. نظراتها كانت من الحميميّة بمكان، انتشيت وصرت مفعماً بالسعادة. أخذت أبادلها النظرات نفسها المشبوبة بالحب، ولكنها أشاحت ببصرها عنّي هذه المرّة.

لم أتفوّه بأيّ كلام أمام النادل وحسب، بل خرجت من البار وتوجّهت صوب مقهى «الروميلي».

«أين أنــت؟»، قالها الأُسطى «محمود»، «كل مساء تتركني هنا وتذهب. إلى أين تذهب؟».

«يا مُعلِّمي! أنا أيضا منزعج من هذه الصخرة!»، قلت «إذا امتدت هذه الطبقة إلى ما لا نهاية».

«كن واثقاً من مُعلِّمك! عليك أن تلزم كلامي وتكون مطمئنّ البال. أنا أقول لك سوف أجد الماء هناك».

مزاحات أبي وكلماته كانت تؤنسني، تدفعني إلى التفكير، وإزاء هذا كنت أكتشف ذكائي. ولكنني لم أكن أولي هذه المسألة كامل ثقتي. أما الأُسطى «محمود» فكان يهدف في معظم كلامه إلى تطمين المستمع إليه، ومنحه الثقة، حتى رحت أصدق أننا سنعثر على الماء.

-12-

على الرغم من مرور ثلاثة أيام فإننا لم نستطع أن ننهي قصتنا مع الصخرة التي اعترضتْنا في قعر البئر، ولم نحظَ برؤية المرأة ذات الشعر الأحمر. إنها امرأة جذَّابة بحقّ بقوامها الفارع والرشيق. نظراتها المشفقة وابتسامتها الساخرة التي تجعل شفتيها المدورتين تتكوران بشكل رائع، تتجسد بكامل حيويتها أمام عيني. أما الأُسطى «محمود» والصبي «عليّ» فكانا يتبادلان الدور بينهما في النزول إلى البئر والصعود إلى أعلى ويبذلان جهوداً مضنية في محاولة تفتيت الصخرة بمعولهما، ولكن كل شيء كان يسير على وتيرة بطيئة للغاية، وحرارة الجو من جانبها كانت ماضية في استنزاف قوانا. بيد أنّي لم أعد أبالي كثيراً بالجهد الذي أبذله في تحريك الرافعة من أجل سحب كِسَر الصخور من البئر، وإفراغ السطل في العربة اليدوية ثم نقل العربة لتفريغها بعيداً، إذ كان يكفيني أن أستحضر نظرات المرأة ذات الشعر الأحمر المفعمة بالحب والحنان والتي تؤكد فيها أنها تعرفني، وأصدّق بالكلام الذي يطلقه مُعلِّمي بأننا سنعثر على الماء.

في إحدى الأماسي التي لم ينزل فيها الأُسطى «محمود» إلى «أونجوران» مشيت حتى وصلت إلى خيمة المسرح. دخلت الصف بهدف الحصول على تذكرة، إلّا أنّ رجلاً لم يسبق لي أن رأيته كان يستخدم منضدة على أنها شباك تذاكر، قال لي: ارجعْ هذا لا يليق بك!

فكرت أنّه ربما كان يعني مسألة العمر، ولكن في بلدات صغيرة كهذه

البلدة هنالك أولاد أصغر مِنِّي يتسلّلون إلى أكثر الأماكن انحطاطاً فيها، ولا أحد يردعهم. ثم إنّني كنت في السابعة عشرة من العمر، ومن يراني يتصوَّرني أكبر من ذلك. الرجل قاطِع التذاكر حين قال لي: «ارجعْ هذا لا يليق بك!»، ربما قصد أن الرذيلة التي تمارس هناك في الخيمة لا تليق بي لكوني سيّداً صغيراً. يبدو عليّ أنّني قد أصبت بعض التعليم، أو لكوني حضريّ المظهر وابن عائلة. فكّرت سائلاً نفسي: هل للمرأة ذات الشعر الأحمر نصيب في ذلك الابتذال والممارسات اللّاأخلاقية التي تقدم خصيصاً للجنود.

في طريق عودتي من البلدة، وأنا أتأمل لانهائية النجوم خطرت ببالي رغبتي في أن أكون كاتباً. كان الأُسطى «محمود» ينتظرني وعيناه شاخصتان على شاشة التلفاز. في ذلك المساء أعاد عليّ السؤال مرّة أخرى فيما لو كنت ذهبت إلى خيمة المسرح أم لا. فأجبته بالنفي، قلت لم أذهب. وتبيَّن لي من النظر إلى عينيه أنَّ مُعلِّمي لا يصدِّق بي. بدت على جانب شفتيه حركة تدلّ على الاستهانة بي. الحركة نفسها التي كانت تدلّ على استهانةٍ بالمقابل تظهر بين الحين والآخر على جانب من فمه، طوال النهار بينما كنّا نحرّك الرافعة. فكرت أنّني ربما قمت بتصرف عائب تجاه الأُسطى «محمود» دون أن أدري، مما أثار حفيظته وصار يشعر بخيبة أمل. فما الذي جنيته يا ترى؟ ألأنني كنت لا أدير مقبض الرافعة بما يكفي من قوة، أو عدم الانتباه إلى كُلّاب السطل أو أيّ شيء من هذا القبيل. وكلّما تأخر ظهور الماء كانت تتربع على وجه الأُسطى «محمود» أمارات الاستهانة بالمقابل واستصغاره، وتخوينه والنظر إليه بريبة، عندئذ كنت أشعر بالذنب والنفور منه.

لم يكن أبي ليهتم بي كما يهتم الأُسطى «محمود» بي أبداً، ولم يعطني من وقته قَطّ، بينما كنت أمضي الوقت كله مع الأُسطى «محمود»، ولكن أبي لم ينظر إليّ يوماً باستصغار. كنت أشعر بالذنب حين يقال لي إن أباك يعذَّب الآن في الحبس. تُرى ما هو تأثير الأُسطى «محمود» عليّ،

وما الذي يفعله لكي تستيقظ كل هذه المشاعر من مكامنها في داخلي؟ لماذا أطيعه إلى هذه الدرجة؟ لماذا أرغب دوماً أن أكون عند حسن ظنّه؟ في بعض الأحيان حين أدير مقبض الرافعة كنت أجد في نفسي الشجاعة الكافية لأسأل هذه الأسئلة، ولكنني كنت أشيح بنظري عنه ولا أسأله، مكتفياً بغضبي منه.

أحلى أوقاتنا مع مُعلِّمي هي تلك الأوقات التي كنت أقضيها وأنا أستمع إلى حكاياته. في تلك الأمسية عاد لينظر بتيهان إلى شاشة التلفاز وهو يقص حكاية ما، مفادها أن الأرض مكونة من طبقات متعددة، طبقة تحتها طبقة. بعض هذه الطبقات تكون كبيرة، يظن الغُشَماء من حَفّاري الآبار أنّ هذه الطبقات تمتد إلى ما لا نهاية. أما إذا أصررت في المضيّ قدماً فإنك قد تقع على أوردة أخرى. فالأرض مثلها مثل جسد الإنسان بالضبط، تتغذى على الحديد والزنك والجير كما تغذي الدماء جسم بني البشر. وبين هذه الأوردة توجد طرق للماء كما توجد بحيرات صغيرة وكبيرة.

كان الأُسطى «محمود» يحكي قصصاً عن أن الماء يمكن أن ينبجس في أيّ مكان أو زمان بشكل مفاجئ وغير متوقع. مثلاً قبل خمس سنوات كان يحفر في أعالي «صاري ير» نزولاً عند رغبة واحد من رجال الأعمال، إذ دعاه ليحفر بئراً في مكان يقع بالقرب من شاطئ البحر الأسود، وبعد انقضاء أيام عديدة لم يخرج من البئر سوى الرمال، فاهتزت ثقة الرجل وانتابه الخوف حتى طلب إلى الأُسطى «محمود» أن يُوقِفَ الحفر. أما الأُسطى «محمود» فقد تفحص الرمل وقال للرجل ألّا ييأس فطبقات الأرض تتداخل أحياناً وتتشابك مثلما هي أوردة الإنسان، ويقال إنّه بعد مدة وجيزة تمكن من العثور على الماء.

كان يروق للأُسطى «محمود» أن يتحدث عن دعوته للمشاركة في حملة ترميم جوامع إسطنبول الأثرية فقال باعتزاز: «لن تجد جامعاً أثريّاً في إسطنبول ليس فيه بئر»، ويفضل الحديث عن ذكرياته بتقديم معلومات دقيقة عن تلك المساجد. فمثلاً هنالك بئر يقع تماماً في مدخل

جامع يحيى أفندي، أما جامع «محمود باشا» المبني على مرتفع شاهق يبلغ عمق بئره خمسة وثلاثين متراً. وإنه تعارف على أن يشعل شمعة يضعها في الدلو ويرسله إلى داخل البئر. فطالما كانت الشمعة تحترق فهذا يعني أن البئر ليس فيه تسرب غازات. ولا ينزل إلى أيّ بئر ما لم يقم بهذا الاختبار.

كما كان يعد الأشياء التي كان أهل إسطنبول يرمونها في آبارهم من أجل إخفائها، مثل: السيوف، الملاعق، الجماجم، القناني الزجاجية وسداداتها، الفوانيس، القنابل والبنادق والمسدسات، والدمى، والأمشاط، وأنعل الحصن، وقد وجد حاجيات مرمية في الآبار القديمة لا تخطر على بال أحد. وكان قد وجد مسكوكات فضية قديمة. بدا أن هذه الحاجيات كانت ترمى إلى الآبار الجافة، وتنسى لسنوات طويلة ثم تندثر بعد مرور مئات السنين. أليس هذا غريباً حقّاً؟ أن يدفن الإنسان حاجياته الثمينة في البئر، علام يدلّ هذا التصرف يا ترى؟

-13-

في أيام تموز التي كنّا نختنق فيها من شدة الحر جاءنا صاحب الأرض «خيري بيك» ووجد أن لا فائدة ترجى من هذا العمل. قال كلاماً أثر فينا في الصميم، إذا لم نحصل على أيّة نتيجة خلال ثلاثة أيام فلا أمل في إيجاد الماء، وقال إنّه عازم على إيقاف العمل في البئر. أما إذا كان الأسطى «محمود» مصرّاً على مواصلة العمل فلا ضير. بعد ثلاثة أيام إذا استمر الوضع كما هو عليه الآن فإنه لن يدفع أجوراً يوميّة للأُسطى «محمود» ولصبيِّه «عليّ». فإذا استمر الأُسطى «محمود» في العمل وتكلَّلت جهوده بالنجاح وإيجاد الماء فإن «خيري بيك» لا بدّ سيغدق عليه كثيراً من الهدايا، وسوف يظلّ يلهج بأفضاله أمام الجميع على تأسيس المعمل هنا. بيد أن حَفّاراً ذكيّاً ومجدّاً وصادقاً مثل الأُسطى «محمود» لم يكن ليرضى أن تذهب جهوده أدراج الرياح أو يستهين أحدهم بقدراته، ولم يكن ليرضى بالهزيمة لنفسه في هذه المنازلة التي خاض غمارها هنا في هذا الموقع الخطأ من هذه الأرض الناكرة للجميل.

قال الأُسطى «محمود» بهدوء:

«أنت محق، لا تقلق يا سيدي... سنعثر على الماء خلال يومين وليس في ثلاثة أيام».

أنا ومُعلِّمي لم نتفوّه بأي كلام لوقت طويل بعد أن ذهبت الشاحنة التي جاءت بالسيد «خيري» مودعة بصرير آلاف من حشرات زيز الحصاد. بعد ذلك أصغينا مليّاً إلى طقطقة قطار الساعة الثانية عشرة والنصف وهو

ينقل المسافرين من جهة إسطنبول. استلقيت تحت شجرة الجوز ولكنني لم أستطع النوم ولم يَرُقَ التفكيرُ بالمرأة ذات الشعر الأحمر وبالمسرح إلى حدّ مواساتي.

على بعد خمسمائة مترٍ عن شجرةِ الجوز، خارج أراضي ربّ العمل كان هنالك ملجأ مُحصَّن بُني بالطوب الخرساني من مخلفات الحرب العالمية الثانية. جاء الأُسطى «محمود» معي لإلقاء نظرة على الملجأ فقال هذا موضع بُنِيَ من أجل أن يوضع فيه رشاش آلي لمقاومة المشاة والدروع. أنواع من الدغل وأشواك توت العليق كانت قد غطت الباب. وبرغم محاولاتي للدخول إلى الموضع فإنني فشلت فاستلقيت على العشب وبدأت أتفكّر. إذا لم نعثر على الماء خلال ثلاثة أيام فلن أحصل على هدية، ولكنني أجريت حساباتي الخاصة وخلصت إلى أنّني قد جمعت من أجوري اليومية مبلغاً يكفيني، ولا بأس به.

فبعد ثلاثة أيام إذا لم نعثر على الماء فمن الأفضل لي أن أعود إلى البيت وأستغني عن مكافأة العثور على الماء.

كانت ثَمَّةَ نسمة عذبة تهب في ذلك المساء على «أونجوران» بينما كنّا جالسَين في مقهى «الروميلي». سألني مُعلّمي الأُسطى «محمود»: «كم يوماً صار لنا منذ بدأنا بالحفر؟»، كان يروق له أن يعيد طرح هذا السؤال عليّ في كل يوم، على الرغم من أنّه كان يعرف الجواب.

قلت بدقة:

«منذ أربعة وعشرين يوماً».

«هل حسبت هذا اليوم أيضاً؟».

«نعم! اشتغلنا هذا اليوم وانتهى. حسبت اليوم أيضاً».

«قمنا بتغليف ما مجموعه ثلاثة عشر أو أربعة عشر متراً من جدار البئر بالإسمنت»، قالها الأُسطى «محمود» وحدّق في عيني وكأنني أنا من تسبّب له بكل خيبة الأمل هذه. كما اعتاد أن ينظر إليّ بهذه النظرة،

على الأكثر، حين كنّا ندير مقبض الرافعة، فأشعر بالذنب وتتملكني رغبة التمرّد، أكاد أشقّ عصا الطاعة على أثرها، لكنني كنت أخاف مما يخطر ببالي من أفكار. وفجأة بدأ قلبي يدقّ دقّات متسارعة. لوهلة ما تسمّرت في مكاني من دون حراك. كانت المرأة ذات الشعر الأحمر تمرّ مع عائلتها عبر الميدان.

إذا ذهبت لأتعقبهم فإن الأُسطى «محمود» سيكتشف أنّني هائم في غرامها. وقبل أن يتّخذ عقلي قراره بادرَتْ ساقاي إلى الانطلاق، قمت من فوري دون أن أكلّم الأُسطى «محمود»، وأخذت أسير في اتجاه آخر معاكس لوجهتهم لئلّا يظن مُعلّمي أنّني مهتمٌّ بهم، ولكي يظن أنّني ذاهب إلى دائرة البريد لأخابر والدتي، وفي الوقت نفسه حرصت على ألّا أفقد أثرهم.

لقد كانت المرأة ذات الشعر الأحمر أطول قامة مما كنت أتخيل. لا أدري لماذا أتعقبهم؟ ثم إنّني لم أتعرّف عليهم جيداً. وبينما أنا أتعقبهم كنت أشعر بالانشراح، وأرغب أن تنظر إليّ نظرة تقول فيها بحنان: «أنا أعرفك». كان حبها يمكن أن يعلمني كم هي جميلة هذه الحياة. أشعر بهذا من جهة، ومن جهة أخرى كنت أفكر كم هي فارغة من أيّ معنى تلك الخيالات التي كانت تراودني. فكرت، إذن فأنا أكون أنا على أحسن حال عندما لا يراني أحد. اكتشفت هذه الفكرة توّاً. إن لم يكن أحد ما يراقبك فسوف تنهض الأنا المتخفية الأخرى من داخلك وتتصرف كما يحلو لها. فمثلاً إن كان أبوك في الجوار ويقوم بمراقبتك فالأنا الثانية تختفي في داخلك.

كان هنالك رجل يصاحب المرأة ذات الشعر الأحمر، ظننته أباها. كانا في المقدمة؟ في حين كان أخوها وأمّها يتبعانهما، أمّا أنا فكنت أتعقّبهما حتى اقتربتُ إليهما إلى درجة أنّي كنت أسمع ما يدور بينهما من كلام ولكنني لم أفهم أيّ شيء.

حينما وصلوا إلى سينما «جوناش» وقفوا في المكان نفسه الذي يوجد فيه شقّ في حائط السياج حيث اعتاد كل من يمرّ من هنا أن يتوقف

ليتابع الفيلم المعروض على شاشة السينما مجّاناً. وقفت عند العطفة الواقعة على الجانب الآخر من الشاشة، صرت على بعد خمس أو ست خطوات عنهم أقف بينهم وبين الشاشة، غير منتبه إلى ما يعرض عليها.

كنت أراقبها، تسنى لي أن أرى وجه المرأة ذات الشعر الأحمر من هذا المكان القريب، واكتشفت أن وجهها لم يكن بجمال الوجه الذي كنت أتخيله. ربما كان ذلك بسبب انعكاس ضوء مائل للزرقة على بشرتها من الشاشة. بيد أن ابتسامتها المعبرة ونظرتها الرقيقة ما زالتا رائعتين. وها أنذا كصبي يعمل عند حَفّار آبار منذ ما يزيد على ثلاثة أسابيع ما زال صامداً أمام هذا السحر.

لا أدري إن كانت تبتسم لِما تَرى من موقف ممتع على الشاشة أم كان هنالك شيء آخر؟ التفت إليها فكانت تنظر إليّ، ينطبع التعبير الرقيق نفسه على مُحيَّاها.

أردت أن أدنو منها وأن أكلمها فبدأتُ أتصبَّبُ عَرَقاً. كانت أكبر مِنِّي عمراً، تكبرني بعشر سنوات في الأقل. الرجل الذي كنت أعتقد أنّه أبوها قال: هيا بنا لنذهب، لقد تأخَّرنا... لم أعد أتذكر بالضبط ما الذي قمت بعمله، ماذا كان تصرفي. يبدو أنّني قد هرعت من مكاني واعترضت طريقهم.

«ما هذا؟ هل تقوم بمراقبتنا؟»، قالها أخو المرأة ذات الشعر الأحمر.

فنادت الأم على ابنها الكبير، سائلةً إياه:

«تورجاي! من هذا؟».

قال الأب:

«هل هذا جندي؟».

«لا ليس جندياً... إنّه سيّد صغير»، قالت الأم.

سمِعَتْ المرأة ذات الشعر الأحمر كلام أمها. رأيتها تبتسم ومازال وجهُها محتفظاً بتلك التعابير الرائعة نفسها.

«في الحقيقة أنا طالب أدرس في الإعدادية بإسطنبول»، قلتُ، «ولكننا الآن نحفر بئراً فوق، على السهل، مع مُعلِّمي».

كانت المرأة ذات الشعر الأحمر تحدّق في عيني، وتعني كل حركة وإيماءة من إيماءاتها:

«تعالَ أنت ومُعلِّمك إلى مسرحنا في إحدى الأماسي». قالتها وابتعدت مع الآخرين ممَّن كانوا بصحبتها.

توجَّهت العائلة صوب خيمة المسرح، فلم أواصل متابعتهم، ولكنني بقيت أراقبهم من بعيد حتى وصلوا إلى عطفة الطريق. وفي الحقيقة أنّني لم أرَ فيهم سمات عائلة. وكأنهم فرقة مسرحية أكثر مما هم عائلة، وهكذا بدأتُ أهيم في خيالاتي.

قبل ثلاثة أسابيع عندما كنّا ننقل مشترياتنا على عربة خشبية ربط إليها حصان مرهق، شاهدت الحصان نفسه حين تقابلت مع المرأة ذات الشعر الأحمر، شاهدته مربوطاً إلى عمود، يلوك البرسيم، وكانت عيناه أكثر حزناً.

-14-

في اليوم التالي نحو الظهر، قبل وقت الاستراحة أطلق «عليّ» صيحات الفرح، قال إنّه جاء إلى نهاية الصخرة وإنه يرى التراب الناعم ظاهراً من تحتها. فأخرجناه من البئر، ونزل الأُسطى «محمود» إلى الأسفل. بعد قليل صعد إلى فوق ليعلن أن الصخرة قد انتهت وظهر تراب غضاري من تحتها، وبعد ذلك سيخرج الماء لا محالة. أسعدنا نحن أيضاً حين رأيناه يذرع الأرض جوار البئر جيئةً وذهاباً، ويدخّن سيجارة، وهو مستغرق في تأملاته السعيدة.

قضينا أمسيتنا تلك ونحن نكد ونعمل، حتى إننا لم نذهب إلى البلدة لأننا كنّا متعبين. وفي صباح اليوم الثاني استيقظنا من النوم مع الضياء الأول، وعلى الفور هرعنا إلى العمل، لكن كنّا نستخرج تراباً يابساً أصفر مائلاً إلى الرصاصي. كان التراب من النعومة بمكان لم يستوجب استعمال المعول لحفره، فكان الأُسطى «محمود» يحفر التربة الطرية بالمجرفة ويملأ بها السطل مباشرة. أنا وعلي نسحب السطل إلى أعلى من دون عناء كبير، نفرغه ونعيده على وجه السرعة. في وقت قصير انتابني اليأس.

قبل الحادية عشرة صعد الأُسطى «محمود» إلى فوق، وأنزلنا عليّاً إلى البئر.

«اشتغل على مهلك ولا تثر الغبار» قالها الأُسطى «محمود»، «إذا اشتغلت بهذه السرعة فإنك لن تستطيع رؤية الضوء في الأعلى».

في الحقيقة، بمُجرَّد تفحص التراب الذي كنّا نستخرجه أدركنا أن الماء بعيد عن متناولنا، ولن نتوصّل إلى اكتشافه في القريب العاجل، ولكن لا أحد منّا تجرّأ على البوح بهذا السرّ لصاحبه.

منذ الصباح كان «عليّ» قد أخذ يجمع الأتربة ويذهب بها بالعربة اليدوية إلى مكان آخر لأنه انتبه إلى نوعية التراب الشبيه بالرمل، وأدرك مدى اختلافه عن التراب المخلوط الذي ظهر بادئ الأمر من تحت الصخرة. أنا أيضاً أخذت أفرغ السطل الذي نسحبه من البئر في المكان نفسه.

بعد وجبة العشاء ذهبنا إلى البلدة. وبينما نحن جالسون في مقهى «الروميلي» أخذت أفكر في المسألة التي مضى عليها يومان، ذلك أنّ المرأة ذات الشعر الأحمر طلبت إليّ أن أصطحب مُعلِّمي أيضاً للحضور معي إلى المسرح، فإنني كنت أريدها لوحدي. كنت أرغب أن أشاهدها أنا وحدي من دون كل الناس على المسرح. لذلك أيقنت أنّني لن أنقل الخبر إليه قَطّ، مخافة أن يكتشف الأُسطى «محمود» علاقتي بها. ربما تدخل بيني وبينها ولربما تنازعنا عليها. لم يتملّكني الخوف من أبي قَطّ مثلما بدأت أخشى الأُسطى «محمود». لا أدري كيف تسربت هذه الخيفة إلى داخلي، ولكنني كنت أدرك أن المرأة ذات الشعر الأحمر هي التي باتت تسكب الزيت على مشاعر الخوف في داخلي.

قبل أن أنهي شرب الشاي قلت: «سأذهب لأخابر والدتي»، قمت من مكاني وما إن استدرت عند عَطفة الزقاق حتى توجهت راكضاً نحو خيمة المسرح الصفراء كما لو كنت أركض في الحلم.

فيما وقع بصري على الخيمة ولونها الأصفر اللامع تملكتني رعشة مبهمة. تذكرت أيام طفولتي وخُيِّل إليّ أنّي أرى خيمة السيرك الأوروبيّ التي نصبت في «دولما باهجا». أخذت أقرأ ما كتب على اللافتات دون أن تذكّرني تلك الكتابات بأيّ شيء. التفتُّ جانباً وإذا بي وجهاً لوجه مع كتابة حيّرتني، كتبت على ورقة سجّلات بالقلم العريض: آخر عشرة أيام.

سرتُ في الأزقة كما لو كنت أمشي في منامي. لم أر بائع التذاكر ولا وقع بصري على تورجاي «كنت أظن أنّه ابن ذلك الرجل» ولا رأيت المرأة ذات الشعر الأحمر أو أُمّها. كان هنالك متسع من الوقت قبل أن يبدأ العرض المسرحي. رحت أسير في شارع المطاعم وألقي نظرة عبر الواجهة الزجاجية إلى داخل المطعم. وجدت «تورجاي» جالساً إلى منضدة مزدحمة بصحبة كبيرة العدد فدخلت.

المرأة ذات الشعر الأحمر لم تكن موجودة. «تورجاي» عندما رآني أومأ إليّ بإشارة من يده. لم يهتم أحد من الحاضرين بوجودي بينهم فجلست إلى جانب «تورجاي». قلت:

«ساعدني على الدخول إلى المسرحية ذات ليلة، وسأدفع لك ثمن ذلك مهما كان».

«الفلوس ليست مهمة، أيّة ليلة تختار سوف تجدني هنا في هذا البار قبل بدء المسرحية».

«أنت لا تأتي إلى هنا كل مساء».

«هل تقوم بمراقبتنا يا هذا؟»، قالها «تورجاي» مبتسماً، رافعاً حاجبيه بشيء من المزاح. أخذ قطعتين من الثلج بالملقط ووضعهما في كأسٍ فارغة ثم ملأها بعرق «كلوب». «خُذْ»، قالها وأعطاني الكأس في يدي.

«إذا شربت هذه الكأس بجرعة واحدة أدخلتك من الباب الخلفي للخيمة».

«ليس هذا المساء»، قلتُ. ولكنني وكأي واحدة من الأعمال المسلَّم بها أخذتُ الكأس وأفرغتها في جوفي بجرعة واحدة. ومن دون أن أدَعَ لمزيد من الوقت أن يذهب سدى عدت إلى المقهى حيث كان الأُسطى «محمود» جالساً.

عندما جلست إلى المنضدة شعرت بوجوب الامتثال لأوامر مُعلِّمي وعدم الخروج عن طوعه. العهد الذي قطعناه على أنفسنا في العثور على

الماء، وكل هذا الجهد الذي بذلناه كانا كافيين لتوطيد علاقتي بمُعلِّمي ولشدّ وثاقي إلى البئر، ولكن كان بإمكاني أن أشقّ عليه عصا الطاعة وأودع العمل عائداً إلى البيت، بعد أن أكون قد استلمت كل مستحقاتي. وبالنسبة لي كان هذا يعني أنّني تخلَّيتُ عن إيجاد الماء مثلما يتخاذل بعضهم عن كفاحه من أجل قضيَّته في أوَّل عقبةٍ تواجهه.

كان العرق يسري كمسرى الدم في عروقي. في طريق العودة بينما كنت أصعد المرتفع المتاخم للمقبرة ظللت أرنو إلى النجوم وأشعر بكل نجمة وكأنها فكرة بارقة في رأسي، كأنها لحظة أو ذكرى، لا يستطيع المرء أن يفكر بها كلّها دفعة واحدة ولكنه يستطيع أن يراها كلها دفعة واحدة. كان ذلك يبدو أشبه... الكلمات التي في عقلي ما كانت تكفي الأفكار التي في رأسي.

إذن فالأحاسيس، ما هي إلّا مُجرَّد صور مثل هذه السماء اللامعة المترامية قبالتي. كأنني يحقّ لي أن أفكر بالعالم كله إلّا أن تفكيري بها كان صعباً. لهذا السبب أريد أن أكون كاتباً. وبينما أنا أمارس الكتابة سوف أفكر، وبذلك سوف يتسنى لي أن أعبر عن نفسي، وأحول الصور إلى مادة مكتوبة. وفضلاً عن ذلك كان عليَّ أن أقوم بهذه المهمة على أحسن وجه، وأفضل بكثير من أصدقاء المُعلِّم «دنيز» الذين كانوا يأتون إلى المكتبة.

مُعلِّمي الذي يمشي في المقدمة كان يتوقَّف بين الحين والآخر ويلتفت إلى الخلف ويصيح في الظلام: «أين أنت يا هذا؟».

بهدف قطع الطريق من أقرب مسافة كنّا نسير عبر الحقول كنت أتعثَّر بشيء ما فألتفتُ بحيرة وإذا بي أنتبه للأبَّهة التي تبدو عليها صفحة السماء. وكانت برودة الليل قد نزلت إلى الأرض ونثرت نداها بين العشب.

«يا مُعلِّمي» قلتها هاتفاً في جوف الظلام بأعلى صوتي: «هذه الصخور التي تحتوي على النيكل والحديد أخشى أن تكون نجوماً مذنبة قد هوت من السماء».

-15-

صاحب الأرض «خيري بيك» لم يأتِ بعد ثلاثة أيام وحسب، بل جاء بعد خمسة أيام. جاء بشاحنته وكان على علم بأننا لم نعثر على الماء بعد. كان يتصرَّف وكأنه غير مهتمّ بهذا الأمر. جاء ومعه في الشاحنة زوجتُه وابنُه الذي يصغرني ببضع سنوات. جاء بهم ليريهم أماكن ورش الصباغة وغسل النسيج على الأرض كما هي مرسومة على خارطة البناء التي كان يحملها معه. بعد ذلك أشار إلى المكان حيث سيكون موقع المخازن، ثم أخذ يمشي ويشير في كل خطوة إلى مبنى الإدارة ومطعم العمّال. كان الولد يولي أباه أذناً صاغية، وينتعل حذاءً رياضيّاً جديداً ويحمل في حضنه كرة قدم هي الأخرى جديدة. بعدها راح الأب والابن يلعبان كرة القدم في جانب من الأرض. جاءا بقطع من الحجارة وحدَّدا مرمى للهدف وأخذا ينفّذان ضربات الجزاء بالتناوب، في حين راحت الأم إلى شجرة الجوز وبسطت هناك فرشة وأخذت تصف أنواع المأكولات التي جاؤوا بها معهم. حينما أرسلت المرأة الخبر مع «عليّ» أنها تدعونا جميعاً إلى وجبة الغداء ضاقت نفس الأُسطى «محمود» لأنه فسَّرها بشكل آخر. فهم أن هذه المأدبة السابقة لأوانها ربما ستكون بديلاً عن الحفل الذي يفترض أن يقيمه صاحب الأرض حينما نعثر على الماء، كما يبدو من هذا أن «خيري بيك» قد خطط كيف يكون الحفل حين يكتشف الماء. جلس الأُسطى «محمود» معنا على طرف من السفرة وتناول بضع لقيمات من البيض المسلوق مع سلطة الطماطم والبصل والبورك الملفوف.

بعد أن انتهينا من تناول الطعام استلقى الولد ابن «خيري بيك» بالقرب من أمه وراح في إغفاءة، بينما راحت أمه البدينة، الفَكِهَة والمتعافية تدخِّن وهي تقرأ في جريدة «جونايدن»، بينما كان ورق الجريدة يشخشخ بتأثير نسمة خفيفة من الريح.

رأيت الأُسطى «محمود» يصطحب «خيري بيك» مرّة أخرى إلى المكان نفسه حيث كنّا نفرغ التراب فانضممت إليهم. وقد تبين لي، من النظر إلى وجه صاحب الأرض، أنّه قد أصيب بكآبة لأن البئر لم يخرج منها الماء إلى الآن، ولربما يفكر أن لا ماء فيها على الإطلاق.

قال الأُسطى «محمود»:

«أرجو أن تعطينا فرصة أخرى لثلاثة أيام...».

قالها مُعلِّمي بصوت خفيض وبتذلُّل بالغ، فشعرت بالكراهية تجاه «خيري بيك» وبالخجل لأن الحال وصلت بمُعلِّمي إلى هذا الدَّرَك المشين. عاد «خيري بيك» إلى زوجته وولده تحت شجرة الجوز وقضى بعض الوقت يحدثهما ثم عاد إلينا. قال:

«أُسطى محمود عندما جئتك في آخر مرّة طلبتَ إليّ أن أمهلك ثلاثة أيام فأمهلتك أكثر مما طلبت، ولم تعثر على الماء. ثم إن نوعية التراب هنا بائسة. أنا في حِلٍّ من هذا الأمر. نحن لسنا أول من اخترنا مكاناً لحفر بئر ولم نعثر على الماء. برأيي - وأنت أعلم مِنِّي طبعاً - قم بحفر بئر أخرى في مكان آخر من هذه الأرض».

«ربما يتغيّر شريان ما تحت طبقات الأرض بشكل ليس في الحسبان»، قالها الأُسطى «محمود» «أنا سأواصل الحفر من هنا».

«إذا اكتشفتم الماء فأخبروني، سأستقل شاحنتي وآتيكم على الفور، وسأغرقكم بالهدايا. أنا رجل أعمال لا يمكنني أن أستمر إلى ما لا نهاية في تبديد نقودي على صبّ الخرسانة في باطن الأرض. فبعد اليوم لا تنتظروا مِنِّي أن أدفع أجوراً يوميّة. لا أدفع المال ولا أستطيع أن أجهزكم

بمواد إنشائية. حتى «عليّ» يترك العمل لديكم ويعود إلى شغله السابق، أما إذا بدأت بالحفر في مكان آخر أرسلته إليك ثانية».

«أنا سأعثر على الماء هنا»، قال الأُسطى «محمود».

هو و«خيري بيك» انزويا إلى جانب، وللمرّة الأخيرة أجريا معاً حساباتهما على الأجور اليومية. ورأيت «خيري بيك» وهو يوفي لمُعلِّمي ما بذمَّته من مبالغ، وتراضيا بينهما على أن كل واحد منهما أخذ حقَّه.

كل ما زاد عن الحاجة من بيض مسلوق إلى فطائر ملفوفة وحتى البطيخة التي جاؤوا بها لنا، أرسلتها زوجة «خيري بيك» مع «عليّ» وأبدتْ أسفها علينا مثلما شعر زوجها بالحزن من أجلنا.

حين قالوا لـ«عليّ»: «هيا تعال معنا لنوصلك إلى البيت» شعرنا أنا ومُعلِّمي بأنّا بقينا وحيدَين. ننظر خلف الشاحنة، و«عليّ» جالس في الحاوية الخلفية للشاحنة، يلوّح لنا بيده. وأدركت مرّة أخرى كم كان الكون صامتاً، وليس هنالك أيّ أصوات تسمع سوى صرير الجداجد وهدير إسطنبول.

لم نشتغل بعد الظهر. أنا استلقيت تحت شجرة الجوز وغصت في بحر أحلامي بكسل، أفكر بالمرأة ذات الشعر الأحمر وكيف يمكنني أن أكون كاتباً مسرحيّاً، أفكر يا ولدي بأصدقائي في منطقة «بشيكتاش» وأفكر أن الوقت قد حان للعودة إلى البيت. كنت أتأمل مسكناً من مساكن النمل الواقعة في مدخل الملجأ المدفعي المحصن المغطى بدغل توت العليق حينما جاء الأُسطى «محمود» وقال: «علينا أن نستمر في الحفر لأسبوع آخر، ثم إن أجورك لأيام عديدة قد اجتمعت عندي. سننهي عملنا ونغلق الأبواب يوم الأربعاء المقبل، سأدفع لك دفعة واحدة كل ما توافر عندي من أجورك».

«ماذا نفعل يا مُعلِّمي إذا لم ينتهِ هذا التراب السيئ، ولم نجد الماء؟».

«ثق بمُعلِّمك، أصغِ إليَّ، ودعْ الأمر لي»، قالها مُعلِّمي وهو يحدّق

في عيني. مسّد رأسي بحنو ثم أمسكني من كتفي واحتضنني. «أعلم أنك ستكون شخصاً مرموقاً».

لم أجد في نفسي تلك الإرادة القوية كي أقول لا، وهذا ما كان يغضبني ويدفعني إلى أن أشعر بالتعاسة. أتذكر أنّي فكرت مردداً في نفسي: «بقي أمامي أسبوع واحد»، وفي غضون هذا الأسبوع يتوجب عليّ أن أقابل المرأة ذات الشعر الأحمر، وأن أحضر العرض المسرحي الذي تقدمه.

-16-

في الأيام الثلاثة اللاحقة لم يتغير لون التراب السيئ. كنت أدير مقبض الرافعة لوحدي بصعوبة بالغة لذلك ما كان الأُسطى «محمود» يملأ السطل إلى نهايته وهذا كان يبطئ وتيرة العمل بشكل كبير. ولكن هشاشة التربة جعلت مُعلِّمي يتعمق أكثر فأكثر في حفر البئر وينتظر طويلاً ليأتيه السطل. عندما أنزل السطل يقوم بملئه بسرعة وبثلاث كيلات من مجرفته ثم ينادي على الفور: «اسحب!».

إدارةُ مقبض واحد من مقبضي الرافعة، سحبُ السطل المملوء إلى نصفه، ونقلُه إلى العربة، ثم الذهاب بالعربة إلى بعيد من أجل تفريغها، كان يستغرق وقتاً أكثر من المعتاد، وبذلك كان مُعلِّمي الموجود تحت في البئر يفقد صبره ويتذمّر، وفي بعض الأحيان كان يصرخ. حينما كنت أدفع العربة اليدوية بأقصى سرعتي لأفرغ التراب الرملي الناعم كنت أستنفد كل قواي فأتهالك جالساً على الأرض لآخذ قسطاً من الراحة. وعندما أعود لأقترب من البئر أسمع مُعلِّمي يشتم ويلعن بصوت أعلى. وفي أحيان أخرى حينما يجدني قد تأخرت أكثر من اللازم كان يصيح ويطلب إليّ أن أسحبه إلى أعلى، ويسألني عن سبب تأخري في العمل. رآني وقد بلغ مِنِّي التعب مبلغه، لأن إدارة مقبض الرافعة وسحبه إلى الأعلى كان من أكثر الأشغال صعوبة، فلم يرض أن يوبخني. «يا ولدي أنت تعبت»، يقولها ويذهب من فوره ليستلقي تحت شجرة الزيتون. يدخّن سيجارة هناك وينتظرني بصمت متى أفرغ من عملي. مخاطبته

إياي بكلمة «ولدي» كان لها تأثير بالغ في نفسي. هذه الكلمة كانت كافية لكي تلخبط كياني كله. أنا الآخر كنت أذهب إلى شجرة الجوز وأنام في ظلها. وبعد وقت قصير أسمع صوت مُعلِّمي وهو يوقظني بنبرة تتوزع بين التوسل وإلقاء الأمر، وهكذا كنّا نواصل الحفر.

كنا نذهب إلى «أونجوران» معاً كل مساء، نجلس إلى مقاعد الرصيف قبالة مقهى «الروميلي» ثم أغادر من دون أن أتعذر بأي حجة. أجوب شوارع «أونجوران» عسى أن أقابل المرأة ذات الشعر الأحمر أو أنجح في التسلل إلى خيمة المسرح. فالخيمة الصفراء ما زالت في محلها ولكنني لم أقابل أيّ واحد منهم في أول أمسيتين.

في اليوم الثالث مساءً بينما كنت أسير في الزقاق الذي يقع فيه محلّ النجار، لحق بي «تورجاي» أخو المرأة ذات الشعر الأحمر:

«يا صبي حَفّار البئر! أراك ساهماً يا هذا».

«أدخلْني إلى المسرح»، قلتُ له «اقطعْ لي تذكرة لأدخل...».

«تعال إلى البار».

ذهبنا معاً إلى مطعم «كورتولوش» ذي الواجهة المخملية وجلسنا إلى مائدة الممثّلين. قال تورجاي: «قبل المسرح عليك أن تتعلّم شرب العرق حسب الأصول المتبعة».

«تورجاي» الذي يكبرني بضع سنوات، قدم لي كأس العرق مع قطع الثلج بوجه مفعم بالمرح. وبينما أنا أفرغ الكأس دفعة واحدة راح يتهامس مع أصحابه. لا أدري هل أنا تأخرت عن موعدي؟ تُرى هل يفتقدني الأُسطى «محمود»؟ إذا دعوني إلى الدخول هذا المساء فلن أبالي بالأُسطى «محمود»، سأفضّل المسرح.

«احضرْ هنا مساء يوم غد، أنت ومُعلِّمك»، قالها تورجاي.

«الأُسطى محمود لا يستسيغ البارات ولا المسارح».

«نحن سنعثر عليه ونأتي به إلى هنا. احضرْ أنت يوم الأحد مساءً

وسوف يتولّى أبي إدخالك إلى خيمة المسرح. لن تضطر إلى دفع الفلوس ولا إلى شراء تذاكر».

لم أمكث طويلاً هناك وعُدْت إلى مُعلِّمي. وفيما كنّا في طريق العودة إلى مُخيَّمنا أخذ الأُسطى «محمود» يستعيد ذكرياته في السنوات الماضية ويحدثني كيف كانوا يبتهجون عندما يكتشفون الماء. ذات مرّة جاء أحد أصحاب الأراضي بأربعة خرفان، شوَاها على النار، وأقام مأدبة طعام لمائة شخص بالقرب من البئر ابتهاجاً بالعثور على الماء. في الماضي كان الماء يظهر بشكل مفاجئ، يصيبك بالذهول لأنك لا تتوقع انبثاقه. فالله يبذل الماء إكراماً لوجه حَفّار البئر المؤمن. يتدفّق الماء أول الأمر بحرقة مثلما يشخّ الوليد الصغير، والحَفّار مثله مثل الأب ينظر إلى وليده ويبتسم. ذات مرّة عندما توصل أحد الحَفّارين إلى اكتشاف الماء راح يتقافز وهو في الأسفل في أعماق البئر، ويصرخ من عظيم فرحه، حتى أوقع معاونوه صخرة عليه من شديد ارتباكهم وتسبّبوا في جرحه. وهنالك واحد من آغاوات الطراز القديم فقد رجاحة العقل حين اكتشفوا الماء في أرضه، فأخذ يقصد البئر كل يوم ويعيد قصة اكتشاف الماء على مسامع العاملين، ويعطي كل واحد منهم ورقتين قديمتين كبيرتين من فئة الأوراق النقدية العريضة مثل المفروشات. أما الآن فلم يبق آغا مثل أولئك الآغاوات ولا نبيل مثل أولئك النبلاء. قديماً لم يكن صاحب الأرض ليجرؤ على الكلام أمام الأُسطى حَفّار البئر: «أنا لا شأن لي بالبئر بعد هذا. إذا أردت أن تستمر فليكن لك ذلك ولكن بفلوسك وعمالك. أما أنا فلست موجوداً في اللعبة»، بل يستمر في بذل الأموال والهدايا على الحَفّار وعمّاله، مثلما يفعل أيّ أبٍ مع أولاده، وفي كلتا الحالتين، سواء وجدوا الماء أم لم يجدوه. وبعكسه كان يشعر أنّه بلا كرامة. ولكنني كنت مجبراً ألّا أفهم هذه المسألة على نحو خاطئ، فالسيد «خيري بيك» كان كريماً مثل النبلاء الغابرين، ولا بدّ أنّه سوف يغدق علينا الأموال والهدايا فيما لو وجدنا الماء.

-17-

في اليومِ التالي أصبحِ التراب المستخرج من البئر أكثر صفاراً ونعومة وأكثر جفافاً وأخف وزناً مثل التبن. كنت أرى ذلك بشكل أوضح عندما أرفع السطل إلى فوق. رمل وغبار يحتوي على قطع من جلود كأنها أغشية مهترئة وعلى منمنمات صدفية اللون قابلة للتكسر مثل بيادق «الميكا»[3] التي كنت ألعب بها أيام طفولتي، وعلى أحجار بلون بشرتي، عمرها ملايين السنين. قشور تبدو وكأنها شفافة، قطع أحجار بحجم بيض النعام، من حجر «الخرفش»[4] خفيفة الوزن إلى درجة لو وضعتها في الماء لطفت فوق السطح. كلّما توغل الأُسطى «محمود» في الحفر كنت أحس أننا نبتعد عن الماء، وتزداد الجفوة بيننا اتساعاً، فلا يكلّم أحدنا الآخر.

أخيراً علمت أنّني سوف أدخل المسرح مساء يوم غدٍ، وقد سرّني هذا كثيراً حتى إنّني لم أكترث بأي شيء وقمت بتنفيذ كل ما أمرني به مُعلِّمي وزيادة. وعندما حلّ المساء كان التعب قد بلغ مِنِّي مبلغه، إذ لم أكن أقوى على الوقوف على قدميَّ، ولم يكن ضرورياً قَطّ الذهاب إلى «أونجوران» في تلك الليلة. استلقيت جنب الخيمة بعد العشاء أنظر إلى النجوم في صفحة السماء فرُحْتُ في نومٍ عميق.

3- هي مجموعة معادن سيليكات تختص بكونها تتبلور في هيئة طبقات. تستخدم أحجار الميكا التي تتميز بأشكالها الجميلة وألوانها الجذّابة في أعمال الديكور والتشطيبات العالية الجودة. (المترجم).

4- صخر بركاني زجاجي خفيف، مساميّ تملؤه الثقوب. يدخل في كثير من مستحضرات الطلاء، ويستخدم في الحمامات لإزالة الأوساخ أو الجلد بالفرك. (المترجم).

استيقظتُ بعد منتصف الليل فزعاً. لم يكن الأُسطى «محمود» موجوداً في الخيمة. خرجت إلى العراء ورحت أسير تحت جنح الليل خائفاً. بدا لي العالم كأنه مكان غير آهل بالسكان، أو لكأنه أُفرغ من ساكنيه ولم يبقَ فيه أحد من الأحياء غيري. يقشعر بدني كله من هذا التصوّر المبهم المصدر مثله مثل الريح المجهولة التي تهب من اتجاه غير معلوم. وعلى الرغم من ذلك كانت كل الأشياء ترفل بجمال ساحر. كنت أشعر بأنّ النجوم المعلقة في السماء تقترب مِنِّي، وأن حياةً في غاية السعادة في انتظاري. تُرى هل المرأة ذات الشعر الأحمر هي التي طلبت إلى «تورجاي» أن يدخلني إلى المسرح؟ أين هو الأُسطى «محمود» في هذه الساعة؟

هبت نسمة أخرى أقوى من سابقتها فدخلت الخيمة.

حينما استيقظت في الصباح كان الأُسطى «محمود» حاضراً. لمحت علبة سجائر أخرى جديدة. في ذلك اليوم اشتغلنا من الصبح إلى حلول المساء ولكننا لم نحفر الكثير. قعر البئر آخذ في الابتعاد ويبدو ملبّداً بالغبار. كنت ساهماً أفكر أننا ربما لن نجد الماء. بعد استراحة الغداء استحممنا، وسكب كل واحد منا الماء لصاحبه. وجدت نفسي أنّي لا أسترق النظر إلى جسده العاري بل أنظر بشكل عادي جدّاً. أتأمل بشرته الذابلة ذات التجاعيد الكثيرة، وعلى الرغم من أنّه كان ضخم الجثة فإنه كان ضعيفاً في الواقع، تنتشر على جسمه جروح كثيرة وندوب مزرقّة.

كنت أتمنى ألّا يذهب الأُسطى «محمود» إلى «أونجوران» في ذلك المساء لكي يتسنى لي أن أزور خيمة المسرح لوحدي. ولكن عندما حان الوقت انبرى قائلاً: «عليّ أن آخذ سجائر» وسبقني سالكاً طريق البلدة. بينما كنّا نجلس في مكاننا نفسه في مقهى «الروميلي» كنت متوتراً لا أدري ماذا أفعل. في الساعة الثامنة والنصف نهضت من مكاني ودلفت إلى شارع المطاعم. تخيلت أنّه سيكون من الأفضل لي لو أنّني حظيت بفرصة اللقاء بالمرأة ذات الشعر الأحمر في البار، والتحدث إليها قبل

بدء العرض المسرحي، ولكن لا هي ولا أخوها كانا هناك. أحدهم كان جالساً في مكانهم المعتاد نفسه، لوّح لي بيده وقال:

«من تبحث عنهم غير موجودين هذا المساء. تعال إلى الباحة الخلفية للخيمة في تمام الساعة التاسعة وخمس دقائق».

للوهلة الأولى أصبت بخيبة أمل ذلك لأنّي فهمت الكلام على أن الرجل قال لي: «إنهم غير موجودين في المسرح أيضاً». جلست إلى المنضدة وكأن هؤلاء هم أصدقائي، وقد قاسمتهم هذه المائدة قبل هذا، سحبت الكأس الفارغة التي كانت أمامي وضعت فيها ثلجاً، ثم ملأتها بالعرق إلى حد شفّتها، وأفرغتها في جوفي على وجه السرعة مثل أيّ لص.

خرجتُ من البار وأخذت أسلك الشارع الخلفي حرصاً مِنّي على ألّا أتراءى للأُسطى «محمود»، ثم توجهت صوب الخيمة. في الساعة التاسعة وخمس دقائق. فيما كنت أنتظر خلف الخيمة خرج أحدهم مسرعاً وأخذني إلى الداخل.

كانت اللعبة قد ابتدأت وكان هنالك نحو ثلاثين مشاهداً في الخيمة، أو أكثر من هذا الرقم بقليل. فقد كانت الظلمة طاغية ولم أكن أميّز ظلال الأشخاص المنزوين في الظلمة. فالمنطقة المرتفعة في الوسط وحدها كانت مضاءة بكثير من المصابيح الأنبوبية العارية، وهذا ما كان يضفي على خيمة الأساطير المثالية جوّاً سحريّاً.

كانت الخيمة من الداخل لازوردية اللون مثل الليل، رُسمت عليها نجوم صفراء كبيرة. بعضها كان لها ذيول مثل النجوم المذنبة، والبعض الآخر منها كان صغيراً وبعيداً. يخيل لي أن هذه السماء المرصعة بالنجوم التي نصبنا تحتها خيمتنا ستظل تتماهى في ذاكرتي لمدة سنوات مع السماء الموجودة داخل خيمة الأساطير المثالية، وسوف تتبادلان موقعيهما بين الحين والآخر.

لقد امتزج العرق الذي شربته بدمي، ويبدو أنّه قد أدار رأسي. لم أكن أتصور أن المشاهد التي رأيتها تلك الليلة في الخيمة على مدى ساعة

واحدة، وكانت تتماثل مع حكاية أوديب، التي قرأتها وما زلت أتذكرها، أنها قد تساهم في تحديد معالم بعض الجوانب في حياتي على نحو عشوائي. فلم تكن متابعة ما يجري على المسرح ذات بال عندي وحسب بل، لم أكن أفكر بأي شيء غير رؤية المرأة ذات الشعر الأحمر. سأحاول أن أروي ما رأيت من مشاهد في ذلك اليوم، برأس ثمل ذهب لبّه مع دخان الخمر، مقارناً إياها مع الأبحاث التي أجريتها، موحداً كل ذلك مع ما تعلمته من قراءة الكتب:

مسرح الأساطير المثالية كانت واحدة من الفرق المسرحية الجوالة، التي ظلت محافظة على تقاليدها في تقديم عروضها تحت مسمى المسرح الشعبي الثوري، والتي نشطت في الأناضول في الحقبة الواقعة بين أواسط السبعينيات وبداية الانقلاب العسكري في 1980. ولكن برامج عروضهم كانت تحتوي على قصص تحكي عن حياة الشعراء الجوالين وعلى حكايات مستمدة من المسائل الصوفية الإسلامية وعلى قصص شعبية وملاحم أكثر مما تقدم مشاهد مناهضة للرأسمالية. بعض هذه العروض لم أستطع استيعابها على الإطلاق. عندما دخلت إلى الخيمة لأول وهلة رأيت أنهم يقدمون فقرات قصيرة يقلدون فيها بسخرية مقاطع من إعلانات تلفزيونية يتابعها الناس بشغف. في إحداها ظهر على المسرح فتى ذو شوارب يرتدي بنطالاً قصيراً، يحمل علبة صغيرة لتوفير النقود. سأل جدته المحدودبة الظهر ماذا تصنع بنقودها؟ فأجابته الممثلة (أعتقد أنها كانت والدة المرأة ذات الشعر الأحمر) بحركة لا أخلاقية أثارت ضحك الجميع، وكانت تسخر من ذلك الإعلان.

التمثيلية الثانية لم أفهم مغزاها كما ينبغي، لأن المرأة ذات الشعر الأحمر دخلت المسرح، بتنورتها القصيرة التي انحسرت عن ساقين طويلتين وجميلتين. كانت رقبتها وذراعاها مكشوفة أيضاً. كانت ساحرة وجذَّابة وقد كحّلت عينيها بخطوط واضحة ودهنت شفتيها الجميلتين المدوَّرتين بلون أحمر شفاه يلتمع تحت الإنارة. وما راعني إلّا أن

تناولت إحدى علب مسحوق الغسيل، وراحت تتكلم ساخرة من إعلان كان يظهر على شاشة التلفزيون، ويجيبها ببّغاء ملوّن بالأخضر والأصفر. بدا لي أن الببغاء ملقَّن بالكلام الذي يردِّده، أو ربما كان هنالك ممثل يقلّد صوته من خلف الكواليس. المشهد في الغالب كان يجري في مكان أشبه بمحلّ للبقالة، ويقوم الببغاء بممازحة الزبائن. يتحدث عن الحياة والحب وعن الفلوس ويُضحِك الجميع. لوهلة ما تصورت أن المرأة ذات الشعر الأحمر تنظر إليّ فتسارعت نبضات قلبي. كانت ابتسامتها رائعة. يداها الصغيرتان كانتا تتحركان بسرعة. وجدت نفسي واقعاً في حبّها، وبتأثير الكحول الذي تناولته لم أكن أستوعب تماماً ما كان يجري على خشبة المسرح.

الفقرة التمثيلية الواحدة كانت تستغرق بضع دقائق تليها فقرة أخرى جديدة. وبعد سنوات وجدت مصادر بعض هذه الفقرات إما في الكتب وإما في الأفلام. في إحدى تلك الفقرات ظهر الرجل، الذي كنت أظن أنّه أبو المرأة ذات الشعر الأحمر، بأنف طويل من الجزر. ظننت أول الأمر أنّه «بينوكيو» ولكنني بعد سنوات طويلة اكتشفت أن ما قرأه الرجل كان حواراً مطولاً من كتاب «سيرانو دي بيرجراك»[5] هي تمثيلية قصيرة مفادها «أن جمال الروح أهم من المظهر الخارجي». ثم مُثّلت فقرة أخرى كان الممثل فيها يحمل كتاباً أو كانت تستخدم فيها جمجمة أو شيء من هذا القبيل، ربما كانت الفقرة مستمدة من «هاملت». وبعد أن تكرّرت فيها جملة: «تلك هي المسألة، أن تكون أو لا تكون»، قام الممثلون جميعاً بترديد أغنية تؤكد أن الحب خدعة، وأن المال هو أكثر الحقائق واقعية. وفي هذه الأثناء حاولت المرأة ذات الشعر الأحمر بشكل واضح أن تواجهني وجهاً لوجه أو عيناً بعين. كانت تخلب لبي

5- سيرانو دي بيرجراك: مسرحية للكاتب الفرنسي «أدموند روستان» عن شخصية بالاسم نفسه. كان دميماً كبير الأنف. ضخامة حجم أنفه كانت عقدة مستعصية في حياته؛ حيث كان الآخرون يسخرون منه وهو لا يطيق ذلك، فكان النزاع بينهم ينتهي عادةً بمبارزة، ويخرج «بيرجراك» منها منتصراً. (المترجم).

وتعطل تفكيري، ولم أكن أفقه شيئاً من كلامها ولا أفهم ماذا يجري، ولكن ما كان يقدم على خشبة المسرح من مشاهد تمثيلية وحكايات وقصص مثلها مثل نظرات المرأة ذات الشعر الأحمر، تطبع في ذاكرتي كالنقش على الحجر.

الحكاية الوحيدة التي فهمتها في أثناء ذلك كانت قصة النبي إبراهيم، لأن فيها حكمة لأجلها اتخذ عيد الأضحى عيداً، وقد تداولناها في المدرسة مراراً. وفي ذات مرّة قصّها عليّ أبي. الممثل الذي كان يؤدي دور النبي إبراهيم – هو الرجل الذي اعترضني لدى قاطع التذاكر ومنعني من الدخول – تضرع إلى الله أن يرزقه ولداً. بعد ذلك رزق بمولود «وكان هذا المولود دمية» وما هي بضع دقائق حتى كبر الولد. الممثل طرح الولد أرضاً، ثم استل سكينا وأراد أن يذبحه. أخذ يردد كلاماً على الملأ عن الأبوة والبنوة وعن الطاعة، بدا تأثيره القوي والجلي على الحاضرين حتى ساد الصمت في الجوار.

ظهرت المرأة ذات الشعر الأحمر بملابس مختلفة وهي تسحل دمية هي عبارة عن خروف. ظهورها كسر حاجز الصمت. إنها الآن ملاك. لها أجنحة صنعت من الورق المقوى، عُمِل لها مكياج يليق بدورها. أنا أيضاً أخذت أصفق لها مثلما فعل الحاضرون.

كان المشهد الأخير من القوة بمكان يصعب نسيانه. وقد علمت ما هو المغزى من هذا المشهد، فإنني لم أفهم ما هي القصة، إذ ظهر اثنان من الممثلين جاءا إلى وسط المسرح يرتديان ملابس حديدية مثل المحاربين الفرسان القدماء، مدججين بالدروع والسلاسل الحديدية. يخفيان وجهيهما بقناعين معدنيين. استل كل واحد منهما سيفه البلاستيكي وأخذ يقاتل غريمه، بينما كان مكبر الصوت يبث مؤثرات صوتية، هي أصوات ارتطام السيوف والدروع بعضها ببعض. كان الفارسان يتقاتلان ثم يتوقفان ليكلم الواحد منهما خصمه، ومن بعد ذلك يستأنفان القتال مرّة أخرى. الممثلان اللذان كانا داخل البذلتين المدرعتين هما

«تورجاي» والآخر هو ذلك الكهل الذي ظننت أنّه أبو المرأة ذات الشعر الأحمر. وما هي إلّا لحظات حتى اشتبكا ثانية واصطدما صدراً بصدر، ثم أمسك الواحد منهما بخناق الآخر، وأخذا يتدحرجان على الأرض وأخيراً انفكّ الاشتباك بينهما.

جمهور المشاهدين وأنا واحد منهم دبّ الهياج بيننا حين تمكن الكهل من الفارس الشاب وطرحه أرضاً بضربة واحدة. ثم جثا على صدره واستل سيفه ليغرسه في قلبه. جرى كل ذلك على وجه السرعة وبشكل مخيف حتى إننا نسينا أن السيف كان مصنوعاً من البلاستيك، وما يجري هنا أمامنا ما هو إلّا تمثيل مسرحي.

أطلق الفارس الشاب المضرج بدمائه صيحة ولكنه لم يكن قد لفظ أنفاسه بعد. بدا أنّه يريد أن يتكلم. اقترب إليه الفارس الكهل مزهوّاً بتحقيق النصر عليه وكشف عن قناعه «إنه الرجل نفسه الذي كنت أعتقد أنّه أبو المرأة ذات الشعر الأحمر» حين رأى الحلقة التي كانت في معصم الشاب المشرف على الموت اضطربت أحواله واعترته الدهشة. أزاح القناع عن وجه الفارس «لم يكن تورجاي بل كان ممثلاً آخر» فارتدّ بألم وحزن مؤدياً بعض الحركات المبالغ فيها، والتي تفيد بأنّ هنالك خطأ ما قد حدث بالفعل. بدت على الرجل علامات الذهول والحزن الشديد. نحن الجمهور الذي كنّا نقهقه قبيل قليل على تندّرهم بالإعلانات التلفزيونية لُذنا بأذيال الصمت احتراماً للحدث الأليم الذي يجري أمامنا، ولأن المرأة ذات الشعر الأحمر كانت تبكي.

جلس الفارس الكهل على الأرض وعانق المحارب الشاب، ثم احتضنه وأخذ يبكي بحرقة، جعلنا نحن المشاهدين نتأثر تأثراً بالغاً لبكائه وندمه على ما حصل.

أنا الآخر انتقلتْ إليّ عدوى الشعور بالندم. لم أر هذه المشاعر مجسدة بشكل واضح في السينما أو على صفحات الروايات المصورة كما تمثل الآن. بالنسبة إليّ، وإلى ذلك الحين كان بالإمكان التعبير عن

الأسف بالكلمات فقط، أما الآن فإنني أشارك أحزان الندامة التي تتجسد على المسرح، فهذه المشاهد التي أشاهدها كأنها ذكريات من حياتي قد عشت تفاصيلها ومِن ثَمَّ نسيتها.

كانت المرأة ذات الشعر الأحمر تقف خلف هذين الممثلين وتشعر بحزن عميق من أجلهما. كما كانت تحس بالندم إزاء كل الرجال الذين يريدون قتل بعضهم بعضاً. أخذت تبكي بحرقة من أجلهم، ومن أجل كل أولئك الرجال الذين كانوا ربما يؤلفون عوائل مثل جميع المحيطين بها. كان الصمت قد فرض سطوته على خيمة المسرح هذه فلم يكن يسمع أيّ صوت سوى صوتها. فتحوّل بكاؤها إلى مرثية وما لبثت المرثية أن تحوّلت إلى قصيدة شعرية. قصيدة مؤثرة وطويلة مثل أيّ حكاية. كنت أصغي لحوارها الأخير المطوّل وهي تتحدث عن الحياة بغضب وعن الرجال ومعاناتها معهم.

كنت أصغي إلى كلام المرأة ذات الشعر الأحمر، أما هي فكان من الصعب عليها أن تميّز وجهي في الظلام. ولأن عينينا لا تلتقيان لم أكن أفقه ما تقول، ولهذا السبب أيضاً كنت أنسى كلامها. شعرت برغبة جامحة في التحدث إليها، والتقرب إليها. عندما انتهى حوارها الشعري المطوّل انتهت المسرحية أيضاً، وتفرّق جمهور المشاهدين في لحظات.

-18-

بعد أن غادرتُ خيمة المسرح كانت قدماي تأخذانني إلى الخلف، فرأيت المرأة ذات الشعر الأحمر جوار المنضدة التي كانت تستخدم كشباك تذاكر. كانت قد نضت ما كانت ترتدي من زيّ على المسرح وظلت محتفظة بملابسها العادية التي كانت ترتديها في الشارع، وهي تنورة سابغة زرقاء مائلة إلى البنفسجي الغامق.

زادت الخمرة التي دارت في رأسي من ابتعادي عن الواقع الذي كنت أعيشه، وتحت تأثير ما شاهدته على خشبة المسرح في تلك الأمسية الغابرة، ظننت أنّني متوغل في الماضي أو أنّني أعيش في واحدة من خيالاتي المبعثرة التي صنعتها بنفسي.

«هل أعجبتك مسرحيتنا؟»، سألتني المرأة ذات الشعر الأحمر وهي تبتسم. «شكراً لتصفيقك».

«أعجبتني كثيراً»، قلت مستمدّاً شجاعتي من ابتسامتها العذبة.

الآن وبعد مضي عشرات السنين أردت أن أخفي اسمها عن القُرّاء بدافع الغيرة، ولكنني سأروي القصة كاملة وبكل أمانة، مثلما قطعت عهداً على نفسي بأنّ أكون صادقاً. لقد تعارفنا ونطق كل واحد منا باسمه مثلما يفعل الأمريكيون في أفلامهم:

«جيم».

«كول جيهان».

«كنتِ تمثلين بشكل جيد جدّاً». قلتُ: «في أثناء العرض كنت أتابعك أنتِ».

أجهدت نفسي حين كنت أخاطبها بصيغة ضمير المتكلم «أنتِ»[6] لأنها بدت لي أكبر سنّاً مما كنت أظن، وأكبر مما كنت أتصور حين أراها من بعيد.

سألتني:

«كيف يجري الشغل في البئر؟».

قلت:

«أحياناً أعتقد جازماً أننا لن نجد الماء».

كنت أستطيع أن أبوح لها بمكنون مشاعري قائلاً لها: «في الواقع أنا باقٍ في أونجوران من أجلكِ أنتِ»، فإنني فكرت أنها يمكن أن تنفر مِنّي.

قالت المرأة ذات الشعر الأحمر:

«بالأمس مُعلِّمك أيضاً كان هنا في الخيمة».

«من؟!».

«الأُسطى محمود! إنّه واثق من العثور على الماء. هو الآخر أعجبته خيمتنا والمسرحية التي نمثل. قطعنا له تذكرة، وقد دفع ثمنها».

«في الحقيقة لم يشاهد الأُسطى «محمود» أيّة مسرحية طيلة حياته». قلت بدافع الغيرة منه: «ذات مرّة تحدثت له قليلاً عن أوديب وعن سوفوكليس فغضب مِنّي. كيف تمكنتم من إقناعه؟».

«هو محق في ذلك! فالتمثيلية اليونانية لا تلقى رواجاً في تركيا».

هل كانت المرأة ذات الشعر الأحمر تتعمد إيقاظ شعور الغيرة في نفسي تجاه الأُسطى «محمود»؟

قلت:

«ولكنه كان يثور غضباً لفكرة زواج الابن من أمه».

«البارحة في نهاية المسرحية عندما قَتَل الأبُ ابنه لم يغضبْ...»، قالتها المرأة ذات الشعر الأحمر: «أما الحكايات والأساطير القديمة فقد راقت له».

6- مخاطبة المقابل بصيغة الجمع تأكيد للاحترام. (المترجم).

ترى هل التقت مع الأُسطى «محمود» بالأمس بعد نهاية المسرحية؟ أكاد لا أصدق أن الأُسطى «محمود» ذهب إلى المسرح من ورائي، بينما كنت أنا مستغرقاً في النوم في ذلك المساء. تركني نائماً في الخيمة ونزل إلى «أونجوران» مثل الجنود الذين يتمتعون بإجازة النزول إلى البلدة أيام الآحاد.

«في الواقع أن الأُسطى محمود قاسٍ معي» قلت: «إنّه لا يفكر بأي شيء سوى العثور على الماء. لو عرف بقدومي إلى هنا هذا المساء لغضب عليّ».

قالت المرأة ذات الشعر الأحمر:

«لا بأس لا تقلق، أنا سأكلمه».

بكلامها هذا صبَّتْ الزيت على نار الغيرة التي كانت تشتعل في قلبي. شعرت بأنّ لساني قد عقد ولا أستطيع النطق. بدأت أفكر، هل تربطهما علاقة صداقة؟

المرأة ذات الشعر الأحمر سألتني:

«هل مُعلِّمك يكثر من إصدار الأوامر؟ هل هو قاسٍ معك؟».

«على العكس أظن أنّه يحميني، ويشملني بعطف أبويّ حيناً، ويتصرف كصديق حيناً آخر. لكنه في الوقت نفسه يطلب إليّ أن أطيع أوامره دوماً».

«عليك أن تطيعه، أطعْه! ماذا سيحدث إذا أطعته؟»، قالت المرأة ذات الشعر الأحمر وهي تبتسم بعذوبة: «أظن أنّه لا يجبرك على أن تكون صبيّا لديه... هل تعاني عائلتك من ضنك العيش؟».

ترى هل تحدث الأُسطى «محمود» إلى المرأة ذات الشعر الأحمر عني، وعن عائلتي، وكوني سيداً صغيراً فيها؟ ربما تكلّم عن حياتي بالتفصيل!

«لقد تركنا أبي!»، قلتُ.

«يبدو أن أباك لم يقم بواجب الأبوّة تجاهك»، قالت المرأة ذات

الشعر الأحمر، «عليك أن تجد لنفسك أباً غيره. فكل واحد هنا في هذا البلد له أكثر من أب، مثل، الدولة الأب، الأب القدس، الباشا الأب، أبو المافيا... هنا لا أحد يستطيع الاستمرار في العيش بلا أب».

أستطيع أن أجزم الآن بأنّ هذه المرأة تتمتع بدرجة كبيرة من الذكاء إلى جانب جمالها الأخّاذ. قلت:

«كان أبي ماركسيّاً... (لم أقل لها لماذا كان ماركسيّاً). تعرَّضَ للتعذيب في أثناء التحقيق. سُجِنَ لسنوات عندما كنتُ أنا صغيراً».

«ما اسم أبيك؟».

«آكن جليك! ولكن اسم صيدليّتنا لم يكن صيدليّة جليك بل صيدليّة الحياة».

استغرقت المرأة ذات الشعر الأحمر في تفكير طويل، منطوية على نفسها. لائذة بالصمت. لا أدري لم أثر عليها كل هذا؟ ربما كنت على خطأ. قد تكون متعبة، لذلك غرقت في أفكارها. في حين رحتُ أحدّثها عن أبي الذي كان يسهر في «صيدليّة الحياة» الخافرة، وكيف كنت أحمل إليه عشاءه وعن سوق «بشيكتاش». كانت تصغي إلى كلامي جيداً، لكنني لم أكن أحبّذ الكلام عن الأسطى «محمود» مثلما كنت أتحاشى الحديث عن أبي.

أقلعنا عن الكلام حيناً. حتى بادرت هي إلى القول:

«أنا وزوجي نعيش هناك!»، قالتها وأشارت إلى البناية التي كنت أمرُّ من أمامها مراراً لكي أنظر إلى نوافذها.

لقد كُسِرَ قلبي. غضبت وبدأت أشعر وكأنّي مخدوع. على الرغم من تلاعب الخمرة في رأسي كان باستطاعتي أن أتصور أن امرأة مثلها، وفي هذا العمر، تعمل في فرقة مسرحية جوالة تجوب تركيا مدينة فمدينة، لا يمكن إلّا أن تكون متزوّجة. لِمَ لَمْ أفكر بهذه المسألة قبل هذا؟

«في أيّة شقّة تسكنون؟».

«شبابيكنا لا تُرى من الخارج. نعيش في الطابق الأرضي من بناية تعود إلى شخص ماوي[7]. «تورجاي» ووالداه يسكنان فوقنا. شبابيكنا مطلّة على الحديقة الخلفية. قال لي «تورجاي» إنك تنظر إلى شبابيكنا حين تمرّ من أمام المبنى».

ارتبكت وشعرت بالخجل بسبب افتضاح أمري، بينما كانت المرأة ذات الشعر الأحمر تبتسم بحيوية، وتبدو شفتاها المكتنزتان أكثر جاذبية.

«عمتِ مساءً» قلت لها، «كانت مسرحية جميلة».

«لا، دعنا نتمشى إلى هناك ونرجع. قلقت على أبيك».

يتوجب عليّ أن أزيد المهتمين بقصتي هذه علماً بأنني في تلك السنين، إذا قالت امرأة ما، وهي بعمر الثلاثين أو ما يربو على ذلك بقليل، امرأة متبرِّجة (حتى وإن كان ذلك التبرُّج قد وُضع من أجل مسرحية) أيّة امرأة كانت! بفستانها اللازوردي الرائع وشكلها الجذّاب، وفي الساعة العاشرة والنصف ليلاً، إذا طلبت إلى أيّ رجل قائلة: «لنتمشَّ قليلاً في الحارات»، كان لذلك معنىً واحد لا غير، مع الأسف، لدى أغلب الرجال. بطبيعة الحال أنا لم أكن من صنف أولئك الرجال، بل كنت طالباً إعدادياً. فتىً أهوج لا يستطيع إخفاء حبّه الصبياني. أما هي فكانت امرأة متزوّجة. والمكان الذي نحن فيه منطقة «روملي»[8] أيْ أننا في أوروبّا، ولسنا في أواسط الأناضول، أيْ لسنا في آسيا. ثمّ إنّ ذهني كان مفعماً بأخلاق سياسيّة يسارية، مثلي مثل ولدٍ كان على سرّ أبيه.

بينما كنّا نفكر أننا نمشي من دون أن نتكلم، مشينا لمسافة ما والواحد منا لا يكلّم الآخر. لم تكن الزوايا المظلمة حالكة الظلام، وسماء بلدة «أونجوران» خالية من النجوم، وكان أحدهم قد جاء بدراجته وركنها عند تمثال أتاتورك.

7- نسبة إلى الزعيم الصيني الراحل «ماوتسي تونغ». (المترجم).

8- روملي: بلاد الروم. تسمية كانت تطلق على القسم الواقع في أوروبّا من إسطنبول. (المترجم).

سألتِ المرأةُ ذات الشعر الأحمر:

«هل كان يتحدث إليك عن السياسة؟».

«من؟».

«هل كان أبوك يدعو أصدقاء السياسة إلى البيت؟».

«أبي لم يكن يتواجد في البيت كثيراً. أمّي وأبي كذلك لم يرغبا بتدخُّلي في السياسة».

«أبوك لِمَ لَمْ يصنع منك يساريّاً؟».

«أنا سأكون كاتباً...».

«ستكتب مسرحية لنا أيضاً». قالتها وهي تبتسم على نحو ساحر. بدت الآن أكثر مرحاً وجاذبية وأكثر استعداداً للإغواء، «مسرحية بمستوى حواراتي الأخيرة. أتمنى أن تؤلف كتاباً، يُسلّط فيه الضوء على مسيرة حياتي».

«ذلك الحوار الأخير لم أفهمه جيداً، هل عندكم نصُّه؟».

«لا! أرتجل تلك الحوارات بشكل آني. وأحياناً يأتي الحوار بتأثير كأسٍ من العرق».

«في الواقع أفكر أن أكتب مسرحية»، قلتها ببلاهةِ طالبِ ثانوي أودت بعقله نوبة من الغرور. «ولكن يتوجب عليّ أن أقرأ كتب المسرح، وأول كتاب كلاسيكي سأقرؤه هو الملك أوديب».

ظلام الليل كان يغطي على فقر بلدة «أونجوران» ومدى الإهمال الذي تعاني منه، ساحتها تبدو حميمية في هذه الليلة التمّوزية مثل الذكريات، والمنظر برمّته يتراءى تحت تأثير الأضواء البرتقالية الباهتة مثل مَعْلَمٍ ذي أهمية يستحق أن يُطبع على بطاقات المعايدات. هنالك سيارة جيب عسكرية دارت ببطء في الساحة وكشفت أضواؤها الأمامية عن وجود عصابة من الكلاب تنتظر في ركن من أركان الساحة.

«أولئك يبحثون عن المتسربين ومثيري الشغب، والهاربين». قالتها المرأة ذات الشعر الأحمر وأردفت: «جنود هذه المنطقة غير متأدبين».

«ألا تقدمون لهم عروضاً خاصة أيام السبت والآحاد؟».

«علينا أن نكسب المال...». قالتها وهي تنظر في عيني مباشرةً، «نحن فرقة تمثيل شعبية ولا نقبض رواتب مثل الفرق المسرحية التابعة للدولة».

دنت مِنِّي لتأخذ سويقَ تبن كان عالقاً على ياقتي فأحسست ببدنها وساقيها ونهديها قريبين مِنِّي كل القرب.

قطعنا الكلام وعدنا من دون أن ننبس ببنت شفة. فيما كنّا تحت أشجار اللوز نظرت إلى عينيها فبدتا لي أنهما تحولتا من اللون الأسود إلى الأخضر. شعرت أن غيظاً مفرطاً يعتمل في داخلي. بدأت تتراءى لي من بعيد تلك البناية التي أمضيت الشهر الأخير أراقب شبابيكها.

«يقول زوجي إنك مولع بشرب العرق في هذه السن»... قالت ثم سألتني: «هل أبوك أيضاً يشرب؟».

أومأت برأسي مجيباً عن سؤالها «نعم»، وفي الحقيقة كنت مشغول البال أفكر، متى وأين جلست مع زوجها إلى منضدة شرب. لم أتذكر هذه الصحبة. ولم أكن أجرؤ على السؤال فقد كنت أفضل وأخطط أن أنساهم بقلب منكسر. كنت أتألم منذ اللحظة، ألمي كان ألماً طفولياً، ذلك أنّني كنت سأفترق عنها، لن أراها بعد انتهاء العمل في البئر. كان هذا الألم أفظع من انكشاف أمري في مراقبة شبابيك المبنى الذي يسكنون.

توقفنا على بعد مائة متر عن المبنى، تحت أشجار اللوز. لا أدري أأنا الذي وقفت أولاً أم هي؟ لم أعد قادراً على التفكير. كنت أجدها لبيبة وحميميّة. عندما كانت تنظر في عينيَّ وألمح تلك التعابير القوية، المفعمة بالتفاؤل ابتسمت لي بعذوبة وحنان. فراودني الشعور بالندم ذاته، الذي أحسست به عندما كنت أتابع المشهد الحزين بين الأب المحارب، الفارس الحزين وابنه.

قالت:

«تورجاي في إسطنبول هذا المساء، إذا كنت تحب الشرب مثل أبيك تعال لأعطيك كأساً من مشروبه الخاص».

«أكون شاكراً». قلتُ، «وأتعرف على زوجك».

«تورجاي هو زوجي... قبل أيام جلستما للشرب، وقلتَ له أنْ أدخلني إلى العرض المسرحي...». قالتها وسكتت لوهلة لكي أتمكن أنا من هضم الكلام الذي أسمعتْني إياه. «لأنه متزوج من امرأة تكبره بسبع سنين، وبداعي الخجل يخفي «تورجاي» كوننا متزوّجَين. لا تأبه لأنه لم يزل يافعاً... إنّه يتمتع بعقل سليم، وهو زوجٌ جيد».

أخذنا نمشي من جديد.

«في حين كنت أسأل نفسي أين جالستُ زوجَكِ ومتى شربتُ معه».

«في ذلك المساء شربتما عرق «كلوب». توجد نصف قنينة منه في البيت. توجد قنينة كونياك للصديق الماويّ، هو الآخر سيعود قريباً، ونحن جميعاً سنرحل من هنا. سوف أشتاق إليك أيها السيد الصغير!».

«كيف؟».

«أنت سيد العارفين... أيامنا هنا انتهت».

«أنا أيضاً سأشتاق إليكِ».

كان جسدانا أقرب ما يكونان إلى بعضهما بعضاً لدى باب العمارة، جسدها يُسكِرني الآن ويدير رأسي. قالت وهي تخرج مفتاحها لتفتح الباب الخارجي:

«إلى جانب العرق عندنا ثلج وحمّص مسلوق».

قلت:

«لا داعي لكل ذلك، أنا على عجلة من أمري، ولا أستطيع المكوث أكثر».

فتحت باب العمارة ومررنا بمدخل ضيق ومظلم. في الظلام الدامس سمعتها تبحث عن المفتاح إياه في حلقة المفاتيح. بعد ذلك أشعلت قداحتها. وهي واقفة وسط الظلال المخيفة أخذت تبحث عن المفتاح. وجدته ثم وجدت القفل، فتحت الباب ودخلت.

أضاءت مصابيح المدخل والتفتت إليَّ: «ليس هنالك شيء نخاف منه» قالتها وهي تبتسم... «انظر، أنا بعمر أمّك».

-19-

تلك الليلة ولأول مرّة في حياتي أويت إلى الفراش مع امرأة. كانت مثيرةً للغاية ورائعة. ففي لمح البصر تغيّرت كل أفكاري عن نفسي وعن النساء. لقد علمتني المرأة ذات الشعر الأحمر معنى السعادة وكشفت لي عمَّن أكون أنا. كانت في الثالثة والثلاثين من عمرها، بمعنى أنها عاشت ضعف عدد السنين التي عشت، ولكن بدت أنها قد أفنت أضعافاً مضاعفة من السنين أكثر مِنِّي. يومها لم أعرْ فارق السنين بيننا أهمية تذكر. في حين كان هذا الفارق كافياً لجذب انتباه الأولاد في الزقاق وأصدقائي في المدرسة. وأنا أعيش تلك اللحظات أيقنت أنّني لن أبوح بأي تفاصيل عن علاقتي بها لأي كائن مهما يكن. فإذا ما ذكرت كل تلك التفاصيل لأثارت استغراب أصدقائي ولهتفوا بين الكلام مراراً: كذب.

كان جسدها مغرياً جدّاً تماماً مثلما كنت أتوقع، وكانت تمارس الحب بيسر وشجاعة ومن دون أيّ قيود، حتى إن قيامها ببعض الحركات المخجلة أضفى على الممارسة شيئاً مما قد يثير الاستغراب ولربما لا يصدق بها من يسمعني.

حينما غادرتُ «أونجوران» لم أكن أستطيع المشي بانتظام، كنت أترنح لأنني قضيت على محتوى قنينة «العرق» الخاصة بـ«تورجاي» وزدت على ذلك أنّني في اللحظة الأخيرة، وقبيل أن أغادر المكان، اكترعت كأساً مليئة من قنينة الكونياك التي تركها الخطاط الماويّ، أبو اللوحات، في مشغله. كنت سعيداً، أشعر بالانتشاء إذ كان يتسنى لي أن أرى الأحداث

من الخارج وأستطيع رؤية نفسي كما لو كنت في حلم، حتى خيّل لي أن هنالك شخصاً آخر غيري، يراني من الخارج وهو الذي يفكر بي.

بينما كنت أصعد منحدر المقبرة انتابني الخوف من الأُسطى «محمود» وفي الوقت ذاته شعرت بضرورة حماية أحاسيسي الدافقة إزاء تقريعاته التي لا بدّ أنها ستنهال عليّ. ثم إنّه من المحتمل أن يشعر بالغيرة مِنِّي. أردت أن أسلك طريقاً مختصرة تمر وسط إحدى تلك الأراضي التي كانت تلي المقبرة فتعثرت قدمي بأرومة شجرة مقطوعة وسقطت على العشب الوثير الناعم بحركة بطيئة. بقيت حيناً من الوقت مستلقياً أتأمل الألق هنا وهناك فوقي في أعالي السماء.

كان الكون مضيئاً وكل شيء في السماء على درجة كبيرة من الأبهة والجلال. لم هذه العجلة، لم كل هذا القلق؟ لِمَ كنت أخشى الأُسطى «محمود» إلى هذه الدرجة؟ إذا كان كلام المرأة ذات الشعر الأحمر صحيحاً فهو أيضاً قد دخل الخيمة الصفراء وتابع المسرحية. على أيّ حال كنت أشعر بالغيرة منه. لا أريد أن أصدق، وأريد أن أنسى أنهما ربما التقيا بعد مشاهدة العرض المسرحي. ومن جانب آخر كنت أشعر بأنّ كل شيء هو طوع أمري، وقد ازددتُ ثقةً بنفسي وبعد أن شاركت المرأة ذات الشعر الأحمر فراشها بتّ أشعر بأنّ مقاليد كل الأمور صارت بيدي. هذه البئر لن يخرج منها الماء، أما أنا فسأحصل على أجوري وأعود من حيث أتيت. سأذهب إلى مدرسة خاصة وأحصل على أعلى الدرجات للقبول في الجامعة. سوف أكون كاتباً، وستكون لي حياة خاصة بي أقبل بها، دائمة التألق مثل هذه النجوم التي تلتمع أمام ناظري، وأن مستقبلي واضح ومعلوم لي أكاد أراه. ربما كنتُ سأكتب الكثير عن هذه المرأة ذات الشعر الأحمر، ولربما سأؤلف رواية عنها.

خرّت نجمة. تمركزت كل حواسي بكل قوة على هذه السماء التموزية بينما كنت أشعر بعمق وأحسّ بالدنيا التي أراها أمام عيني تكاد تتطابق تماماً مع العالم الذي في رأسي. وكأنني فيما لو قُدِّرَ لي أن أقرأ كل هذه

الطلاسم لمنحني نظام النجوم كل أسرار حياتي. في الواقع كانت كل الأشياء جميلة ومن الروعة بمكان كأنها نجوم. وقد تأكَّد لي في تلك الليلة أنّني سأكون كاتباً. فكل الأشياء في العالم الخارجي توحَّدَتْ مع مثيلاتها في رأسي وصارت تكوّن معنى واحداً فقط. على الإنسان أن ينظر ويرى، وأن يفهم جيداً ما يرى ويعبّر عن ذلك بكلمات مُجرَّدة. كنتُ مفعماً بآيات الشكر إزاء المرأة ذات الشعر الأحمر.

هَوَتْ نجمةٌ أخرى. ربما أنا وحدي من رأى تلك النجمة حينما هوت. فكرت، إذن أنا موجود. هذا إحساس جميل. تكتكة حشرات زيز الحصاد، تك جيك تك جيك، تجعلني أعدّ النجوم 1، 2، 3، 5، 7، 11، 13، 17، 19، 23، 29، 31...

أحس بملمس الأعشاب على رقبتي وظهري، فأتذكر لمسات المرأة ذات الشعر الأحمر على بدني. كنّا قد مارسنا الحب في غرفة الضيوف، على إحدى كنبات طقم الديوان من دون أن نطفئ أيَّ واحدٍ من الأضواء. بدنها ذو اللون النحاسي الذي تغسله مصابيح الغرفة ومنظر نهديها المكتنزين لا يبارح مخيّلتي، أتذكر قبلاتها وشفتيها الممتلئتين، ولمساتها في أنحاء جسدي فتشتعل لديّ رغبة جامحة لمضاجعتها من جديد. ولكن هذا مستحيل لأن زوجها «تورجاي» سوف يعود غداً من إسطنبول.

أظهر «تورجاي» تقرّبه إليّ في أماسيَّ التي اقترنت بالوحدة في «أونجوران» وأخذ يمدّ معي جسور الصداقة بنوايا حميدة. أما أنا فماذا فعلت؟ قمت بخيانة صديقي في الليلة التي سافر بها إلى إسطنبول. مارستُ الحبّ مع زوجته الجميلة. رحت أبحث برأس ملبدٍ بدخان الأفكار عن حُجَج لتبرير تصرُّفي هذا، لكي أثبت نفسي لنفسي أنّني أهل بالثقة ولست سيّئاً أبداً. قلتُ في نفسي، حينما علمتُ أن المرأة ذات الشعر الأحمر و«تورجاي» متزوِّجان حقّاً، كان السيف قد سبق العذل. لم ألتقِ به سوى ثلاث أو أربع مرات، ثم إن عمر صداقتنا لا يبلغ أربعين سنة. وفي الحقيقة أن المسرحيين الرُّحّل الذين لا وطن ولا مأوى لهم

من أمثال هؤلاء، يرقصون للجنود ويقصُّون عليهم حكايات ماجنة ولا يقيمون وزناً للعلاقات العائلية. ربما يتحدّث الزوج منهم إلى زوجته عن تفاصيل أيّة مغامرة يخوضها، تورجاي هو الآخر ربما يخون زوجته مع أخريات غيرها، والمرأة ذات الشعر الأحمر قد تنقل تفاصيل الساعات التي قضتها معي إلى تورجاي، ولربما لا تفعل ذلك بل تنساني إلى الأبد بعد هذه العلاقة العابرة.

تملَّكتْني الكآبة واجترحَني الشعور بالندم منذ أن شاهدت مسرح الخيمة، ولا أدري كيف يمكن لتلك المشاهد التي قُدّمت على المسرح أن تدفعني إلى التفكير على هذا النحو. أما متابعة المسرحية نفسها من قبل الأُسطى «محمود» بحدّ ذاتها كانت تولّد لديّ النفور والغيرة منه. هما الاثنان، المرأة ذات الشعر الأحمر والأُسطى «محمود» هل التقيا خارج خيمة المسرح؟

كان وقع خطاي فوق العشب اليابس يقترب إلى خيمتنا الصغيرة، خيمة الحَفّارين المساكين. كم هي السماء واسعة، كم هو العالم فسيح وبلا حدود، ولكنني بعد قليل سوف أنكمش وأنزوي في ذلك المكان الضيق.

كان الأُسطى «محمود» نائماً. أردت أن آوي إلى فراشي من دون جلبة، سألني:

«أين كنت؟».

«أخذني النوم».

«تركتني لوحدي هناك جالساً إلى المنضدة... هل ذهبت إلى المسرح؟».

«لا».

«الساعة الرابعة الآن. نهار غدٍ كيف ستعمل في الجو الحار».

«كنت منزعجاً فقدّموا لي مشروباً كحوليّاً»، قلتُ، «كان الجو حارّاً، وأنا في طريق العودة استلقيت هناك أنظر إلى النجوم، نِمتُ. نِمتُ كثيراً».

«لا تكذبْ يا ولد! شغل البئر لا يحتمل هذا الهراء. نحن على وشك العثور على الماء».

لم أحر جواباً، خرج الأُسطى «محمود». بينما أنظر إلى النجوم عبر فتحة الخيمة كنت أظن أنّني سوف أستغرق في النوم وأنسى الأُسطى «محمود» ولكن عقلي ظل متعلقاً به.

لماذا سألني إن كنت ذهبت إلى المسرح أم لا؟ هل يمكنني القول إنّه يحسدني؟

هل من الممكن أن تتعلّق ممثلة على المسرح، امرأة مثقفة مثل ذات الشعر الأحمر، برجل قرويّ مثل الأُسطى «محمود»؟ ولكنها ليست مأمونة الجانب، ولهذا السبب وحده أغرمتُ بها.

خرجتُ من الخيمة ورحت أتابع الأُسطى «محمود». لم أصدق عيني، لقد كان يسير في هزيع الليل هذا صوب «أونجوران». أحسست بنار الغيرة تشتعل في داخلي، أشعر بحقد دفين لا حدود له. بالكاد كنت أمّيز ظل الأُسطى «محمود» تحت ومضات النجوم. بعد قليل خرج عن الطريق واتجه صوب شجرة الجوز. رأيته بشكل واضح حين أشعل سيجارته وجلس تحت الشجرة.

بعد أن تأكد لي أنّه لن يذهب إلى «أونجوران» سبقته إلى الخيمة ونمت. في تلك الليلة مراقبتي إيّاه من بعيد لم تغب عن خاطري لسنوات عديدة. أحياناً أرى فيما يرى النائم أن عيناً ثالثة نبتت لي، أتابع بها حركات الأُسطى «محمود»، وفي الوقت نفسه أراقب حالي عن بعد.

-20-

كما في كل يوم استيقظت في الصباح الباكر، أيْ عندما تدخل الشمس عبر فتحة الخيمة مثل سيف طويل أصفر. أكون قد نمت ثلاث ساعات على الأقل، ولكنني أشعر أنّني قد ارتحت جيداً، وبالأخص بعد تجربتي بالأمس مع المرأة ذات الشعر الأحمر أشعر بنفسي أقوى من أيّ وقت مضى.

«هل نمت بما فيه الكفاية، هل عقلك هنا في محله؟»، قالها الأُسطى «محمود» وهو يشرب الشاي.

«تمام يا مُعلِّم، أنا كالأسد».

لم نتكلمْ عن مجيئي في وقت متأخر ليلة البارحة.

قبل أيّ شيء نزل الأُسطى «محمود» إلى الأسفل كما اعتدنا أن نفعل في الأيام الأربعة الأخيرة. ويقوم بملء السطل الصغير بكيلات صغيرة من مجرفته ويصيح في أوقات متباعدة:

«اسحبْ!».

كان يشتغل في الأسفل بعمق خمسة وعشرين متراً ولكن المسافة بدت أبعد من ذلك. خيّل لي أنّه قابع في نهاية أنبوب من الخرسانة. أحياناً من شديد انبهار عيني تحت أشعة الشمس لم أستطع رؤيته في البئر. ينتابني القلق فأمّيل برأسي إلى البئر عسى أن أراه ثم أنسحب خوفاً من السقوط إلى الأسفل.

صار سحب السطل المليء إلى الأعلى صعباً جدّاً. فالحبل لا يستقيم،

وبينما يرتفع السطل إلى أعلى كان يترنَّح شمالاً ويميناً كأنما تعصف به ريح لا يعرف من أين تهبُّ، ويكاد يضرب حائط البئر. يومها لم نكن نفهم كنه هذه الحركة. لأنني كنت أقف فوق وأدير الرافعة لوحدي. لذا لم يكن بمستطاعي أن أرى السطل في الأسفل حين يرسم قوساً في ترنُّحه وصعوده. الأُسطى «محمود» وهو في مكانه في قعر البئر كان يزأر من الأسفل خشية أن يقع شيء ما على رأسه.

كلّما ابتعد الأُسطى «محمود» عن فوهة البئر وتضاءل حجمه كان يصرخ باستمرار وبصوت عالٍ. يتصادى صوته عبر أنبوب صُبَّ من الإسمنت ويصل إلى سطح الأرض وكأنه غوغاء. كلّما شعر بأنّي أتلكّأ حين آخذ السطل يصرخ، وعندما أذهب كي أفرغه، وهذا يستغرق وقتاً، يصرخ، إذا أُثير الغبار يصرخ، وعندما أعود لأدلي بالسطل داخل البئر يصرخ مُحذِّراً إيّاي لئلّا أوقع السطل على رأسه. كنت أشعر بالذنب على الدوام.

كنت أفكّر بالمرأة ذات الشعر الأحمر بشكل مستمر، بابتسامتها الرائعة، بقوامها الجميل وممارستها الحبّ بانفعال. التفكير بها بحدّ ذاته شيءٌ جميل. تُرى ماذا لو ذهبت عدواً إلى «أونجوران» في أثناء استراحة الغداء لرؤيتها؟

كنت أشكر الله لأنني فوق سطح الأرض ولكن عملي فوق، تحت أشعة الشمس الحارقة كان شاقّاً أكثر من شغل الأُسطى «محمود». الرافعة التي كنّا نديرها أنا وعليّ في السابق، تعلّمت قليلاً على إدارتها لوحدي، ولكن كانت قوايَ تخور بسرعة.

السطل المليء الذي كنت أسحبه إلى الأعلى بِشِقِّ الأنفس، بالكاد أتمكّن من وضعه على المسطّح الخشبي للرافعة. بالأمس كنّا أنا وعليّ نتعاون على إنجاز هذا الشغل معاً. عندما يصل السطل إلى آخر مستوى عند فوهة البئر كان عليّ أن أرفعه أكثر لأحرّره من الكُلّاب وآخذه على المسطح الخشبي بخفّة. كان هذا أصعب شيء بالنسبة للمرء إن كان وحيداً. في تلك الأثناء كنت أحمل السطل وأركنه جانباً بخفة من دون

أن أحرّره من الكُلّاب فتتساقط القواقع والحلزونات وقشور بلح البحر ورخويات متحجّرة من بين حبّات الرمل إلى الأسفل. وبعد ثوان يُسمع زعيقه وصراخه من الأسفل. سبق للأُسطى «محمود» أن تحدث عن أن قشور بلح البحر والأحجار الصغيرة يمكن أن تجرح حَفّار البئر، أما إذا سقطت بطلينوسات كبيرة على رأسه فيمكن أن تقضي عليه. لهذا السبب لم يكن الأُسطى «محمود» يملأ السطل كثيراً، وهذا بحد ذاته كان سبباً لإبطاء وتيرة العمل.

بينما كنت أحمل السطل المليء بالرمل المخلوط بقشور بلح البحر السوداء إلى العربة اليدوية لأفرغه في مكان بعيد كنت أتصبب عرقاً. وعندما أعود إلى البئر أسمع الغوغاء التي كان الأُسطى «محمود» يثيرها. لم أكن أفهم شيئاً من كلمات التأنيب، ومن صيحات التذمر التي تأتي من قعر البئر، كأنها كانت أنين كاهن شامانيّ[9] وصيحاته الغاضبة وهو يقاتل مسخاً من مخلوقات العالم السفلي، هو ما بين العمالقة والجان.

لأن رؤية السطل من ارتفاع يبلغ عُلوّ عمارة مكونة من عشرة طوابق، إن كان قد وصل إلى القعر تماماً أم توقف في منتصف المسافة كانت مستحيلة، ولاستحالة رؤية ذلك كنت أوقف الرافعة عن النزول أو أقفلها في تلك النقطة عندما أخمن أن السطل قد اقترب إلى الأمتار الأخيرة، وأنتظر أن يصيح مُعلِّمي: «أنزله قليلاً». لكم كان الأُسطى «محمود» صغيراً وعاجزاً في قعر البئر!

كانت قد انقضت ساعة واحدة مذ باشرنا بالعمل، شعرت بالدوار. ظننت أنّني سأسقط داخل البئر. بعد ذلك بقليل توقفت حين كنت أفرغ ما في العربة واستلقيت على الأرض. حتى وإن كانت تلك الوهلة هي عبارة

9- الشامانيّة: دين بدائي من أديان شمالي آسيا ينتشر في سيبيريا وأجزاء من اليابان وبعض مناطق أمريكا اللاتينية. يتميز هذا الدين بالاعتقاد بوجود عالم محجوب هو عالم الآلهة والشياطين وأرواح الأسلاف. وإن هذا العالم لا يستجيب إلّا للشامان، وهو كاهن يستخدم السحر لمعالجة المرضى ولكشف المجهول والسيطرة على الأحداث. (المترجم).

عن دقيقة واحدة فإني ربما رحت خلالها في إغفاءة. حين عدت إلى البئر واقتربت إلى الفوهة كان شخير الأُسطى «محمود» قادماً من تحت.

صحت إلى الأسفل: «ماذا هناك يا مُعلِّم؟».

قال: «اسحبْني إلى فوق!».

«ماذا؟».

«أقول لك اسحبْني إلى أعلى!». قالها وهو يصيح بأعلى صوته.

كان السطل ثقيلاً، ربما كان قد وضع إحدى قدميه داخله.

كان هذا العمل من أشقّ الأعمال عليّ، كان رأسي يدور، وأشعر بأنّ قواي تخور، لذلك كنت أرمي بنفسي على الرافعة وأتشبَّثُ بدفّتها. كنت أنتظر بفارغ الصبر متى يتخلّى الأُسطى «محمود» عن البئر ويعطيني مستحقاتي ويقوم بتسريحي. أول عمل سأقوم به بعد استلام أجوري وقبل كل شيء هو لملمة أشيائي والذهاب إلى المرأة ذات الشعر الأحمر للتعبير عن مدى حبي لها. سأقول لها إنّني متيم بحبّها، وما عليها إلّا أن تفارق تورجاي وتتزوّج بي. ماذا سيكون رأي أمّي في هذا الزواج؟ المرأة ذات الشعر الأحمر ستقول لي وهي ضاحكة: «أنا بعمر والدتك!». ربما في أثناء استراحة الظهيرة كنت سآخذ قسطاً من النوم لمدة عشر دقائق في ظل شجرة الجوز. كنت قد قرأت هذه المعلومة في مكان ما، إذا كنتَ متعباً جدّاً وأخذت إغفاءة خفيفة لمدة عشر دقائق تمنحك القوة أفضل من نوم ساعات طويلة. بعد ذلك كنت سأذهب إلى المرأةِ ذات الشعر الأحمر.

عندما ظهر رأس الأُسطى «محمود» عبر فوهة البئر ثُبْتُ إلى نفسي ولملمت شتاتها. حاولت إخفاء مدى ضعفي.

«لقد تباطأت كثيراً اليوم يا ولدي» قالها الأُسطى «محمود»، «انظر، أنا سأجد الماء هنا، عدني أنك لن تخرج عن طوع مُعلِّمك حتى نجد الماء، ولا تدع العمل يبطئ».

«حسنٌ يا مُعلِّمي».

«أنا لا أمزح».

«طبعاً يا مُعلِّمي».

«إن كانت هنالك في أيّ مكان حضارة، فذلك يعزى إلى وجود آبار. لا حضارة من دون ماء، ولا بئر من دون مُعلِّم. ومن لا يطيع مُعلِّمه لن يكون صبيَّ حَفّارِ بئرٍ قَطّ. عندما نكتشف الماء سوف نكون أغنياء».

«أنا إلى جانبك يا مُعلِّم حتى لو لم نكن أغنياء».

الأُسطى «محمود» نصحني كأيّ مُعلِّم طالباً إليّ أن أفتح عيني وأكون حذراً. تُرى هل كان يفكر أيضاً بإسداء النصح إليّ عندما كان يشاهد المرأة ذات الشعر الأحمر على المسرح؟ أسمع كلام مُعلِّمي وكأنني في حلم ولكنني أأبى أن أجيبه. لم أكن أشعر بجدوى ذلك. تراءى شبح المرأة أمام عيني ثانية. شعرت بالخجل.

«اذهبْ وبدّل قميصك»، قال الأُسطى «محمود»، «أنت ستنزل إلى الأسفل، هناك العمل أسهل بكثير».

«تمام يا مُعلِّم!».

-21-

الشغل الوحيد في قعر البئر هو تعبئة السطل بالتراب ذي الرائحة الكريهة، الذي يحتوي على عظام أسماك وقواقع وحلزونات وقشور بلح البحر، أيْ كشغل هو أسهل من العمل الشاق فوق، خارج البئر. فالصعوبة لا تكمن في حفر الرمل وملء السطل وإرساله إلى الأعلى وحسب، بل تكمن في البقاء على عمق خمسة وعشرين متراً تحت الأرض.

كنت خائفاً وأنا أهبط إلى البئر الآخذ في الإظلام شيئاً فشيئاً. إحدى قدميّ كانت في السطل الفارغ، يداي متشبثتان بالحبل بقوة، أنظر إلى جدار البئر المكسو بالخرسانة وقد تركت العناكب نسيجها على سطحه، أرى السحالي المضطربة تهرب صاعدة إلى الأعلى نحو الضوء. كان العالم السفلي كأنه يطلق تهديداته محذِّراً إيّانا لأننا وجَّهنا طعنةً نجلاء إلى قلبه بأنبوب إسمنتي. ففي كل لحظة من المحتمل أن يحدث زلزال وأدفن إلى الأبد في باطن الأرض. أحياناً كنت أسمع أصواتاً عجيبة وغمغمات مخنوقة تأتي من أعماق الأرض.

«جاء!». صاح الأُسطى «محمود» من فوق وهو يرسل السطل الفارغ باتجاهي.

عندما أرفعُ رأسي لأنظر إلى الأعلى تتراءى لي فوهة البئر بعيدة وضيقة بمكان يتملّكني الخوف ويدفعني إلى أن أصعد إلى الأعلى فوراً. ولأن الأُسطى «محمود» كان سريع الغضب فاقد الصبر كنت أملأ السطل على الفور بالرمل بعدد من كيلات المجرفة وأصيح: «اسحبْ!». أُسطى

«محمود» كان أقوى مِنّي بكثير، كان يدير الرافعة بسرعة ويسحب السطل إلى أعلى، يضعه على المسطّح الخشبي، يفرغه في العربة اليدوية ثم يعيد السطل إليّ إلى الأسفل.

كل هذا العمل كنت أتابعه من مكاني في الأسفل دون أن أحرك ساكناً غير أنّي طوال الوقت كنت أنظر إلى الأعلى، وما دمت أرى الأُسطى «محمود» فذلك يعني أنّني لست وحيداً هنا في العالم السفلي. وعندما يذهب مُعلِّمي ليفرغ السطل تبدو فوهة البئر كدائرة زرقاء صغيرة استقطعت من صفحة من السماء. ما أروعها من زرقة! وما أجملها! ولكنها كانت بعيدة كل البعد، كما لو كنت تنظر من الطرف الآخر من منظار مكبر.

بعد مرور وقت طويل حينما أرى الأُسطى «محمود» من جديد في الدائرة عند فوهة البئر صغيراً مثل نملة، يرتاح بالي، فأنتظر إنزال السطل إليّ. أضعه على الأرض أملؤه وأنادي إلى الأعلى: «تمام!».

حين يختفي الشبح الصغير لمُعلِّمي الأُسطى «محمود» ليفرغ التراب أو الرمل الموجود في العربة كانت تراودني هواجس شتى. أفكر ماذا لو تعثّرت قدماه ووقع في ورطة؟ أو إذا ابتعد عن فوهة البئر حيناً من الوقت بهدف تلقيني درساً وفرك أنفي؟ وإذا علم عن ليلتي تلك مع المرأة ذات الشعر الأحمر فهل سيعاقبني؟

كنت أملأ السطل بعشر كيلات من المجرفة، وبنفس العجالة أضرب بالمعول لأحفر قليلاً في العمق، وبعد وقت قصير لم أكن أرى شيئاً بسبب الظلام وإثارتي للغبار. كان التراب ناعماً وأبيض مثل الرمل. يبدو لي أنّه لن يخرج ماءٌ من هذا المكان. هنا ينتابنا الخوف ونمضي وقتنا بلا جدوى.

حالما أخرج من البئر سأذهب إلى «أونجوران» إلى المرأة ذات الشعر الأحمر. إنها تحبني. لا يهمني قَطّ ما يقوله «تورجاي». سوف أقص عليه كل شيء. ربما سيشبعني ضرباً أو يقضي عليّ. تُرى كيف

تستقبلني المرأة ذات الشعر الأحمر إذا رأتني قبالتها في عز النهار؟ كنت أحاول أن أهدئ من روعي وقلقي، فأسرع في العد «ثلاث كيلات» أملأ السطل وأرسله إلى الأعلى ثم ينتابني القلق مجدداً.

اعتاد الأُسطى «محمود» على التلكّؤ، وصار يتأخر في المجيء ولا يريني نفسه عند فوهة البئر، فتزداد الغوغاء التي أسمعها، أرفع رأسي وأنادي باتجاه الأعلى:

«يا مُعلِّم... يا مُعلِّم!» كانت الدائرة الزرقاء قد ابتعدت حتى صارت بحجم قطعة نقدية معدنية. تُرى أين هو الآن؟ بعد ذلك بدأت أصرخ بأعلى صوتي، حتى بان أخيراً عند فوهة البئر.

ناديته قائلاً:

«يكفي يا مُعلِّم، ارفعني إلى الأعلى!»، ولكنه لم يحر جواباً، بل وقف لدى الرافعة وسحب السطل المليء إلى أعلى. تُرى ألم يسمعني؟ وبينما ارتفع السطل إلى أعلى رويداً رويداً ظلّتْ عيناي شاخصتَين إلى فوق. وعندما وصل السطل إلى فوهة البئر ظهر الأُسطى «محمود» ثانية. إنّه بعيد عني كل البعد. مرّة أخرى صرخت بكل ما أوتيت من قوة ولكنه لم يسمعني.

انقضت مدة طويلة لا تطاق أخذت أتصور الأُسطى «محمود» وأقول إنّه الآن يسوق العربة اليدوية باتجاه البرية، ويفرغ محتواها من الرمل والتراب هنالك في العراء، والآن يعود أدراجه، ولا بدّ أنّه وصل الآن إلى مقربة من البئر، ولكنه لم يظهر لدى الفوهة. ربما انزوى جانباً وأخذ يدخّن سيجارة.

عندما ظهر هذه المرّة صحت بأعلى صوتي، ولكنه كان يتصرّف على نحو كأنه لا يسمعني. فاتّخذت قراري على الفور. وضعت إحدى قدميّ في داخل السطل وتشبّثت بالحبل بقوة. ناديت: «اسحبْ!».

أدار الأُسطى «محمود» الرافعة ببطء ورفعني إلى الأعلى. عندما

بلغت مستوى سطح الأرض كنت أرتجف ولكنني كنت سعيداً. فيما وطأت قدماي المسطح الخشبي قال لي: «ماذا حدث؟».

«يا مُعلِّمي أنا لن أنزل إلى الأسفل».

«أنا من يقرّر ذلك».

«طبعاً يا مُعلِّمي أنت من يقرّر ذلك»، قلتُ.

«عفارم يا ولد! لو كنت تصرفت هكذا منذ اليوم الأول لربما كنّا قد عثرنا على الماء».

«يا مُعلِّمي! أنا كنت ساذجاً في الأيام الأولى تلك. ولكن هل تقع عليّ اللائمة إذا لم يظهر الماء؟»، قلتُها ونظرت إلى وجهه فرأيت أنّه يحاول إضفاء تعبير ارتياب من كلام محدِّثه برفع أحد حاجبيه، علمت أن كلامي لم يرُقْ له، فأردفت قائلاً: «لن أنساك مدى الحياة يا مُعلِّمي. اكتسبت الشيء الكثير من اشتغالي عندك كصبي. أنت مدرسة بالنسبة لي ولكنني أتوسل إليك أن تطاوعني لنترك العمل في هذه البئر! أرجو أن تعطيني يدك لأقبلها يا مُعلِّم».

رفض الأُسطى «محمود» أن يمد يده:

«لا تكلمني مرّة أخرى عن ترك العمل قبل أن نعثر على الماء... هل فهمت؟».

«فهمت».

«هيا إذن أنزل مُعلِّمك إلى الأسفل. ما زال لدينا ساعة أو أكثر حتى تحلّ استراحة الظهيرة، فالنهار طويل وسوف نتمتع باستراحة. سوف تستلقي في ظلال شجرة الجوز وتنام ملء أجفانك».

«الله يرضى عنك يا مُعلِّمي».

«هيا أدرْ هذه الآلة ودعني أنزل».

أدرتُ الرافعة ونزل مُعلِّمي إلى البئر. تابعته وهو ينزل شيئاً فشيئاً حتى غاب عن نظري تماماً.

صرت أفرغ السطل بسرعة وأنصت إلى الإيعاز الذي يرسله المُعلِّم من الأسفل، وأبذل قصارى جهدي من أجل إدارة مقبض الرافعة. بدأت أتصبَّب عرقاً، فكنت أهرع إلى الخيمة وأشرب الماء من القنينة. وفي ذات مرّة خرجت جمجمة سمكة متحجّرة من بين الرمال التي كنت أفرغها. تفحّصت الجمجمة وأبطأت من سرعتي. إذ ذاك بدأت غمغمات الأُسطى «محمود» تسمع قادمة من جوف البئر. ففي اللحظات التي كنت أشعر فيها بأنني أُحاصَر وأن قواي تخور، كانت المرأة ذات الشعر الأحمر تحلّ بكل أنوثتها وتتجسَّد أمام ناظري.

جاءت فراشة مرحة متطفّلة منقّطة باللون الأبيض والأصفر، وبحركاتها الهادئة طارت فوق العشب معرّجة على الرافعة، ومن جانب خيمتنا حلقت فوق البئر ومضت في طريقها.

إنْ كانت هذه إشارة فما هي دلالتها؟ كل صباح في حوالي الساعة 11:30 تقريباً بينما يمرّ بتثاقل قطار «إسطنبول - أدرنة» الذي ينقل المسافرين إلى أوروبّا، أتذكر أنّني أرى أن هذه العلامات إشارات إلى أن الأمور ستكون على ما يرام. بعد ساعة واحدة من مرور هذا القطار يمرّ قطار «أدرنة - إسطنبول» بالاتجاه المعاكس ليعلن لنا عن حلول وقت استراحة الظهيرة «أي الساعة 12:30».

في أثناء الاستراحة فكرت أن أذهب إلى «أونجوران» بركضة واحدة لكي أرى المرأة ذات الشعر الأحمر، فقد كنت أشتاق لرؤيتها، وأود أن أسألها عن الأُسطى «محمود». قمت بإقفال الرافعة لكيلا تدور عكسيّاً، فيما مسكت مقبض السطل الواصل إلى فوهة البئر وركنته جانباً. سمعت الأُسطى «محمود» يصرخ من قعر البئر ثانية. راحت يدي من دون أن أدري تدفع السطل بخفة لكي تركنه جانباً على المسطح الخشبي فسقط إلى الأسفل بملء ما فيه من تراب ورمل.

التفتُّ من فوري وصرخت:

«مُعلِّمي ي ي ي!».

قبل هنيهة كان الأُسطى «محمود» هو الذي يصرخ، أما الآن فقد سكت.

سمعت صرخة ألم عميق قادمة من الأسفل. صرخة توجُّع لن أنساها ما حييت. بعد ذلك ساد الصمت في أرجاء المكان. تراجعت إلى الخلف. لم تكن تأتي أيّ أصوات من البئر ولم أجرؤ على الاقتراب إلى الفوهة، ولم أجد في نفسي شجاعة كي أنظر إلى الأسفل. فما سمعته قبل قليل ربما لم يكن صراخاً وإنما كان شتيمة.

خيَّم الصمت على العالم كله مثلما كان سائداً هنا في جوار البئر. ساقاي كانتا ترتجفان ولا أدري ماذا أفعل.

جاء زنبور كبير الحجم ودار أولاً حول الرافعة، حلّق فوق فوهة البئر، وقف هناك كمن ينظر إلى الأسفل ثم اختفى على حين غرة.

هرعت إلى الخيمة. أبدلت قميصي المبلل من العرق وبنطالي. وجدت أن بدني كله يقشعرّ، طفقت أبكي ولكنني سرعان ما توقفت عن البكاء. إذا شعرت بالقشعريرة وأنا لدى المرأة ذات الشعر الأحمر فلن أشعر بالخجل لأنها تفهمني وتكون خير معين لي. حتى «تورجاي» ربما سيمد لي يد العون، ربما كانا سيطلبان النجدة من الثكنة العسكرية أو من البلدية. ربما كان رجال الإطفاء أيضاً ينضمون إلينا.

كنت أعدو باتجاه «أونجوران» سالكاً طريقاً مختصرة عبر الحقول. كانت الجداجد المختبئة بين الأعشاب الصفراء تسكت عن الصرير عندما أمرّ قريباً منها. ومِن ثَمَّةَ أخرج إلى الطريق لأستخدمه لمسافة ما، ثم أعود مرّة أخرى إلى طريقي المختصر الذي يشق الحقول. بينما كنت أهبط عبر المنحدر الممتد على طول المقبرة بإحساس غريزي في نفسي، التفت إلى الخلف فرأيت هنالك في البعد غيوماً سوداء ممطرة قد تلبدت فوق سماء إسطنبول.

إن كان الأُسطى «محمود» قد جُرِحَ وينزف دماً كثيراً فيجب أن تصل إليه المساعدة، ولكنني لم أكن أعلم ممن أطلب العون.

عندما دخلت المدينة رحت من فوري إلى البناية حيث تسكن المرأة ذات الشعر الأحمر مع «تورجاي». طرقت باب الشقة الخلفية في الطابق الأرضي ففتحت لي امرأة أخرى، أظن أنها زوجة الخطاط «الماويّ» القديم صاحب اللوحات. ومن دون أن تدع لي متنفساً لإلقاء السؤال أو للكلام. قالت: «غادروا المكان». أغلقت في وجهي باب البيت الذي قاسمت فيه الفراش لأول مرّة في حياتي مع المرأة التي أحببت.

مررت بالميدان. كان مقهى «الروميلي» فارغاً من الزبائن. دائرة البريد كانت مزدحمة بالكثير من الجنود الذين كانوا يخابرون أهليهم، أما الأرصفة فكانت تغصّ بالقرويّين الذين جاؤوا من القرى المحيطة بالبلدة، ولم نكن نصادف أيّ واحدٍ منهم في الليل.

خيمة مسرح الأساطير المثالية لم تكن في محلها. ولم أشاهد أيّاً من الإشارات التي كانت موجودة لحد البارحة، وتدلّ على وجود فرقة مسرحية هنا. لم يتركوا من ورائهم أيّ أثر سوى القصاصات المتبقية بعد قطع التذاكر وبعض الأوتاد التي كانت تثبت الخيمة على الأرض. إذن تأكّد لي أنهم رحلوا.

ومن دون أن أعي ما أنا مقدم عليه أُطلِقُ العِنان لساقيّ لتخرجاني من «أونجوران» وكأن جسمي لم يعد قادراً على التحكم بركضي ولا بتوقفي للنظر إلى السماء التي تتلبد بالغيوم بمرور الوقت، أو للبحث عن معنىً ما في كل ذلك، بل إنّ أوصال بدني هي التي تقوم بتلك الأفعال بمعزل عن إرادتي. كان العرق يتفصّد على جبيني ويتصبب من رقبتي وفي أنحاء جسدي. منحدر المقبرة التي كانت أشجاره تتراقص في الليل بفعل نسمة ريح باردة يحترق الآن في أتون حرٍّ جهنّميّ. بينما بلغت السهل المنبسط بدأت أمشي على مهل بدلاً من العدو بسرعة. كنت أرى أن تصرفي خلال نصف الساعة القادمة سيرسم حياتي بأكملها، ولكنني لم أكن قادراً على اتخاذ قرار ما، ولا أدري ما الذي يتوجَّب عليّ القيام به بشأن الأُسطى محمود؟ لا أدري ماذا حلّ به، هل أغمي عليه؟ هل

جرح، أم قُضيَ عليه؟ لم يعد باستطاعتي التفكير. ربما كان هذا بسبب تأثير الشمس على يافوخي ورقبتي وحرقها لأنفي.

في آخر محاولة لي لاختصار الطريق سمعت خشخشة سلحفاة بين الأعشاب. أوّلاً سمعت هشيشها ثم رأيتها تحيد عن الطريق. لو أنها خرجت عن الطريق وذهبت يميناً أو شمالاً لضاعت بين الدغل وانتهى الأمر، ولكنها لم تكن تعي ذلك. فقد اختارت الطريق الذي أنا ذاهب فيه كمصير لها. كانت تحاول أن تبتعد بسرعة ويبدو عدوُها مضطرباً. أنا الآخر كنت أفعل الشيء ذاته. بينما أريد أن أهرب من مصيري، أراني أتخبط في طريق خاطئ ربما!

أيام طفولتي في «بشيكتاش» كان قسم من الأولاد يقلبون السلاحف على ظهورها لكي تموت ثم يجففونها. كانت هذه السلحفاة تخفي رأسها عندما تراني، حملتها بتؤدة ووضعتها بعناية جانباً بين الأعشاب.

بينما اقتربت إلى البئر بسرعة خففت من ضجيج تنفسي، كي يتسنى لي سماع صوت الأسطى «محمود» أو أنينه. كنت أتخيل أن هذه الواقعة ما هي إلّا حدث عادي مثل الأحداث التي عشناها في الشهر الأخير. كأن السطل لم يكن قد انزلق وسقط، ولم يُصب الأُسطى محمود. أردت شرب الماء، حملت القنينة ولامست فوهة القنينة فمي. كنت أتوقع أن أسمع صراخه قادماً من أسفل البئر، فإنني لم أسمع أيّ أصوات غير صرير الجداجد. فالصمت وحده كان سائداً في محيط البئر، ويوقظ في روحي مشاعر الندم. رأيت اثنتين من السحالي تطارد إحداهما الأخرى فوق أسطوانة الرافعة. انتقلتُ خطوةً أخرى صوب فوهة البئر. أردت أن أنحني لأنظر في عمق البئر، تملَّكَني الخوف فلم أجرؤ على الاقتراب أكثر، خشيت أن أصاب بالعمى إذا نظرت إلى البئر.

في الواقع لم أكن أستطيع أن أنزل إلى البئر لوحدي، لأن الأمر يتطلب وجود شخص ثالث بيننا كي يعاونني في النزول إلى الأسفل. لهذا السبب كنت هُرعت في بادئ الأمر إلى المرأة ذات الشعر الأحمر

في «أونجوران» لطلب العون، ولكنني عدت أدراجي من دون أن أخبر أحداً. لم أكن أدري أنّني بهذا أختلق الأعذار لنفسي. فكرت أنّني ربما لن أجد أيّ شخص يمدّ لي يد العون، لذلك قررت العودة إلى مُعلِّمي لأساعده في الأقل. لربما تأكد لي موت الأُسطى «محمود» وثبتتْ الواقعة عليّ بالجرم المشهود ولا يمكن التراجع عنها أبداً. تضرَّعتُ: «رفقاً بي يا رب!».

لا أدري ماذا كان يتوجَّبُ عليّ أن أفعل!

حين عدت إلى الخيمة أجهشتُ بالبكاء، فمرأى الأشياء التي استخدمناها أنا والأُسطى محمود في الشهر الأخير كانت تدفعني إلى الحزن. إبريق الشاي، الجريدة القديمة التي قرأتها مائة مرّة، الخفّان البلاستيكيان الأزرقان وربطتا القَيَاطِين فوقَهما - كان مُعلِّمي ينتعلهما - والحزام الذي كان يشدّ به بنطاله عندما نذهب إلى البلدة، وساعته المنبِّهة.

ذهبت يداي دونما وعي إلى أشيائي وراحتا تلملمان ما يقع تحتهما. جمعت كل أغراضي. حتى حذائي البلاستيكي، الذي لم يحالفني الحظ أن أنتعله، حشرته بعجالة في حقيبتي، ولم يستغرق ذلك أكثر من ثلاث دقائق. فإذا بقيت هنا فسوف يُلقى القبض عليّ بتهمة الإهمال الذي تسبّب بالموت، أو في الأقل سأحاكم بتهمة عدم الانتباه. وتستغرق القضية سنوات عديدة. تتحطّم خلالها حياتي، وتذهب أدراج الرياح كل آمالي في أداء الامتحان في مدرسة خاصة وكذلك القبول بالجامعة. وبينما أنا قابع في سجن الأحداث ربما ستقضي أمّي بسبب حزنها عليّ.

تضرّعت إلى الله أن يظل الأُسطى محمود سالماً. اقتربت إلى فوهة البئر عسى أن أسمع صوته، أو أنينه ولكن لم يكن يسمع أيّ صوت من البئر... ولا حتى أيّة نأمة.

غادرت الخيمة وأنا أحمل حقيبة أبي وكان قد بقي من الوقت حوالي ربع ساعة لألحق بقطار إسطنبول الذي يأتي في الثانية عشرة والنصف.

بدأت أعدو في هذا الجو الحار، لا ألوي على شيء. كنت أعرف لو أنني التفتّ لألقي نظرة إلى الوراء لاغرورقت الدموع في عيني. ثم إن الغيوم السوداء تلبدت فوق سمائها، وجاءت برعبها ليخيّم على البلدة واصطبغ كل شيء فيها بلون بنفسجي غامق.

بينما كنت أنتظر القطار - الذي بدا متأخراً عن موعده - في مبنى المحطة المزدحم بالجنود والقرويين الذين جاؤوا إلى البلدة للتبضع. هم وسلالهم وأكياسهم وعلبهم الكارتونية الكبيرة، رتبت وضعي على أن أجلس في الجانب الأيسر من مقطورة المسافرين كي يتسنى لي - حين يستدير القطار عند تقاطع الطريق - أن ألقي نظرة أخيرة إلى المكان حيث كنّا أنا والأُسطى «محمود» نحفر بئراً. فمنذ شهر تقريباً كنت أفكر في القيام بهذا العمل عندما أعود إلى إسطنبول. ولكن في ذلك اليوم المدفون في مخيلتي كان يتوجب أن تكون تلك العطايا والبقشيش التي سيمنحها لنا «خيري بيك» في حال العثور على الماء موجودة معي.

كان القطار قد تأخر عن موعده، ولحين مجيء القطار أخذت أتفحص وجه كل من يدخل مبنى المحطة. كنت أعتقد أن أعضاء الفرقة المسرحية بين هذا الزحام الشديد والمرأة ذات الشعر الأحمر معهم ينوون العودة إلى إسطنبول على هذا القطار نفسه. وأخيراً عندما جاء القطار ودخل المحطة، ألقيت نظرة وداع أخيرة على بلدة «أونجوران» وعلى الميدان، ثم التفتُّ مرتبكاً وصعدت القطار بقلق. جلست في مقصورة المسافرين، فكان شعورٌ عارمٌ بالذنب يجتاحني، ولم أكن أشعر بجرح في كبريائي من جرّاء إطاعتي للمُعلِّم.

القسم الثاني

-22-

بينما كنت أنظر عبر نافذة القطار بعينين مخضلّتين إلى السهل المنبسط، لم أكن أميّز البئر إلّا بالكاد، بيد أن كل الأشياء التي كنت أراها، المقبرة الواقعة على الطريق المؤدي إلى البلدة، وأشجار السرو التي لن أنساها قَطّ كانت قد تحولت في تلك اللحظة إلى منظر مؤطَّر. توشك ظلمة السماء أن تطبق على السهل المنبسط الذي كنّا أنا والأُسطى محمود نحفر فيه بئرنا. أرعدت السماء في مكان قصي من الأرض، وما إن وصلنا صوت الرعد حتى كان القطار قد اجتاز العطفة، وهكذا غشي الظلام كل شيء، البئر ومحيطه والسهل برمّته. هبت نسمة من الحرّية على قلبي، وأخذت تعتمل في داخلي مشاعر تتقلب بين الرضا عن النفس وبين الشعور بالذنب.

قضيت مدة طويلة لم أكلّم فيها أحداً، رجعت فيها إلى نفسي. وضعت مسافة معينة بيني وبين العالم الخارجي. العالم جميل فأردت أن يكون داخلي جميلاً مثل العالم الخارجي. فإذا تصرفت بشكل وكأنّ لا ذنب ولا سوء في داخلي سوف يتيح لي هذا فرصةً لأن أنسى السوء الذي أشعر بوجوده، وهكذا بدأت بالتصرف وكأن شيئاً لم يحدث على الإطلاق. فإذا تصرفتم بلا مبالاة فسوف ترون أنّ لا شيء يحدث حقاً.

انطلق قطار إسطنبول وأخذ يخترق الأماكن المكتظّة بالمعامل القديمة والمستودعات المتروكة ويشقّ طريقه بين المزارع، يجتاز من فوق الأنهار، بمحاذاة الجوامع ومن بين المقاهي والورش الصناعية.

عندما مرّ القطار بالقرب من مدرسة مهجورة كان هنالك أولاد يلعبون كرة القدم في حديقتها، حشروا ملابسهم في أكياس ووضعوها على الأرض لتحديد مرمى الهدف. كان أن نزلت زخّات مطر صيفي مع مرور القطار، دفعت الأولاد إلى التقاط ملابسهم وأكياسهم وإلى تفرّقهم.

الأرض ذات التربة القاسية التي رأيتها من خلال النافذة كانت تتشكل على سطحها البِركُ ثم تجري الجداول وتتحول إلى سيول وأنهار. فالرجل القابع في جوف البئر لن يشعر بما يحدث فوق في الأعلى، حتى وإن حدث طوفان. أما زال الأسطى محمود في البئر يناديني، يصرخ ويصيح باتجاه الأعلى؟

نزلت من القطار في محطة «سيركاجي» ورحت أمشي تحت المطر في إسطنبول. قطعت تذكرة إلى «حرم» وركبت العبّارة حاملة السيارات. انتظرت طويلاً فما كانت العبارة لتمتلئ كي تبحر بنا إلى الجانب الآخر. السوّاق، العوائل، الأطفال الباكون، كاسات اللبن المحلّى، وهدير محركات الشاحنات... كنت قد نسيت تماماً حلاوة التواجد في مكان واحد مع الناس. كنت أشعر بنفسي الآن كما لو كنت كائناً متوحشاً وجد طريقه ثانية إلى الحضارة. كانت قطرات المطر تنساب من بين خصلات شعري وتجري إلى رقبتي وعلى كتفي، ولكنني لم أبرح مكاني بل ظللتُ أتأمّل انسيابيّة إسطنبول عبر زجاج النافذة المغطّاة بقطرات المطر. استطعت بالكاد أن أرى قصر «دولمة باهجا» ومن بعده منطقة «بشيكتاش» ومِن ثَمَّةَ العمارة التي كانت تقع خلف مبنى المدرسة الخاصة.

نزلت من الزورق وهرعت إلى بوفيه على الطريق واشتريت علبة من المحارم الورقية قبل أن أستقل الباص، ورحت أمسح رقبتي وأجفّف وجهي. لم تجتذبني المعجنات ولا ملفوفات الشاورمة برغم أنّي لم أذق طعم أيّ شيء منذ ساعات. قلت في نفسي: هكذا تشعر إذاً عندما تكون قاتلاً!

الأفكار التي لم أكن أقبل بتداولها مع أيّ كائن مهما كان رحت

أطرقها وأناقشها بصمت مع ذلك الصوت القادم من أعماقي. طفقت أستمع للصوت الثاني في داخلي. وأتمنى ألّا يفسر ذلك بكونه ارتخاءً من جانبي. ركبت الباص الذاهب إلى «جبزة» في الساعة الثالثة. لم أكن أطيق نفسي من شديد الانفعال لأنني كنت على وشك اللقاء بوالدتي. شمس الصيف الدافئة كانت تتسلل عبر النافذة اليمنى، كانت مسلطة عليّ بدفئها فغفوت. رأيت فيما يرى النائم أنّني في جنة تسطع فيها شمس دافئة، وقد نُقِّيَت من دنس الجريمة والإثم. كنت أعتقد أن أمّي حين تراني ستقول لي: «أراك تنظر إليّ كقاتل، ماذا بك؟»، في حين أنّني فوجئت لأنها لم تقل لي ذلك الكلام، فعانقتها وعانقتني بحرارة. كانت تفوح رائحة طيبة. بكت قليلاً ثم أخذت تكلّمني بمرح. كانت منهمكة تعمل لي كفتة وبطاطس مقلية. قالت إنها لم تكن تعاني إلّا من القلق والشوق إليّ. قالتها وعاودت البكاء من جديد. فتعانقنا مجدداً بقوة أكبر.

«لقد كبرت خلال هذا الشهر، تضخمت ذراعاك ويداك، وطولك ازداد... لقد أصبحت رجلاً ناضجاً». قالتها أمّي ثم أردفت قائلة: «سَلطَتُك هل أزيد عليها الطماطم؟».

مشيت على طول التلال المجاورة لـ«جبزة» وأنا أرنو إلى إسطنبول من بعيد. وأصادف في رواحي أرضاً تشبه ذلك السهل الذي حفرنا البئر فيه، وتصيبني الدهشة، كنت أتصور أن الأُسطى «محمود» سيظهر لي هنا.

لم أقل لوالدتي أنّني نزلت إلى البئر على الرغم من الوعد الذي قطعته على نفسي بذلك، ورأيت أن لا حاجة لذكر مثل هذه التفاصيل ما دمت الآن أقف أمامها سالماً معافى. لم نتحدث عن أبي، كما علمت أنّه لم يعد يتصل بوالدتي، ولكن لا أدري لم لا يتصل بي أنا؟ كانت تتجسد أمام ناظري آخر صورة للأُسطى «محمود» وهو يهمّ بالنزول إلى البئر، وكنت أعتقد أنّه ما زال إلى الآن مستمرّاً في الحفر، وكأنه دودة فاكهة تحفر في جانب من برتقالة عظيمة.

اشترت والدتي جهاز تلفزيون جديداً للبيت مع ساعة توقيت صغيرة

من جيبها الخاص، أما المبلغ الذي وفّرته من عملي مع الأُسطى «محمود» فقد أودعته في المصرف. ولمدة ثلاثة أيام شبعت نوماً وراحة. في أحلامي أرى الأُسطى «محمود». تطاردني شلة من رجال سيئين ولكن لم ألحظ أن راقبني أحدهم هنا في «جبزة» إذن لم يكلّفوا أحداً لكي يتعقّبني. في اليوم الرابع ذهبت إلى جامعة «بشيكتاش» في إسطنبول وسجلت اسمي في مدرسة خاصة لأداء الامتحانات التمهيدية للقبول في الجامعة. وبدأت أواظب على حضور الدروس وأدرس بجد.

عندما أختلي بنفسي لم أكن أقوى على نسيان مُعلِّمي ولا إخراج البئر من مخيلتي. وقد أسعدني كثيراً أنّني وجدت أصدقائي القدامى في المحلة وفي المدرسة وتمكنت من تجديد أواصر صداقتنا، والذهاب معهم إلى السينما، وإلى البار الكائن في السوق. مرةً أو مرتين ذهبت معهم إلى البار ولم أستطع مسايرتهم في التدخين أو أتّبع هواهم في شرب الخمر. كنت أشرب «العرق» كأي مبتدئ بِكَرّةٍ واحدة، ويظهر عليّ السكر. ولا أبالي حين يهزؤون مِنِّي ولكنني كنت أغضب عندما يتندرون بي لأن لحيتي لم تنبت بعد مثل طلاب الثانوية البُلَهاء، وشاربيّ لم يسوَدّا بعد بما فيه الكفاية ليعتبروني رجلاً. في ذات مرّة قلت:

«لو كانت هنالك معجزة في الشَّعْر لكان النور يهطل في سماء المدابغ»، وأردفت: «حتى القطة لها شوارب».

تضاحكوا جميعاً لسماع هذا الكلام مِنِّي. كنت قد تعلمت هذه الحِكَم المبهرجة من الكتب التي كنت أسهر في محل بائع الكتب من أجل قراءتها، وأقرؤها إلى أن تؤلمني عيناي.

ولكن هل يمكن لشخص بلا ضمير ترك مُعلِّمه للموت في قعر بئر أن يصبح كاتباً؟ هل كان سقوط السطل قضاءً وقدراً؟ كنت أردد مع نفسي بلا هوادة: لم يحدث عند البئر أيّ شيء غير اعتيادي، فكل ما حدث كان أمراً عاديّاً. من فرط الإجهاد وشدة التعب لم أحتمل الأرق. تركت كل شيء، حصلت على مستحقاتي، وتصرفت مثلما يتوجب

على أيّ إنسان عادي أن يتصرف. وحريٌّ بي هنا أن أقول إنّني لا أحبذ مصطلح «الإنسان العادي».

من بين الذين كانوا برفقتي من أصدقاء المحلة من كان يكبرني سنتين أو ثلاث سنوات، ومن كان طالباً في جامعة إسطنبول. منهم من كان يطلق شاربيه ولحيته ومن كان يتصادم مع رجال الشرطة في الحارات الضيقة والأزقة الخلفية، ومنهم من كان يقص علينا مغامراته بتباهٍ. كنت أعرف هؤلاء فقد كانوا يكنون الاحترام لوالدي. وفي الواقع قد تأكد لي بشكل لا يرقى إليه الشك. بدأت أغضب منهم بعد أن رويت لهم حكايتي مع المرأة ذات الشعر الأحمر. سألني واحد منهم:

«جيم! أنت هل سبق لك أن مسكت بيد فتاة ما في حياتك؟».

بعضٌ منهم كان يقصّ علينا بشكل فاضح كيف يوقع الفتيات في شباك غرامه، كيف يكتب رسائله الغرامية وينتظر الأجوبة عليها. وهكذا تشجعت أنا الآخر وبدأت أتحدث عن قصة الحب التي خضتها مع امرأة في بلدة «أونجوران»، حيث أرسلني صهري للعمل في موقع إنشائي (يومها كان العمل في مواقع البناء أفضل سمعة من العمل في حفر الآبار)، سألت من كانوا يتحلّقون حول المائدة:

«هل يوجد بينكم من سمع ببلدة أونجوران؟».

ما كانوا يتوقعون مِنّي سؤالاً كهذا، لذلك انتابهم الارتباك. فقال أحدهم إن أخاه الأكبر خدم في الجندية هناك في «أونجوران». وفي ذات مرّة قام والداه بزيارة ابنهما في تلك البلدة. وقال إنّه مكان كئيب وممل.

«هنالك وقعت في غرام امرأة رائعة - ممثلة مسرحية - يبلغ عمرها ضعف عمري. لم أكن قد تعرفت عليها من قبل. رأيتها في الزقاق فاصطحبتني إلى بيتها».

كانوا ينظرون في وجهي وتعابير وجوههم تقول إنهم لا يصدقون كلامي. قلت لهم لأول مرّة في حياتي عاشرت تلك المرأة.

«كيف كانت؟»، قال واحد منهم، «هل كانت جيدة؟».

«ماذا كان اسمها؟».

قال واحد آخر منهم وكان مدخناً:

«لِمَ لَمْ تتزوّجا؟».

قال الولد الذي ذهب لزيارة أخيه الكبير:

«كانت هنالك خيم فيها فرق مسرحية تقدم تمثيليات للجنود الذين ينزلون إلى البلدة لقضاء إجازاتهم. تمثيل يتخلّله رقص، وهزّ الوسط. وثَمَّةَ مَلَاهٍ ليلية فيها غانيات مغنيّات، ويجري هنالك الكثير الكثير».

فهمت في تلك الأمسية أنّني لن أتخلص من الحزن الذي ينتابني ولن يتركني الشعور بالذنب ما لم أبتعد عن شلّة الأصدقاء هذه. وبدأت أشعر شيئاً فشيئاً بأنّ التفكير بمُعلِّمي وبثره سوف يبعدان السعادة التي تتحقق لي في العيش حياةً عادية، وكنت أقول بيني وبين نفسي على الدوام: «أفضل خيار هو أن أمضي قدماً في حياتي وكأن شيئاً لم يحدث البَتّة».

-23-

ولكن هل كان بالإمكان التصرف على نحو ما وكأن شيئاً لم يحدث؟ فقد كان الأسطى «محمود» ماضياً في طريقه يحفر بالمعول والمجرفة في البئر الموجودة في رأسي. يحفر في التربة على الدوام وبلا كلل. فإن كان يفعل هذا فإنما يعني أنّه ما زال حيّاً يرزق، ولا بدّ أن الشرطة قد بدأت بالبحث في ملابسات الجريمة.

كنت أفكّر أنّ أحدهم سيجد جثة الأُسطى محمود، كأن يكون «عليّ» مثلاً، فتؤول القضية إلى المدعي العام، وسوف يتم إخبار السلطات في جبزة «وهذا سوف يستغرق أياماً وأسابيع». من كثرة البكاء سوف يغمى على أمّي مرات ومرات. ثم تبلغ الشرطة السلطات في إسطنبول، وهذا سوف يستغرق أشهراً عديدة. وفي ذات يوم ستداهم الشرطة المدرسة أو تهتدي إلى دكان بائع الكتب وتلقي القبض عليّ. فمن الأفضل إذن أن أعثر على أبي وأشرح له تفاصيل الموضوع من أوله إلى آخره، لكنه لن يعيرني أدنى اهتمامه. وتوصلت إلى أنّه لن يفيدني بشيء، سوف يسألني وأجيب عن تساؤلاته، وبذلك سوف أهوِّل الأمر وأضخّم القضية. وكل يوم يمرّ ولم تأتِ فيه الشرطة لتطرق باب المدرسة وتعتقلني كان دليلاً على براءتي ومدعاة لسروري، ذلك بأنّي لا أختلف عن الآخرين بشيء. فكنت أشعر بأنّ الأيام التي أعيشها تشبه الحياة التي يمضيها أيّ إنسان عادي وبريء. ففي مكتبة «دنيز» كنت أعتقد أحياناً أنّ الزبون الذي يسألني بحدّة عن مكان كتاب ما إنما هو رجل من رجال الشرطة

المتخفِّين بزيٍّ مدنيّ، وأحياناً أخرى أجدني على وشك أن أعترف له بذنبي، وفي الغالب كنت أفكر أن الأُسطى «محمود» قد تخلّص من البئر وخرج ونسيني بكراهية.

كنت أعمل بجدّ في دكّان بائع الكتب، أسعى سعياً محموماً في تأمّين طلبات الجميع. فالمُعلِّم «دنيز» الذي كان يهوى تنظيم الواجهة بشكل لا يخطر على بال أحد، واختيار الكتب وأفكار الإعلان عن تخفيضات، أشار إليَّ أنّه بإمكاني استخدام الكنبة للنوم عليها في ليالي الشتاء، كذلك قال لي يمكنك أن تتخذ من تلك الغرفة الصغيرة مكاناً لقراءة الكتب مساءً، مثل بيتك تماماً. كانت أمّي قد تعكر مزاجها لأنني سأبتعد عنها وعن «جبزة»، ولكنها كانت على يقين أنّني إذا واظبت على الذهاب إلى «كاباتاش» والدوام في المدرسة التأهيلية في «بشيكتاش» فسوف أحصل على نتائج جيدة في امتحانات القبول في الجامعة. لذلك كنت أجهد نفسي وأكدّ مثل «الأبقار». حفظت جميع المعادلات عن ظهر قلب. ففي أكثر الأوقات التي أنهمك فيها في الدراسة كان خيال المرأة ذات الشعر الأحمر يشع في داخلي كشمس دافئة ويتفتح كزهرة، ويشدني إلى التفكير بلون بشرتها بخصرها وصدرها ونظراتها. في الحقيقة كانت الدراسة عزائي الوحيد، وهي التي شجعتني على اللامبالاة.

حينما بدأت بملء استمارة القبول في الجامعة وتثبيت اختيار الأقسام كانت والدتي معي في «جبزة»، بالطبع طلبت إليّ أن أدرج كلية الطب في أولويات اختياراتي، وكانت تخشى أن تحل على رأسي مصائب سياسية لا قِبَل لي على تحملها مثلما حدث لأبي، فإذا اخترت أن تكون كاتباً فإنك لن تجد كسرة خبز لتسد بها رمقك. بعد أن تركت مُعلِّمي ليلقى مصيره في جوف البئر، أخذت رغبتي هذه في أن أكون كاتباً تتضاءل حتى جفت تماماً. كانت والدتي ترغب في أن أكون مهندساً. وهكذا فقد أشرت على المربع واخترت الهندسة الجيولوجية. كانت أمّي قد انتبهت إلى أن عملي كصبيّ لدى حَفّار بئر قد ترك تأثيراً قويّاً على نفسيتي. وفي

بادئ الأمر ظننت أنها اكتشفت البقعة السوداء التي كانت تعكر صفو روحي حين قالت: «لقد نضجت».

في نهاية صيف 1987 أُعلِنَ أنّي حاصل على مقعد في الترتيب الخامس في الجامعة التكنولوجية بإسطنبول، في كلية الهندسة الجيولوجية الكائنة في «ماجكا». الجامعة التي يمتد تاريخ بنائها إلى أكثر من مائة سنة؛ إذ كانت في الأصل ترسانة للأسلحة وثكنات عصرية للجنود، ولكن عندما جاءت جحافل الوحدات التابعة لحركة «تركيا الفتاة» من «سلانيك» إلى إسطنبول لكي تخلع عبد الحميد من العرش في العام 1908 تموضعت هنا، كذلك اتخذت القوات المساندة للسلطان أماكن لها هنا. وفي الأماكن هذه نفسها التي ندرس فيها الآن دارت معارك بين الطرفين. كنت أقرأ عن هذه الأحداث في الكتب وأشرحها لأصدقائي. كنت أشعر بغرابة كل هذه المعالم هنا، البناء القديم، صفوف درس ذات سقوف عالية، سلالم تفضي إلى متاهات لامتناهية، ردهات تتصادى فيها الأصوات. فالغموض كان يغشى كل شيء. وأحب الأشياء إلى نفسي هو أن «بشيكتاش» و«مكتبة دنيز» كانتا تقعان على بعد عشر دقائق عن المنحدر.

ترفَّعْتُ من بائع في محل لبيع الكتب إلى إداريّ فيه. صاحب المكتبة لم يكن يرضى لي إلّا أن أكونَ كاتباً، صار الآن يتقبّل دراستي للجيولوجيا وكان يردّد: «يقال من الممكن أن يخرج كاتب من المهندسين». فرُحت أُكمل قراءة كتاب واحد كل مساء أثناء مبيتي في المسكن الطلابي التابع للجامعة.

يتوجب عليّ نسيان قصة أوديب لسوفوكليس إن أردتُ أن أتصرف بشكل طبيعي وكأن شيئاً لم يحدث قَطّ. ضغطت على نفسي وتماسكت رباطة جأشي حتى وصلت إلى الصف الثالث في الجامعة، فكان أن وقعت يدي مجدداً على ذلك الكتاب القديم عن الأحلام في دار «دنيز» للكتب. في هذا الكتاب كنت قد قرأت مختصراً لقصة «أوديب» وانتبهت إلى أن اسم كاتب الاختصار هو «سيجموند فرويد». مقالة فرويد كانت

تسلط الضوء على الكشف عن رغبة قتل الأب الخفيّة الموجودة لدى الأبناء أكثر من الحديث عن سوفوكليس.

وبعد أشهر عديدة عثرت في قسم الكتب المستعملة على نسخة مترجمة من مسرحية «سوفوكليس» منشورة ككتاب من قبل وزارة التربية القومية في العام 1941، اعتراني الهلع عندما أبصرت الغلاف الأبيض المصفرّ للكتاب وقرأت عنوانه «أوديب الملك». لم تكن هنالك في سوق الكتب نسخة مترجمة إلى التركية. بدأت أقرأ الكتاب باستغراب وألتهم ما فيه من معلومات كما لو كنت أكتشف سرّاً غامضاً يخص حياتي أنا.

ففي الكتاب الذي قرأته تبدأ المسرحية بحسب تلخيص «فرويد» ليس بمولد الأمير «أوديب» بل في السنوات اللاحقة التي تلي ذلك التاريخ، تبدأ من حيث قتله لأبيه، وجلوسه على العرش، والزواج من أمه، من دون أن يدري أنها أمه. وينجب منها أربعة أطفال. وليست هنالك أيّة إشارة إلى أن الابن ينام مع أمه التي تكبره – في الأقل – ستة عشر عاماً، بل وكأن الكاتب يتغاضى عن هذا الأمر. حاولت أنا أن أستحضر هذا المشهد وأتخيله ولكنني لم أفلح في ذلك. فأمه هي زوجته في الوقت نفسه، وأولاده في الواقع هم إخوانه أيضاً. في بداية المسرحية لا أوديب ولا أيّ واحدٍ من الممثلين أو المشاهدين كان يدرك فحوى كل هذه المخازي. ولربما ظهرت الأوبئة في المدينة لهذا السبب. وللتخلص من كل هذا كان عليهم أن يعثروا على قاتل الملك السابق. وكان الملك «أوديب» من أشد المناصرين للعثور على القاتل، بيد أنّه وبمرور الوقت سوف يدرك وبألم شديد أنّه هو القاتل، وتحت وقع الشعور بالذنب سوف يفقأ عينيه بيده.

قبل ثلاث سنوات في ذات مساء عندما رويت القصة على مسامع الأُسطى «محمود» لم أقصها بهذا التسلسل، ولكنني بعدما قرأت المسرحية شعرت بأنني رويتها هكذا بهذا الشكل. وفي الوقت ذاته فهمتُ

لِمَ لا أشعر بذنب كبير من جرّاء تسبّبي في مقتل مُعلِّمي «محمود». وبعد ثلاث سنين ما زلت أخاف من أن يحلّ ذلك اليوم المشهود الذي يأتي فيه أفراد الشرطة إلى الصف ويلقون القبض عليّ. ربما، ومن المحتمل أن الأُسطى «محمود» لم يمت. وإنما أنقذه أحد المارة من هناك، مثلما يحدث في القصص الدينية تماماً.

كان الأُسطى «محمود» يقصّ عليّ القصص والحِكَم المستقاة من القرآن الكريم لكي أعتبر منها، فإنني كنت أشعر بالملل. ولكي أزعجه أنا بالمقابل كنت أقص عليه قصة الأمير «أوديب»، وفي نهاية المطاف وضعت نفسي في محل بطل القصة. لهذا السبب، بسبب قصة أو بسبب أسطورة ظلَّ الأُسطى «محمود» قابعاً في جوف البئر.

أوديب أيضاً قتل أباه لأنه أراد أن يُفشِلَ نبوءةً، وأن يقاوم مجريات قصة، لو أن الأمير «أوديب» استخف بقول الكاهن، ولم يأخذ كلامه مأخذ الجد لما حدث كل هذا... ربما. لو أنّه سخر من هذا الكلام وتعداه ربما ما كانت لتحل على رأسه كل هذه المصائب. لما خرج من بيته ولَمَا أُجبِرَ على ترك موطنه والتغرُّب في البراري. ربما ما كان ليلاقي أباه الملك في شعاب الجبال، ولما قتله بالخطأ. والكلام نفسه ينطبق على والد أوديب، لو لم يتخذ كل تلك التدابير من أجل درء خطر وقوع القدر المشؤوم لما تحقّقتْ كل تلك المصائب.

إذن فإذا كنت أرغب في أن أعيش حياة عادية مثل أيّ واحد من البشر فما عليّ إلّا أن أتصرف على عكس «أوديب» وأضع حبل الحياة على غاربه، أيْ أن أستمر في حياتي وكأن شيئاً لم يحدث.

فـ«أوديب» الذي كان يرغب في أن يكون إنسانا سويّاً، قد صار قاتلاً لأنه كان يخشى أن يكون قاتلاً. ولأنه أراد أن يعرف من هو القاتل تعرف على نفسه على أنّه هو بالذات قاتل أبيه. فمسرحية سوفوكليس في الأساس مبنية على إرهاصات البطل الذي يكتشف في نهاية المطاف أن القاتل بالذات هو نفسه.

في حين أنا لم أكن قاتلاً، بل صرت في موقع ما، بدأت أشك فيه من نفسي أنّني اقترفت جريمةً، أنا بالذات لست متأكداً من وقوعها. ولم تكن لديّ أيّة نوايا في أن أكون قاتلاً أو يَقتُلَني ابني. حسنٌ... فالأُسطى «محمود» من الممكن أن يكون قد خرج من البئر وضاع في خضم الحياة. لو كان العكس أما كانت الشرطة تبحث عني الآن؟ إذن عليّ أن أنسى كل ما حدث من أجل أن أكون كأيّ فرد من أفراد المجتمع، ويتوجب عليّ أن أتصرف وكأن شيئاً لم يحدث.

-24-

انقضت مدة طويلة، فكّرت «لم يحدث خلالها أيّ شيء»، بينما أنا أعبر ردهات الجامعة التي كانت تفوح بها رائحة صابون الغار وغبار رطب. كنّا أنا وبعض أصدقائي في الصف نتذرَّع بتنامي الصراع السياسي والمصادمات التي تجري بين الطلبة والشرطة، لكي نفلت من دروس علم المعادن ونذهب إلى السينما، وحين أشاهد أحد المسلسلات على تلفاز القسم الداخلي وأستغرق في تأملاتي كنت أفرح لأنني نجحت أخيراً في أن أكون إنساناً عاديّاً مثل أيّ واحد من البشر. أتابع مباريات كرة القدم، والأفلام الجديدة التي ظهرت في الفيديوهات في الآونة الأخيرة، أراقب السفن التي تعبر مضيق البسفور. أخرج إلى السوق للتجول وأختلط مع موجات الزحام في «بي أوغلو» وأجول ببصري على الأجهزة الإلكترونية في أماكنها داخل الواجهات الزجاجية ومن بعد ذلك ينتابني الحزن ثانية لأن العطلة انتهت وبذلك أكون قد طويت مساءً آخر من أماسي الأحد.

كان هنالك عدد قليل من الطالبات اللائي كن يدرسن في المبنى الذي تم تحويله – من بناء كان في الماضي ترسانة للأسلحة – إلى كلية هندسة تابعة للجامعة التكنولوجية في «ماجكا»، وكان هنالك عدد لا بأس به من الذكور الذين كانوا قد نصبوا فخاخهم لكي يصيدوا هذا العدد الموجود منهن على ضآلته. لم أكن أعرف الكثير من الطالبات ممن هن في عمري. في أثناء عطلة نهاية الأسبوع في «جبزة» جاءت والدتي مع

صهرنا، ذلك أن ابنة إحدى قريباته من بلدة «جوردس»[10] قد تم قبولها في كلية الصيدلة في جامعة إسطنبول، وأنها ستظل في القسم الداخلي، وأنها تخشى زحام المدينة. قالت أمّي إذا قدمتَ لها يد العون فإن صهرنا سوف يكون ممتناً لك، فأخذت أهتم بالأمر.

كانت «آيشا» شقراء شعرها كستنائي اللون فاتحه، تشبه إلى حد ما المرأة ذات الشعر الأحمر. شفتها العليا بالذات كانت مكتنزة وفكها دقيق. لقد شعرت منذ اليوم الأول بأنني سوف أغرم بها، وأنها لا بدّ سوف تتجاوب معي. صرنا نذهب إلى السينما أيام السبت من بعد الظهر، أو نحضر عرضاً مسرحيّاً لتشيخوف أو لشكسبير في أحد مسارح المدينة. أحياناً كنّا نستقل الباص ونذهب إلى «أميرغان»[11] لشرب الشاي.

إقامة علاقة صداقة مع فتاة معقولة وجميلة و«الخروج» معها – مثلما يقول بعضٌ من أصدقائي – تمنحك إحساساً جميلاً. كنت أعيش أجمل أيام حياتي، حتى إنّني أخذت أصدق نفسي تماماً، أنّني قد نسيت الأُسطى «محمود» والبئر إلى الأبد.

ومن أجل الاستمرار في الحياة على هذا المنوال تقدَّمت للدراسات العليا في الهندسة الجيولوجية فقُبِلْتُ على الفور، لأنني كنت من ضمن الأوائل في صفي. في السنة الثانية من عمر صداقتنا بدأنا أنا و«آيشا» نمسك يد بعضنا بعضاً في دور السينما وفي الحدائق، حتى إننا كنّا بدأنا بتبادل القبل في الأزقة التي نتأكد من خلوّها من المارّة. ولكنني كنت قد فهمت منذ الأسابيع الأولى من علاقتنا أن «آيشا» لن تسمح لي بممارسة الجنس معها قبل أن نتزوّج رسميّاً. فكان اختلائي مع «آيشا» في شقّة للعزاب أعطاني مفتاحها واحد من الطلاب المهووسين بالجنس، من أهالي «بشيكتاش»، يقصد بيوت الدعارة بانتظام، وكان وغداً أهوج، يقول: ليست هنالك فتاة لا تذعن أخيراً للذهاب إلى الفراش، فانتهى

10- جوردس بلدة تابعة لمحافظة «مانيسا» الواقعة في منطقة بحر «إيجة». (المترجم).
11- أميرجان. (المترجم).

اختلائي بها في تلك الظهيرة نهاية مأساوية بكل معنى الكلمة. دعوتها لتناول كأسٍ من العرق، وكان ذلك من ضمن ما تعودنا على القيام به يومياً، وبعد ساعتين من مقاومة رغباتي خرجت «آيشا» تاركة إيّاي وحدي في الشقة، ولم تردّ على أيٍّ من مكالماتي الهاتفية التي كنت أخابر فيها القسم الداخلي.

أمضيت هذه المرحلة وأنا أتذكر المرأة ذات الشعر الأحمر، أتخيل مضاجعتي لها وأمارس العادة السرية. وفي النهاية تصالحت مع «آيشا» وواصلت حياتي من حيث انتهت القطيعة بيننا، ثم قررت أن أخطبها. بعد الخطوبة حينما كانت تأتي «آيشا» إلى مكتبة «دنيز» مرتدية الملابسٍ الجديدة التي خاطتها والدتي مع الخياطة، كان يروق لي أن أسمع المُعلِّم «دنيز» والأولاد باعة الكتب يعربون عن إعجابهم بخطيبتي، الفتاة الجوردسية[12].

كنت أتحدث إليها عن الكتب التي أقرؤها عن تاريخ علم الجيولوجيا وعن أفكاري السياسية - ولم تكن تختلف عن آراء الآخرين كثيراً - وعن حماستي لدى متابعتي لعبة كرة القدم. كنت أشعر بالفخر حين أعلم أن خطيبتي «آيشا» تحتفظ برسائلي التي كتبت فيها عن معاناة عمّال المناجم وظروف عملهم حين كنت أذهب إلى «كوزلو»[13] و«سوما»[14] في أشهر الصيف للتطبيق العملي، وتخفي عن أعين الآخرين تلك الرسائل التي كنت أطرح فيها آرائي الرنانة والغاضبة عن الحياة والعالم. أنا أيضاً كنت أحتفظ برسائلها.

12- نسبة إلى بلدة جوردس. (المترجم).

13- كوزلو: بلدة تابعة لمحافظة «زونكولداك». بُنِيَ مركزُ البلدة مع مستوى سطح البحر في حين انتشرت أحياؤها على المرتفعات الصخرية المحيطة بالبلدة. تبعد كوزلو خمسة كيلومترات عن مركز المحافظة وتشتهر بوجود مناجم الفحم الحجري في جبالها، ويعتمد غالبية سكانها على الزراعة وتربية المواشي. (المترجم).

14- سوما: بلدة تابعة لمحافظة «مانيسا» تقع على سفوح سلسلة جبال «يونت»، تقع على أكثر الخطوط الزلزالية نشاطاً والمعروف بخط «فاي» الذي يبدأ من بلدة «باموكجو» في محافظة «بالي كسير» ويمتد إلى حدود «بيرغاما»، تُعرَف «سوما» بمناجمها وإنتاج الفحم الحجري، كما تشتهر بالصناعات السكرية. (المترجم).

أحياناً كنت أجد بين أيامي السعيدة شيئاً بالغ الصغر يكشف عن حجم الظلام الذي يغشى دواخلي، ففي الصيف الجاف الذي كانت تعاني فيه إسطنبول من نقص في المياه، وبينما كان وزير الزراعة يتكلم عن أهمية الخروج لأداء صلاة الاستسقاء، كانت خطيبتي تقول لو حفر كل مواطن بئراً في حديقته لانتهت مشكلة نقص المياه. هذا ما دفع بي إلى السكوت طويلاً (حريٌّ بي أن أقول إنّني أخفيت عنها اشتغالي لمدة شهر كصبيّ عند حَفّار بئر). حين قرأت في إحدى الصحف خبر افتتاح رئيس الوزراء معملاً لصناعة الثلاجات بالقرب من «أونجوران» باحتفال مهيب، وأنه سيكون من المؤسسات التي لا يوجد مثيل لها في الشرق الأوسط أو في البلقان، تذكرت الأُسطى «محمود» والحكايات الدينية التي رواها لي. أردت أن أشتري هديةً لخطيبتي بمناسبة عيد ميلادها وهي رواية «الإخوة كارامازوف» التي تُرجِمَتْ ونُشرَتْ حديثاً. وقع بصري على مقالة «فرويد» في مقدمة الكتاب عن دستويفسكي وعن عقدة قتل الأب، يتطرق فيها الكاتب إلى أوديب وهاملت، فانكببت على قراءتها بنهم، ثم وضعت الكتاب جانباً واقتنيت رواية «الأبله» التي كان فيها البطل شخصاً مغفلاً وبريئاً.

في بعض الليالي كنت أرى الأُسطى «محمود» في منامي. أراه ما يزال يحفر في جانب ما من برتقالة عظيمة يميل لونها إلى الزرقة، تدور في السماء بين النجوم. هذا يعني أنّه لم يمت بعد، وإنه لمن الخطأ أن أحس بكل هذا الشعور بالإثم من جانبي. وعلى الرغم من ذلك يشتد بي الحزن عندما أشاهد الكوكب الذي يحفر فيه.

كنت أنوي أحياناً أن أبوح بالسر لخطيبتي، وهو أنّني صرت مهندساً جيولوجياً بفضل الأُسطى «محمود»، ولكنني كنت أغير رأيي في اللحظات الأخيرة، فقد كانت رغبة الاعتراف تلحّ عليّ بثقلها أكثر فأكثر، وتعكّر صفو علاقتي بآيشا منذ الأيام الأولى لتعارفنا وقراءتي للكتب وشرحي لها. وأحياناً أخرى حديثي عن غرابة علم الأرض

وخفاياه، وكلامي عن العالم الصيني «شين غوا»[15] الذي اكتشف في القرن الحادي عشر سبب وجود رؤوس أسماك وقواقع وحلزونات وقشور بلح البحر في الشقوق والحفر الموجودة في أعلى قمم الجبال في العالم، وعن ثاوفراستوس[16] الذي ألّفَ كتاباً «عن الأحجار»، وعن أنّ كثيرين ظلّوا يصدّقون بآرائه عن المعادن لآلاف السنين. لم أستطع أن أكون كاتباً مبدعاً ولكن كانت بي رغبة أن أؤلف كتاباً يصدّق به الجميع! كنت أتخيل أنّني أنهي كتاباً بعنوان: «البنية الجيولوجية لتركيا»، وأجري مسحاً شاملاً ابتداءً من أعالي جبال طوروس إلى الأرض التي حفرنا فيها بئرنا وتوصلنا إلى التربة ذات الطين الغضاري وصولاً إلى أسرار طبقات الرمل الناعم. وكنت قد خططت لتزيين كتابي بخارطة واقعية وحقيقية أحدّد فيها منابع الغاز والبترول.

15- «شين غوا»: عالم موسوعيّ ورجل دولة صينيّ (1031-1095)، عاش في عهد أسرة سونغ. اشتغل في عدة مجالات علمية؛ عالم رياضيات وفلكيّ ومخترع وخبير في علوم الطقس والجيولوجيا والحيوان والنبات والطب الصينيّ والزراعة والآثار ووصف الأعراق البشرية والخرائط والموسوعات، إضافة إلى كونه قائداً عسكريّاً ودبلوماسيّاً ووزيراً للخزانة ومفتّشاً عامّاً للدولة وشاعراً وموسيقيّاً. (المترجم).

16- ثاوفراستوس (370 – 287 ق.م): فيلسوف إغريقي ولد في جزيرة «ميديللي» بالتركية و«ليفسوس» باليونانية، الواقعة في بحر إيجة ثم انتقل إلى أثينا لمتابعة أبحاثه. يعتبر من أفضل تلاميذ أرسطو، وقد تربع على عرش العلم من بعده. شملت أبحاثه جوانب واسعة من العلوم المختلفة والمتنوعة مثل علم الأحياء والفيزياء وشملت الأخلاق والفضيلة واللغة والمنطق والميتافيزيقا. وله أعمال عن علم الأرض وعن الحجارة. إضافة إلى كونه منهجياً في أبحاثه ومنطقياً مثل معلّمه، إلّا أنه امتاز أيضاً بكونه مراقباً وجامع عينات نباتية. يُعتَبر «أبا علم النبات»، أهمُّ مؤلفاته في علم النبات: الأول: أبحاث في النباتات، مكوّن من تسعة مجلدات، والثاني: تاريخ النباتات، مكوّن من مجلَّدين. (المترجم).

-25-

أعلم أن أبي موجود في مكان ما من إسطنبول. أنا غاضب عليه لأنه لا يبحث عني، ولهذا لا أبحث عنه. وفي آخر المطاف رأيته حين تزوّجتُ من «آيشا» قبل ذهابي لأداء الخدمة العسكرية. وفي ذات مساء بعد حفلة الزفاف التقيتُه في «تقسيم»[17] في مطعم أحد الفنادق الحديثة، حين أبصرتُه شعرت فجأة بأنّي سعيد برؤيته. وما إن بقينا لوحدنا قال لي: «أرى أنك قد وجدت فتاة تشبه أمك». على مائدة الطعام رأيت «آيشا» قد وجدت لغةً للتفاهم مع أبي على وجه السرعة، حتى صارا معاً وأخذا يمازحانني ويسخران مِنّي على أنّي مهندس فالح في حفظ الأرقام فقط.

كان أبي قد كبر، ولكنه برغم ذلك يبدو حيويّاً. شعرت بأنه قد كوّن ثروة ما وبدا لي أنّه بدأ يعيش حياةً أخرى مختلفة، لذلك احمرّت سحنته. أما أنا فكنت أشعر بالذنب لكوني مشغولاً بالقصص التي تنصبّ كلها في موضوع قتل الأب، ولكنني أجدني قد بلغت ما بلغت خلال السنوات التي كان هو فيها غائباً، بعيداً عني. وأنّي كافحت من أجل أن أبلغ أهدافي وأكون ما أنا عليه الآن.

17- «تقسيم»: ساحة مشهورة في إسطنبول ارتبط اسمها بالإضرابات العمّالية والاعتصامات التي اعتادت القوى السياسية والمنظمات الاجتماعية على إقامتها من أجل طرح قضاياها. في 1969 جُرِحَ حوالي 150 متظاهراً يسارياً خلال مصادمات مع جماعات يمينية بما يعرف بـ«بالأحد الدامي»، عرفت فيما بعد بمجزرة ميدان التقسيم. وفي يوم العمّال العالمي في 1 أيار 1977 شهدت الساحة مقتل نحو أربعين متظاهراً يساريّاً. يعتبر «ميدان تقسيم» نقطة البداية لتحرك الكثير من المظاهرات اليسارية، ثم صار الميدان مسرحاً لأعمال شغب بين مشجّعي فرق كرة القدم. (المترجم).

حينما كان أبي إلى جانبي لم يكن يتدخل في المسائل المتعلقة بحياتي، وعلى الرغم من أنّه اعتاد أن يمنحني الثقة بالنفس فإنني لم أستطع أن أكون أنا. في حين خلال شهر واحد تحت إمرة الأُسطى «محمود» تمكنت من أن أكون «أنا» لكثر ما كنت أعصي أوامره. لا أدري كم كانت هذه الأفكار صائبة، ولكنني كنت أعي تماماً ما أشعر به. كنت غاضباً على أبي، وفي الوقت ذاته ما زالت مباركته لي تهمّني، لأنني كنت أهدف إلى أن أعيش حياةً مشرِّفة، كما كان يريدها لي.

«أنت محظوظ، أنا مرتاح البال لأنني أستودعك بين يدي فتاة رائعة». قالها أبي وهو يهمّ بالذهاب وتركنا. نظر إلى «آيشا» وأردف قائلاً: «ضميري في غاية الراحة».

كنت أشعر بالامتنان لأن أبي افترق عنا وتركنا. وفي طريق عودتنا إلى المنزل توجّهنا في سيرنا من «تقسيم»[18] إلى «بانجالتي»[19]، وكان طريقنا يمرّ من تحت أشجار الكستناء السامقة. كنّا نسكن بالإيجار بمبلغ بسيط في بيت صغير مكوّن من غرفة واحدة يقع على منحدر يهبط من «فري كوي» إلى «دولاب درة» لأننا لا نستطيع دفع أكثر من ذلك. كنّا حديثي عهد بالزواج، نمضي ساعات طويلة في ممارسة الحب. نتضاحك، نثرثر كثيراً ويمازح أحدنا الآخر. كنت سعيداً. أحياناً كنت أفكر بالأُسطى «محمود» وأسأل نفسي ماذا جرى له. وأشعر بأنّ هذا لن يتسبّب لي إلّا بمزيد من الشعور بالإثم، فمن الخطأ أن يبحث المرء - مثل أوديب - عن إجابة لذنب صار في طيّ النسيان.

بعد إنهاء الخدمة العسكرية عثرت على وظيفة براتب قليل في قسم البحث والتعدين بإسطنبول، في حين كان أصدقائي يقولون إن أفضل

18- بانجالتي: «PANGALTI»حي من أحياء منطقة «شيشلي» الواقعة في الجانب الأوربي من إسطنبول. أغلب سكانها كانوا من المسيحيين والأرمن. (المترجم).

19- عاصمة كازاخستان منذ عام 1998 أنشئت لتصبح عاصمة البلاد بدلاً من مدينة «آلما آتا» الحدودية. يبلغ عدد سكانها 780 ألف نسمة... (المترجم).

فرصة متاحة في تركيا أمام المهندس الجيولوجي ذي التحصيل الدراسي العالي لكسب المال هي أن يفتح محلاً للشاورمة أو يشتغل في أعمال البناء. يقولون ويمازحون بعضهم بعضاً. أيْ أن حصولي على هذه الوظيفة بحد ذاته حظٌ عظيم.

بعض الشركات التركية للمقاولات كانت تعمل في إنشاء السدود والجسور في بعض الدول العربية، وفي أوكرانيا ورومانيا، وكانوا بحاجة إلى مهندسين وجيولوجيين. في بادئ الأمر وجدت فرصة عمل في ليبيا. ولكن كان علينا أن نمضي هناك ستة أشهر على الأقل. بينما كانت «آيشا» تهوّل مسألة عدم الإنجاب، لذلك قرّرنا أن نعرض أنفسنا على طبيب معروف وموثوق، فعدنا أدراجنا إلى إسطنبول.

في 1997 عملت في شركة تعمل في دول قريبة مثل كازاخستان وأذربيجان، وهكذا قضيت خمسة عشر عاماً من حياتي في جولات مكّوكية بين هذه الدول وبين إسطنبول، استطعت خلالها أن أكسب كمية لا بأس بها من المال.

انتقلنا إلى بيت آخر في «بانجالتي» أفضل من البيت الذي كنّا نسكن فيه. وفي عطل نهايات الأسبوع حين أكون في إسطنبول كنّا أنا وزوجتي نذهب للتبضع في مراكز التسوّق، أو كنّا نذهب لمشاهدة فيلم ما، أو أصطحبها إلى مطعم لتناول بعض الأطعمة. أو نمكث في البيت لتناول العشاء أمام جهاز التلفزيون، ونتابع نشرة الأخبار ونتمتع بمشاهدة كبار مسؤولي الدولة، وسماع الخطب التي يتشدّق بها العسكر، ونتابع حديث بروفيسور معتوه، وجد طريقة سحرية للحصول على طفل، وقررنا أن نراجع طبيباً عاد مؤخراً من أمريكا. لقد اعتدنا أن نثرثر كثيراً فيما بيننا لكيلا يتسبّب عدم الإنجاب في تسميم حياتنا الزوجية السعيدة، أو تعكير الألفة القائمة بيننا.

أحياناً أذهب إلى «بشيكتاش» وأمرّ بمكتبة «دنيز». يبدو أن صاحب المكتبة السيد «دنيز» قد تأكد أنّني لن أكون كاتباً فأخذ يعرض عليّ

الشراكة. أشعر بأنني قد تمكنت من تكوين حياة ناجحة مثل الآخرين، بل وأكثر منهم بقليل. وأحياناً كنت أهمس لنفسي أنّني أنجح في التمثيل وكأن شيئاً لم يحدث في حياتي. ولم أعد أتذكر الإثم الذي ورثته منذ طفولتي إلّا في أثناء سفراتي بالطائرة، وكنت أفكر من صميم قلبي وأتساءل تُرى هل أقوم بالسفر إلى بنغازي، إلى أستانا[20] أو إلى باكو لكي أتذكر الأُسطى «محمود»، وكلّما نظرت من نافذة الطائرة إلى الأسفل إلى بلدة «أونجوران» كنت أحزن لأنني لم أخلّف أحداً من بعدي.

كانت الطائرات تدير وجهاتها صوب الغرب، بعد دقائق من إقلاعها من مطار أتاتورك في «يشيل كوي»، مثلها مثل أسراب الطيور المهاجرة التي تحلّق فوق البلدة وتتوجه نحو الشمال، وحينئذٍ تتسنى لي رؤية «أونجوران» من أعالي السماء. ليس بعيداً عن خزانات البنزين والبترول التي تبدو عظيمة وكبيرة من الجو، أكبر من «مرمرة» ومن البلاجات المنتشرة على الساحل، ومن القرى السياحية الحديثة. ولكنها كانت بعيدة كل البعد عن الأشجار المختلفة الألوان، الخضراء والصفراء والبرتقالية، ومن المساحات الشاسعة من الأراضي الغنية، المزروعة بألوان وأنواع من النبات، وكذلك أكبر من الغابات الممتدة على طول السواحل. هنالك كانت البلدة محاطة بأراضٍ قاحلة ذات تراب تختلف ألوانه من الرمادي الفاتح إلى الغامق. وما زالت الحامية العسكرية ماثلة هنالك على قارعة طريقها.

كنت أفقد هذا المنظر الذي كنت أراه من نافذة الطائرة عندما تميل مقدمة الطائرة، أو بسبب الغيوم التي تغشاه فجأة وتحول بيني وبين

20- المركز الرئيس لخطوط السكك الحديدية في منطقة تشتهر بإنتاج الحبوب وتربية الماشية، كما أنها مركز للصناعات الغذائية والتصنيع. تقع على نهر أشيم الذي يجري في السهول الشمالية الوسطى من كازاخستان. نشأت المدينة عام 1810م بوصفها قاعدة عسكرية للجيش الروسي، وسميت باسمها الكازاخي أكمولا. وفي عام 1997م، تم نقل عاصمة كازاخستان من «ألما آتا» إلى أكمولا التي تقع وسط البلاد. وفي عام 1998م أطلق على أكمولا اسم أستانا الذي يعني عاصمة في اللغة الكازاخية.

رؤيته. ولكنني كنت أفهم ما يحدث في الأسفل اعتماداً على مَلَكة الحدس لديّ.

كنا نتقدم في العمر ولا ننجب أولاداً، وكانت المعامل والمصانع والمخازن تغطي الأراضي الزراعية المنداحة بين «أونجوران» وبين إسطنبول، فكانت تبدو من عِلّيين وكأنها أرضٌ مطليّةٌ هنا وهناك بلون الرصاص وباللون الرمادي والأسود الغامق. وكانت بعض المعامل تكتب أسماءها بأحرف ملونة وكبيرة جدّاً على سطوح أبنيتها، لكي يتسنى للمسافرين على متن الطائرات قراءتها عبر النوافذ. أما الورش الصغيرة والمعامل غير المشهورة التي تختص بتجهيز المواد المكمّلة للصناعات فكانت لها أبنية حقيرة وغير مصبوغة. كلّما ارتفعت الطائرة انكشف أكثر فأكثر مدى اتساع هذه الأراضي، وبدا للعيان كم كانت محاصرة بالأكواخ المشيّدة ليلاً. فالبلدات الصغيرة والقرى المحيطة بإسطنبول مثلها مثل المدينة الكبيرة كانت تتسع وتتمدّد باضطراد، وهذا ما كان يخيفني.

وفي كل رحلة طيران أقوم بها كنت أرى أذرع المدينة آخذة في التمدّد والوصول إلى أبعد الأماكن، فيما تسير مئات الألوف من السيارات قدماً – وبإصرار يشبه إصرار النمل – تشقّ طريقها عبر الشوارع الآخذة بالتوسع. كما كنت أرى أن سرعة التطور التكنولوجي قد قضت على شغل الأُسطى محمود إلى الأبد، وعلى المهنة هذه برمّتها. فشغل حفر الآبار الذي انتقل من جيل إلى آخر منذ مئات السنين وتعارف المشتغلون فيه على استعمال المجرفة والمعول، ونصب الرافعات الخشبية وإدلاء السطول وتغليف جدران الآبار بالخرسانة كان قد انتهى بسرعة وولّى عهده إلى الأبد. عندما كنّا أنا و«آيشا» نذهب إلى جبزة لزيارة والدتي، كنت شاهدت الآبار الأرتوازية التي أنشئت على الأراضي المحيطة بالغيطان التي كان صهرنا يملكها.

ومن بعد المثاقب التي كانت تستعمل في الحفر وتدار باليد، كما لو كنت تدير بيدك مِفَكّ براغي، ظهرت مكائن تعمل بقوة المحركات.

منصّات حفر رتّبت خلف شاحنات ذات عجلات عريضة ومتينة تشبه إلى حد كبير أبراج التنقيب عن البترول، تستطيع التوصل إلى عمق خمسين متراً وتعثر على الماء في يوم واحد، في الأراضي نفسها التي يستغرق فيها الأُسطى «محمود» مع اثنين من مساعديه أسابيع طويلة. مكائن الحفر هذه تثير ضوضاء عارمة، إلّا أنها باستطاعتها مدّ أنابيب إلى أعماق الأرض، وضخ الماء إلى سطح الأرض بطريقة أسهل وبتكاليف أقلّ.

منذ بدايات التسعينيات أدت هذه الاختراعات إلى تزايد عدد الآبار، وسهّلت الحصول على المياه بشكل مؤقت في الحدائق والأراضي المشجرة في إسطنبول ولكنها في الوقت ذاته تسبّبت في نضوب الموارد المائية القريبة إلى سطح الأرض. ومع حلول سنة 2000 صار مستوى المياه الجوفية في بعض مناطق إسطنبول غوراً، ليصل إلى عمق ثمانين أو سبعين متراً في الأقل. وكان من المستحيل أن يتوصل الأُسطى «محمود» إلى هذا العمق مع اثنين من مساعديه، ويعثر على الماء. لقد كانت إسطنبول والأرض التي بنيت عليها تفقد طبيعتها وعذريّتها.

-26-

بعد عشرين سنة من أيامي في «أونجوران»، وبدعوة وُجِّهَت إليّ من قِبل واحد من أصدقاء أيام الدراسة في الجامعة التكنولوجية، سافرت إلى طهران للتباحث مع إحدى شركات النفط. وبعد دقائق معدودات من إقلاع الطائرة من المطار مالت مقدمتها من الغرب باتجاه الجنوب الشرقي فظهرت أمام ناظري «أونجوران» وإسطنبول برمّتها، رأيت كيف اندمج بعضهما مع بعض في توسعهما، فلم يعد باستطاعة المرء أن يفرق بين هذا الشارع وبين ذاك الطريق، حتى صارا جزءاً من بحر من المباني والسطوح والجوامع والمعامل. الأجيال القادمة من أهالي «أونجوران» سيتباهون باعتبارهم من سَكَنة إسطنبول.

ترى ما أهمية اسم المدينة التي يسكنها الإنسان، وما الذي يكتسبه المرء حين يسرّ في نفسه أنّه يسكن في المكان الفلاني؟ إيران كان بلداً منغلقاً على نفسه حتى بعد خمس وعشرين سنة من ثورة الخميني. كنت أجد صديقي أيام الدراسة الجامعية «مراد» مصيباً في رأيه، وأفهم مدى تفاؤله عندما كان يقول: هنالك في هذا البلد فرص عمل كبيرة بالنسبة إلى المواطن التركي، ولكنني لم أكن أشاطره رأيه هذا. فكان يشير إليّ أننا باستطاعتنا أن نحصل على مقاولات في إيران التي تعتبر دولة منتجة للبترول، كما يمكننا بيع أجهزةٍ وعُدَدٍ خاصّة بمكائن الحفر، وإنها لفرصة سانحة أن نستفيد من العداء الموجود بين إيران والغرب. ربما كان محقّاً في رأيه، ولكنني كنت أعتقد أن «CIA» سوف ترسل جواسيسها لتعقبنا

بسبب أننا نخل بشروط الحصار المفروض على إيران مثلما كانت تفعل معظم الشركات التركية. صديقي «مراد» ذلك الرجل المحافظ من أهل «ملاطية» ما كان ليحفل بالمخاطر المترتبة على ذلك بل كان يتمتع بروح المخاطرة والبحث عن المتعة في ممارسة نوع من الخدع - مثلما كنّا نفعل أيام الدراسة - من دون أن يفكر بتبعات ذلك. ولم يكن يشعر بالحرج مثلي، من عدم السماح للنساء السافرات بالخروج إلى الأزقّة في طهران.

كان ذلك في المرحلة التي كانت فيها الصحف الغربية تناقش ما جدوى قصف إيران بالقنابل، وتتساءل الصحف العلمانية والقومية في إسطنبول: «هل ستكون تركيا مثل إيران؟»، فلم أطل النقاش معه في القضايا السياسية، فمنذ اليوم الأول تكهنت إلى أننا لا نستطيع عمل أيّ شيء في طهران.

لقد أدهشني مدى التشابه الموجود بين الإيرانيين والأتراك، ولم أكن على عجلة من أمري في العودة إلى إسطنبول، فكنت أتجول في أسواق طهران وأزقتها وأجد متعة كبيرة في سوق المكتبات، وكانت فيها أنواع من التراجم لـ«نيتشه».

وتعابير وجوه الرجال ولغة أجسادهم وحركات أذرعهم وأيديهم، المارة الذين يتقابلون في الأزقة الضيّقة يتنحّون جانباً ليفسحوا المجال لبعضهم بعضاً بالمرور بطريقة فريدة، أو وقوفهم بلا شغل ولا عمل. لكم كانوا يشبهوننا نحن الأتراك بجلوسهم في المقاهي وقتلهم أوقات الفراغ بتدخين السجائر. وكانت حركة المرور في شوارع طهران من الرداءة بمكان يمكن أن نقول إنها كارثة بكل معنى الكلمة، مثلما هي عندنا في إسطنبول. دخلت إلى المكتبات في شارع «انقلاب»[21] فأدهشني هذا التنوع. نحن الأتراك حين أدرنا وجهتنا إلى الغرب نسينا إيران.

وقد اكتشفت في مدة قصيرة جدّاً وجود طبقة من العلمانيين

21- بمعنى شارع الثورة.

العصريين، الناقمين، المحبوسين بين جدران البيوت، حين اصطحبني «مراد» إلى الحفلات المختلطة التي تضم كلا الجنسين وتقدم فيها مشروبات كحولية مصنوعة في البيوت. في هذه البيوت تجد النساء سافرات. فالعلمانية تلقى صدىً واسعاً هنا في طهران، لذلك أصبح الناس ينظرون إليها على أنها من الاحتياجات الأساسية، على عكس ما هو موجود في تركيا، ينبذها الكثيرون لأنها مدعومة من الجيش.

في الليلة التالية حلَلْتُ ضيفاً على بيت آخر يغصّ بالأطفال والنساء وأقربائهم وأفراد عوائلهم، ووجدت نفسي بين رجال أعمال في لُجّة ثرثراتهم وصخب قهقهاتهم. تحدّثت مع العديد من الناس الموجودين هناك فأبدوا كياسة وبدؤوا بمجاملتي حين علموا أنّي تركي. وأبدوا إعجابهم بإسطنبول ورغبتهم في التنزه في المدينة والتبضّع من أسواقها. طلبوا إليّ أن أتكلم بالتركية، وراح بعضٌ منهم يرسم ابتسامة عريضة على وجهه مبدياً إعجابه بكلامي، حتى إن إحدى العوائل وجّهت إلينا دعوة لزيارة منتجعهم الصيفي على ساحل بحر الخزر. ولم يَدَعْ لي «مراد» المولَع بشرب الخمرة - أكثر مِنّي - فرصة للتفكير فقد سبقَني وقَبِلَ الدّعوةَ على الفور.

بينما كنت أنظر إلى الأضواء في ليل طهران اللازورديّ المظلم شعرت بأنّ «مراد» زميلي في أيام الدراسة سابقاً، لم يكن مُجرَّد متحمِّس لتطوير العلاقات بين إيران وتركيا، بل كان أكثر إصراراً من ذلك، ولربما كان قد أخذ هذه المهمة السرّية على عاتقه طوعاً. فهل كان صاحبي يعمل جاسوساً من أجل انتزاع تركيا من حلف الناتو، وإبعادها عن الغرب. لم أعد أفهم ما هي نواياه. أم كان يهدف إلى إنقاذ إيران من الوحدة التي غرقت فيها. ولربما كان همُّه هو الاستفادة من الفرصة وكسب المال من هذا البلد الذي فرض عليه الحصار.

المشروب المطعَّم بنكهة الفواكه أخذ يدير رأسي بخفّة، شعرت بأنّ لوثةً أصابتْ عقلي، إذ غشيني شعور في غاية الغرابة كأنه شوق وغضب

أبوي. كنت أشتاق لآيشا ولإسطنبول، وفي سابقة نادرة تذكرت كيف كنّا أنا والأُسطى «محمود» نسير في الليل إلى «أونجوران».

تأكد لي بما لا يقبل الشك أن هذه المشاعر قد تولّدت لديَّ بسبب رؤيتي لصورة كانت معلقة إلى الحائط وقع عليها بصري. لم تكن الصورة غريبة عليّ، ولكنني لم أكن أتذكر أين رأيتها أول مرّة، ولم أكن أفهم ما هو الموضوع. ومن جانب آخر أحسست بأنني أعرف الموضوع ولكن كنت أرغب في تناسيه. كنت في السابق قد شاهدت موقفاً عاطفيّاً مشابهاً لهذا في «أونجوران» تحت الخيمة الصفراء للمسرح. أعتقد أن الصورة أُخِذَتْ من كتاب قديم وطُبِعَتْ على تقويم معلّق على الجدار قبالتي. تُجسِّد الصورة أباً يحتضن ابنه، بإمكان المرء أن يدرك بسهولة أنّ الأب حزينٌ يبكي من أجل ابنه. وعلى ثيابهما دماء...

صاحب البيت الرجل الكهل بدى عليه أنّ الأيام عركته، انتبه إلى أنّني أطيل النظر في الصورة فجاء إليَّ. سألته عن الصورة فقال إنّه مشهد يجسد بكاء «روستم» على ابنه «سهراب» بعد أن قتله بيده، كما هو مدوّن في كتاب «شاهنامة». كانت تعابير وجهه تقول ما معناه «أنتم لا تعرفون عِظَم الألم؟». وفهمت أن الإيرانيّين ليسوا مثلنا نحن الأتراك الذين - بسبب تقليد الغرب - نسينا شعراءنا القدماء وأساطيرنا الغابرة، وأنهم لم ينسوا شعراءهم على وجه الخصوص.

قال بفخر وكبرياء: إن كنت مهتمّاً بجدّ فليذهبوا بكم إلى قصر الزهور[22]، فهذه الصورة جيء بها من هناك، سوف تجد هنالك مخطوطات ذات رسومات أكثر، وكتباً قديمة.

اصطحبني «مراد» - وليس مضيفنا صاحب البيت - إلى قصر الزهور بعد الظهر في آخر يوم لي هناك. رأيت قُصيراً بالغ الصغر بين أشجار البستان، ذكرني بقصر الزيزفون القريب من صيدليّة أبي (صيدليّة

22- كناية عن كتاب «گولستان» أي «بستان الورد» للشاعر الفارسي سعدي شيرازي.

الحياة). دخلنا صالة العرض ولم يكن هنالك أحدٌ غيرنا في هذا المبنى الظليل. فنظر إلينا الحراس ذوو الوجوه المكفهرة بنظرة ملؤها الشك ولسان حالهم يقول: ما الذي أتى بكم؟ ولم يمض وقتٌ طويل حتى ظهرتْ مجدداً صورة الأب الذي يحتضن ابنه الجريح ويحاول تضميد جراحه. فالأب هو «روستم» بطل الملحمة القومية الإيرانية. أنا أُعتبَرُ مغرماً بالكتب ولكنني مثل أيّ مواطن تركي معاصر لا أعرف من هو «روستم» ومن هو «سهراب»، وما هي الشاهنامة! ولكن الشعور الذي توقظه الصورة في روحي وأعماقي هي أنّ الرجل المنكوب كان أباً.

في واجهة المتحف لم تكن هناك لا بطاقات معايدات ولا كتب، ولم أجد أيّة صورة أو نسخة مصوَّرة من صور «روستم وسهراب». هذا ما جعلني غير مرتاح قَطّ. وكأن هنالك ذكرى ما أخاف منها ولا أريد التوصل إلى إدراكها، وأنها سوف تجعلني حزيناً حين تظهر على السطح. فهذه الصورة تماماً مثل همزات الشيطان، نريد أن ننساها إلّا أنها تتواجد أمام أعيننا. بالضبط مثل الأُسطى «محمود» الذي تركْتُه في البئر، وأريد أن أنسى سيرته، ولكن يبدو أنّني لن أفلح في مسعاي قَطّ.

«ماذا تُرى في تلك الصورة، اشرحْ لنا لنفهم نحن أيضاً»، قالها مراد.

لم أتفوَّه بأي كلام أو توضيح، ولكن في ذلك المساء الذي كنّا مدعوّين فيه إلى العشاء نهض صديقي إلى الصورة المعلَّقة على الحائط وانتزع الصورة من التقويم ووعدني بأنّ يرسلها لي إلى عنواني في إسطنبول.

وفي طريق العودة بينما كانت الطائرة قد اقتربت إلى إسطنبول ألقيت نظرة عبر النافذة، أردت رؤية «أونجوران» فلم أنجح في ذلك. كانت هنالك إسطنبول شاسعة تظهر من بين قِطَع السحاب. فبعد عشرين سنة أحسست برغبة عارمة لا تقاوم تجذبني كي أذهب إلى «أونجوران».

-27-

بدأت أقاوم الإصرار المتولد لديَّ للذهاب إلى «أونجوران». في إسطنبول في عطلات نهاية الأسبوع واظبت على التسكُّع مع زوجتي قبالة التلفزيون، أو الصعود إلى «بي أوغلو» والذهاب إلى دور السينما في محاولة لنسيان همومي العميقة. تُرى كم أنا مصيب في استخدام كلمة هموم؟ لأنني لم يكن لي همّ آخر سوى مسألة عدم الإنجاب، ولم أكن أنا السبب بل زوجتي «آيشا» حسبما قال الأطباء، وقد أمهلونا أياماً وأشهراً ولم نتوصل إلى أيّة نتائج، فكنت أفكر وأقول من الأفضل أن نتصرّف في حياتنا وكأنّ شيئاً لم يحدث.

لم يكن من السهل قَطّ أن تعثر في مكتبات إسطنبول على ترجمة للشاهنامة التي كتبها الفردوسي قبل ألف سنة. فيما مضى من الزمان كان المتنوّرون العثمانيون يعرفون شيئاً ما عن ملحمة إيران القومية هذه، أو في الأقل كانوا قد قرؤوا بعض قصصها. وبعد مرور قرنين من الزمن على محاولات التشبُّه بالغرب لن تجد عندنا أحداً يهتمُّ بهذا الكمّ الهائل من الحكايات. في العام 1940 تُرجِمَتْ هذه الملحمة إلى التركية كنثرٍ مسطّح بلا وزن وبلا قافية، ثم نُشِرَت ككتاب في سنة 1950 ضمن منشورات وزارة التربية القومية في سلسلة الآثار الكلاسيكية. قرأتُ ذلك الكتاب ذا الغلاف الأبيض الكارتوني المصفرّ. التهمتُ الكتاب كما يأكل الجائع طعامه، لكون القصة مزيجاً من نصفين؛ نصف أسطوري ونصف آخر تاريخي. بينما كان انطباعي عنه مختلفاً. بدا لي للوهلة الأولى أنّه كتاب

قصص مخيفة، وما لبثتُ أن وجدت فيه أثراً تربويّاً يُعنى بأمور الدولة والعائلة والأخلاق، وكأنه كتاب مدرسي مقرَّر. وما أثَّر فيَّ أبلغ الأثر هو أن الفردوسي قضى حياته كلّها تقريباً في كتابة التاريخ القومي لأمّته. لقد أصاب شاعرنا قدراً كبيراً من العلم والمعرفة. يبدو حبّه للكتاب جليّاً، وقد كتب تحفته هذه كرجل ذي نظرة ثاقبة، اطلع على تاريخ الأمم الأخرى وآدابها وبحث في أمهات الكتب عن ملاحمهم وأساطيرهم وحكاياتهم، في اللغات العربية والزندية[23] والفهلوية، مازجاً كل تلك الأساطير والملاحم البطولية والمناقب الدينية مع معلوماته وخبراته ومعارفه ليكتب لنا ملحمته الخاصة به.

الشاهنامة هي موسوعة لقصص الملوك والسلاطين في الأزمنة الغابرة، وحكايات الأبطال الذين كانوا على وشك أن يندثروا تحت طائلة النسيان، لولا أن خلّدهم الفردوسي في كتابه. أحياناً كنت أتصور نفسي أنّي أنا كاتب هذه الحكايات وبطلها في آن معاً. عندما كان الفردوسي على قيد الحياة فُجِعَ بفقدان ابنه، فترك ذلك الحدث الجلل تأثيراً عميقاً في حياته. فالحكايات التي كنت أقرؤها في الظلام بعد منتصف الليل يخيّل لي أنّني أقصُّها على أسماع الأُسطى «محمود» وأتذكر المرأة ذات الشعر الأحمر. لو كان باستطاعتي أن أكون كاتباً لكنت أقصّ كل ما أشاهده، لأعطيت الموضوع حقّه، ووصفت الأحداث إلى أدقّ تفاصيلها، وألّفت كتاباً موسوعيّاً يضم معلومات أثيرة. في حين أن الكتاب الذي توجّب عليّ تأليفه هو «البنية الجيولوجية لتركيا»، على أن يكون كتابي ملحميّاً

23- الزندية: تعتبر الزند من القبائل الآرية التي استوطنت منطقة جنوب إيران. سنة 1731م قام «نادر شاه» بطردهم من مناطق خراسان. أسس «كريم خان» الدولة الزندية في بلاد فارس عام 1750 واتخذ من مدينة شيراز عاصمة له حتى سقوطها في 1794 على يد القاجار. تسمى لغتهم بالزندية. وهي البهلوية أو الفَهلَوِيّة. وهي في الأساس تمثل اللغة الفارسية الوسطى التي تطورت عبر عهود طويلة. فاللغة الفهلوية الأشكانية استخدمت في عهد سلالة الأشكانيين من القرن الثالث قبل الميلاد حتى نهاية القرن الثاني بعد الميلاد. ثم سادت اللغة الفهلوية إبان الحكم الساساني من سنة 300م إلى سنة 651م. (المترجم).

موسوعياً، أكتب فيه عن البحار والسلاسل الجبلية الموجودة تحت سطح الأرض، وأمزج الحكايات مع تنوّع طبقات الأرض وأوردتها.

بينما كنت أقرأ الشاهنامة ومن الحكايات التي كانت بمثابة توطئة، وكانت حكايات عن الوحوش والعمالقة ومردة الجن والشياطين، وكانت تليها مناقب الملوك الذين خطفهم الموت، ثم مغامرات المحاربين الأشـدّاء، وعندما جاء الدور علينا نحن الناس البسطاء وهمومنا في الحياة ومشاعرنا إزاء الأب والعائلة ومشاكلنا مع الدولة، شعرت بأنني في البيت بين أشيائي المعروفة التي عهدت على رؤيتها. والأدهى من ذلك هو أنّه كلّما تقدم سرد الحكاية فكرت بأبي، ورغم أنني تذكرت الأُسطى «محمود» الذي تسبّبت في قتله. فهذا الشعور أخذ يتجسد بشكل أوضح من السابق كما في حكاية إفراسياب التي قرأتها بعد حكاية سهراب مباشرةً، فقد أقلقتني وخطر ببالي أن أقوم بترك قراءة الكتاب. ولكنني كلّما قرأت الكمّ الهائل من بحر القصص والحكايات هذه تولدت لديّ قناعةٌ هي أنّي سوف أحلّ سرّ حياتي الغامض وسوف أبلغ شاطئ الأمان.

في البيت بعد أن نامت زوجتي قرأت القصة مراراً، حتى خيّل لي أنّني سمعتها كثيراً أيام طفولتي، مثلها مثل حلم مخيف. فهمت أنّني لن أنساها وسأظل أتذكرها ما حييت، كأيّ واقعة عشتها حقيقةً.

كان «روستم» محارباً صنديداً، بطلاً لا منازع له في إيران في تلك العهود الغابرة. فالجميع كانوا يعرفونه ويحبّونه. في ذات يوم بينما كان «روستم» يجوب البراري بحثاً عن الصيد يفقد فرسه ويبدأ بالبحث عنه. وفي أثناء رحلته عن الفرس التي كان يسمّيها «رخش» لا يدري أنّه قد دخل أرض العدو. وكان «روستم» ذائع الصيت في بلاد «توران» وأشهر من نارٍ على عَلَم، وقد وصلتْ إليهم مناقبُه قبل أن يبلغ هو أراضيهم. فأكرموه وعاملوه معاملة حسنة. وما إن علم ملك «توران» بمجيء «روستم» إلى مملكته بحثاً عن فرسه حتى أكرمه وأقام مأدبة عامرة

بما لذّ وطاب من أنواع الطعام والشراب. وبعد أن شرب وانتشى وإلى غرفته انزوى، طرق بابه، وإذا بابنة ملك «توران» الأميرة «تهمينة» تدخل عليه وتعرض نفسها عليه، لأنها رأته في المأدبة التي أقيمت من أجله وأغرمت به. وأنها تتمنّى أن تنجب منه ولداً. ابنة الملك كانت فتاة جميلة في غاية الروعة. قامتها كشجرة السرو، حاجباها كأنهما قوسان متوتّران، شفتاها صغيرتان، شعرها جميل منسرح (تجسَّد شعرُها في عيني وكأن لونه أحمر)، ولم يجرؤ «روستم» على صدّ هذه الفتاة الجميلة، الرائعة، فقضى ليلته معها. فلمّا أصبحا أعطاها سواراً كي تجعله في عضد الطفل، وليكون علامة من عنده للتعرّف على ابنه، ثم قفل عائداً إلى بلده.

أطلقت أمه «تهمينة» على ابنها المولود بلا أب اسم «سهراب» وبعد سنوات حين اكتشف الفتى أن أباه هو «روستم» قال: سأذهب إلى إيران، وأطيح بعرش الشاه «كيكاووس» الظالم وسوف أنصّب أبي ملكاً على إيران. ثم أعود إلى «توران» وأخلع ملكها الظالم «أفراسياب» وأتولى الحكم من بعده. حينئذ سيحكم أبي إيران، وأنا سأحكم «توران»، وسوف نوحّد الشرق مع الغرب وننشر العدالة في العالم بأجمعه.

هكذا تحدث «سهراب» الطيب القلب، ذو النوايا الحسنة ولكنه لم يكن على دراية تامّة بما تحاك حوله من دسائس وحِيَل، برغم أن «أفراسياب» ملك بلاد «توران» كان يُعرَف بنواياه في محاربة إيران فسانده في ذلك ولكنه بثَّ العيون وزرع الجواسيس في كل مكان بين صفوف جيشه لئلّا يتعرف سهراب على أبيه «روستم»، وقضى الاثنان «الأب وابنه» وقتهما في مراقبة جيوش بعضهما بعضاً عن كثب، ومن سخرية القدر أن تقابل المحارب الأسطوري «روستم» مع ابنه «سهراب» وجهاً لوجه في ساحة القتال، من دون أن يعرف أحدُهما الآخر، وقد اختفى كل واحد منهما داخل ملابسهما المزرَّدة بالدروع والحديد، تماماً مثل «أوديب» وأبيه. لقد اعتاد «روستم» على أن يخفي شخصيَّته عن غريمه لئلّا يستخدم هذا كلّ قوّته ضدّه، وتعلّم كيف يحافظ على

قوته ومتى يظهرها لكي يفتك بعدوه. أما «سهراب» ذو القلب الطيب فلم يكن يهمه مع من يقاتل وحسب، بل كان ينظر إلى هدفه السامي البعيد، وهو إجلاس أبيه على عرش إيران. وهكذا خاض البطلان «الأب وابنه» معركتهما، وامتشق كل واحد منهما سيفه وباشرا بالقتال. وجرى بينهما صراع مرير.

وقد أطنب «الفردوسي» في وصف جولات النزال الذي دار بين البطلين «الأب والابن» حيث استمر القتال حيناً طوال النهار وحيناً آخر دام أياماً وليالي. كانت قواي تخور عند قراءة هذه الحكاية، لا لأن تأثيرها يظهر عليّ واضحاً وحسب، بل لأنني كنت أتخيل أنّني عشت أحداثاً مماثلة لهذه الحادثة قبل قراءتي لها. ومع ذلك كنت أبحث عن هذه المشاعر. والآن فيما كنت أقرأ صفحات هذا السِّفر القديم كانت خواطري القديمة تعود إليها الروح مجدداً. وتتماهى روحي مع روح الحكاية فأتذكر تلك الفرقة المسرحية وخيمتها الصفراء في «أونجوران».

-28-

عندما أفكر بدم بارد وأنظر من بعيد أستطيع بكل بساطة أن أعدد نقاط التشابه التي جعلت من حكاية معروفة مثل حكاية «سهراب وروستم» شبيهة بحكاية «أوديب». هنالك أوجه تشابه تدعو إلى الاستغراب بين حكاية أوديب وبين حكاية سهراب، ولكن قبل هذا وذاك يجدر القول إن هنالك فروقات عامة بين الحكايتين. ففي الأولى يقتل أوديب أباه، وفي الحكاية الثانية يُقتل سهراب على يد أبيه. في إحداها يكون الابن قاتلاً، وفي الأخرى يكون الأب قاتل ابنه. هذا الفارق الكبير كان بمثابة تأكيد على أوجه التشابه بين الحكايتين أيضاً. هو الآخر لم يكن يعرف أباه، وهذا يتم تكراره للقارئ لكي يتذكّر، وإن كان من سيقتله هو أبوه الذي لم يقابله في حياته أبداً.

كان النزال بين الأب وابنه يطول ويطول مثلما كان البحث عن قاتل الأب في حكاية أوديب يطول. ففي اليوم الأول نازل أحدهما الآخر برماح قصيرة وما هي ساعات حتى تحطَّم الرمحان على درعَيهما. بعد ذلك امتشقا سيفين هنديَّين واستمرّا في القتال. كلّما اصطدم سيفاهما تطاير الشرر أمام أعين الجنود من كلا الجيشين. وهكذا تمزق السيفان أيضاً، فوقع اختيارهما على دبّوسين حديديَّين ليتقاتلا بهما. فالتوى الدّبُّوسان وتمزَّق درعاهما تحت وقع الضربات. ونال التعب منهما كما نال من فرسَيهما، فتباطأت حركاتهما. في خيمة المسرح التابعة للمرأة ذات الشعر الأحمر التي نصبت في «أونجوران» لم يقدم سوى عرض مختصر لنهاية هذه المنازلة.

في اليوم الأول هوى سهراب بهراوته الحديدية على كتف أبيه

وجرحه، وفي اليوم الثاني أصبت بالدهشة لأن القتال كاد ينتهي نهايةً مأساوية وسريعة حين مسك الشاب «سهراب» أباه من وسطه وطرحه أرضاً ثم جثا على صدره، شاهراً خنجره الصقيل، وهمّ بحز رقبة أبيه. لكن «روستم» فاض صدره وأخذ يتكلّم، فعمد إلى المكر. استطاع أن يخدع الشاب. «لا تقتلْني من الكرّة الأولى، إذا طرحتَني أرضاً مرَّتين، فلكَ روحي، افعلْ بي ما تشاء»، قالها أبوه «روستم»، «آنئذٍ تكون حياتي ملك يمينك، ويحق لك أن تقتلني. فإذا وافقتني فسوف تَرى هذه الجموع فيك أمارات الشجاعة والمروءة». هاتفٌ ما أخذ يتردَّدُ في صميم قلب الفتى فوافق هواه أن يسامح هذا المحارب الهَرِم ويسامحه هذه المرّة فأطلقَه. إلّا أن أصحابه أشاروا إلى المحارب الشابّ أنّه قد اقترف خطأً فادحاً، وما كان له أنْ يستخفّ بعدوِّه، فلمْ يأبَه بكلامهم.

وفي اليوم الثالث وفي بداية النزال قام «روستم» بحركة خاطفة طرح فيها ابنه أرضاً، وقبل أن يتسنَّى لي أنا كقارئ لأسأل عمّا يحدث وإذا بروستم يشهر سيفه ويطعن ابنه سهراب، ثم يشقّ صدرَه. أصابتْني الدّهشة بالضبط مثلما شعرتُ حين سمعت الحكاية لأول مرّة في «أونجوران» قبل سنوات.

أوديب أيضاً يعمد إلى قتل أبيه، هكذا بسرعة خاطفة في مفترق إحدى الطرق، في لحظة من لحظات الغضب. في أثناء ذلك «أوديب» و«روستم» كأنهما فقدا عقليهما، أو لكأن الله سلبهما نعمة الإدراك، من أجل أن يستمر نظام الكون على المنوال الذي وضعه، ولكي يستطيع الأب أن يقتل ابنه، والابن أن يقتل أباه ببساطة.

فهل يمكننا أن نعتبرهما بريئين؟ قدماء الإغريق عندما شاهدوا ملهاة «أوديب» كانوا يفكرون مثلما يفكر الأُسطى «محمود» قبل سنوات، إذ كانوا يعتبرون أوديب آثماً، لا لأنه قام بقتل أبيه وحسب بل لأنه شقّ عصا الطاعة على الآلهة، وأراد أن يتمرَّد على القدر المكتوب له من الله. ولم يكن إثم «روستم» هو قتل ابنه، بل لأنه لم يقم بواجب الأبوّة

إزاء ابنه الذي ولد كثمرة جاءت إثر نزوة عابرة قضاها الرجل ذات ليلة. ويمكن القول إن أوديب فقأ عينيه بيديه تحت تأثير الشعور بالذنب، إلّا أن الإغريق القدماء كانوا يعتقدون أنّه عوقب لأنه لمْ يرضَ بالقدر الذي وهبه الله له. وعندما أفكر بالتساوق المنطقي نفسه كنت أعتقد أن «روستم» أيضاً يجب أن يعاقب على ما جنتْ يداه، ولكنه لم يعاقب مثلما نرى ذلك في خاتمة الحكاية التي انتقلت إلينا من الشرق. ولم يبقَ لنا نحن القُرّاء أيُّ خيار آخر سوى أن نحزن، وأن نسأل هل الأب الشرقيّ لن يعاقبه أحد؟

أحياناً في الليل - فيما أنا مستلقٍ جنب زوجتي - كنت أستيقظ من النوم وأفكر في هذه الأمور. يتسلّل ضوء مصباح «النيون» من الخارج عبر الستارة التي ظلت نصف مفتوحة، لينير وجه زوجتي ويغسل جبينها الجميل وشفتيها. وعلى الرغم من عدم إنجابنا للأولاد فإننا كنّا نشعر بالسعادة. كنت أنهض من الفراش وألقي نظرة من الشباك الأمامي وأسأل نفسي عن السبب الذي يدفعني إلى هذه الموضوعات. في الخارج ثَمَّةَ ليل يهطل فيه الثلج، العمارة القديمة التي نسكن فيها تفيض عيونُ المرازيب فيها بحزن. تمرُّ عبر الزقاق المظلم سيارةُ شرطة يتراقص ضوءُها الأزرق. في تلك الأيام كان هنالك صراع بين مؤيِّدي الانضمام إلى الاتحاد الأوروبيّ وبين القوميِّين والإسلاميِّين. وكان كلُّ طرف من أطراف الصراع يتخذ العلم التركي كسلاح لمواجهة خصومهم. وكانت هنالك أعلامٌ تركية ترفرف في أغلب أزقة إسطنبول وحاراتها، وفوق أبراج الحاميات العسكرية، وعلى أعلى النقاط في المدينة.

أحياناً كان هدير طائرة مارّة من فوقنا في ظلام الليل يذكّرني بالأُسطى «محمود»، ولأن الناس نيام كان يخيل لي أن الطائرة التي تحوم فوق وبين الغيوم المتلبِّدة فوق سماء المدينة كانت تبعث لي إشارةً خاصّة. لو كنت أنا في داخل الطائرة في وضح النهار لكانت عيناي تبحثان عن بئر الأُسطى «محمود» وبالطبع لم أكن لأجده، لأن إسطنبول لكثرة ما

توسعت قد ابتلعت «أونجوران». واختفت بئر الأُسطى محمود في مكان ما بين غابة المدينة. ومع ذلك كنت أرى أنّه يتوجَّب عليّ أن أذهب إلى «أونجوران» لمعرفة إن كنت مذنباً أم لا؟ وبدلاً من ذلك رحت أعيد قراءة الشاهنامة و«الملك أوديب» وأتمالك نفسي فأكتفي بمقارنة حكايات «روستم وسهراب» و«أوديب» مع حكايات أخرى غيرها.

-29-

في غمرة الحياة وتدفُّق سيلها العادي اكتسبتُ خبرةً من خلال مقارنة الآباء والبنين الذين كنت أقابلهم مع «أوديب» و«روستم». في طريق عودتي من العمل إلى البيت مشياً على الأقدام كنت ساهياً، سمعت زعيق صاحب البوفيه القريب يوبِّخ صبيَّه، فتصوَّرت أنّه يمكن أن يكون نظيراً لروستم. أمّا الصبي ذو العينين الخضراوين فقد بدا لي أنّه على استعداد ليخطف الساطور الطويل من يد صانع الشاورما ويقتصّ من مُعلِّمه. وحين ذهبنا لزيارة عائلة إحدى صديقات «آيشا» للتهنئة بعيد ميلاد ولدهم، راعَني تصرُّف الأب القاسي الفظّ، وقلتُ في نفسي هذا الرجل ما هو إلّا نسخة حمقاء من «روستم».

وفي هذه المرحلة من حياتي واظبت على متابعة الصحف التي كانت تولي جُلّ اهتمامها بأخبار المجتمع من جرائم وفضائح لأنني كنت أجد كثيراً من القصص المشابهة لحكاية «أوديب» و«روستم». وكان هنالك نوعان من القصص المرغوب في قراءتها من الجمهور. وهي: أولاً: أب يضاجع زوجة الابن الغائب، إما لكونه جنديّاً يخدم العلم، أو لكونه محكوماً يقضي مدة حكمه في السجن، أو مهاجراً إلى بعيد. وتجد أن الابن يقتل أباه عندما يأتي إلى البيت ويكتشف الحقيقة. أما النوع الثاني من الجرائم التي تقترف فكانت بسبب الكبت الجنسي. فعلى سبيل المثال تجد شابّاً تعتريه نوبة من الجنون فيقوم باغتصاب أمه، وكذلك يعمد إلى قتل أبيه الذي يعترض طريقه. وكان هؤلاء هم أكثر الأولاد

الذين ينبذهم المجتمع. ليس بسبب قتلهم لآبائهم وحسب، بل وبسبب اغتصابهم لأمهاتهم. هنالك آغاوات السجن وقبضايات السجون أو المرشحون للترفيع إلى مراتب أعلى كقتلة مأجورين، ممَّن يظنّون أنهم مكلَّفون بتطهير الأرض من هكذا قذارات، يقومون بتصفية هؤلاء المغتصبين لأمّهاتهم، سعياً وراء الشهرة ولتكبير الهالة حول أسمائهم. وكانت الدولة، ومصلحة السجون، والصحفيون، يغضّون الطرف عن جرائم القتل هذه. والمجتمع برمّته لم يرفّ له جفن إزاء هذه الجرائم.

بعد مرور عشرين سنة على البئر الذي حفرناه مع الأُسطى «محمود» بدأتْ زوجتي «آيشا» تشاركني اهتمامي بأوديب وسهراب. ولحدّ اللحظة تلك لم أكن قد كلّمتها عن الأُسطى «محمود» ولكنها فسّرتْ اهتمامي بملهاة سوفوكليس والأسطورة التي يرويها الفردوسي على شكل آخر، وعَزَتْ ذلك إلى أننا لا ننجب الأولاد. وكانت تقاسمني انفعالاتي. وفي بعض الأحيان كنّا أنا وزوجتي «آيشا» نقوم بتصنيف الناس إلى طبقتين؛ إما روستميّ وإما أوديبوسيّ الطَّبْع، ونقول إن الآباء المشفقين ذوي النوايا الحسنة الذين يزرعون الخوف في أبنائهم هم من أمثال روستم، ولكن روستم ترك ابنه ورحل. والذين يشقّون عصا الطاعة على آبائهم هم مثل «أوديب». حسنٌ إذن فمن هو أوديب المنبوذ؟ كنّا نتناقش عن عقدة أوديب أو سهراب، وعن كيفية حماية ابننا الذي لم ننجبه بعد، وكيف السبيل إلى تحصينه لئلّا يصاب بعقدة «أوديب» أو بلوثة «سهراب». كنّا نتقاسم آراءنا مع بعضنا بعضاً، وبخاصة تلك الآراء التي تتكون لدينا بعد تحقيق زيارات إلى عوائل أصدقائنا المقرّبين الذين لهم أولاد. فنصنّف الآباء إلى متجبّرين، عاديّين، أو سفهاء. أمّا الأولاد فإمّا عصاة وإمّا مسحوقون. كانت هذه التشبيهات تجعل حرماننا من الذُّرّية شيئاً أكثر عمقاً وتأثيراً، فضلاً عن أنها كانت تقرّبنا إلى بعضنا بعضاً أكثر فأكثر.

الشركة التي كنتُ أعمل فيها كانت لها علاقات طيبة مع البلدية

ومع الحزب الحاكم. وكنا نجني فوائد كثيرة من خطط الإعمار التي كانت تعلنها الحكومة وما تصدر من قرارات بشأن رفع الحد الأعلى لعُلُوّ المباني، وكنا نتوصّل إلى معرفة المشروعات قبل الإعلان عنها، مثل شقّ الطرق وتوسيع الطرقات القديمة، ونية الحكومة في شراء الأراضي التي ستشملها هذه المشروعات فكنّا نشتري تلك الأراضي، كما كنّا سبّاقين في الاستفادة من قروض الإسكان والعقارات. كنت أرى موقفنا هذا سليماً لا شائبة فيه. وما نقوم به هو أخلاقي بحت. وفي معظم الأحيان كنت أفكر بأبي وأسأل نفسي، ماذا يقول أبي لو علم أن ابنه يتحرك على هوى بعض الإداريين في الحزب الحاكم، يدعم فعالياتهم الثقافية والخيرية ويشاركهم حفلاتهم التي تتخلّلها أنواع من الخطابات الحماسية. ماذا يقول لي أبي لو عرف أن ابنه قد ذهب إلى أبعد من ذلك حين أخذ على عاتقه إدارة بعض أعمالهم وتلبية بعض مطالب الحزب الحاكم؟ قضيت سنوات طويلة وأنا ناقم على أبي لأنه هجرنا، ولكنني الآن لم أعد كذلك لأنني أشعر بأنه لن يرضى عني إزاء تصرفي هذا.

نحن نطمح إلى أن يكون لنا أبٌ قويّ وذو بأس شديد. يطلب إلينا أن نأتمر بأوامره، أن نفعل هذا ولا نفعل ذاك. لماذا؟ ما الذي نفعله وما لا نفعله، ما هو الصواب وما هو الخطأ؟ ما هو الأخلاقي وما هو المشين؟ تُرى هل نحن بحاجة ماسّة لمَن يبارك أفعالنا، ولنسمعَ ملء آذاننا أننا لسنا مذنبين ولا مخطئين؟ وهل الحاجة إلى الأب ملازمة لنا في كل زمان أم أننا نحتاج إليه فقط عندما تختلط علينا الأمور، حين تعتصر الهموم أرواحنا ويتحطّم العالم الذي بنيناه؟

-30-

بعد الأربعين صرت مثل أبي، بدأت أعاني من نوع خفيف من الأرق ليلاً. فكلّما استيقظتُ في منتصف الليل ذهبت إلى مكتبي بهدف الاستفادة من وقتي طالما أنا صاحٍ. أراجع الملفّات التي جلبتُها معي إلى البيت، أتفحَّصُ كتالوجات المواد الإنشائية وأقرأ تفاصيل العقود المبرمة. كل هذه الأعمال المكدّسة تقضُّ مضجعي فيغادر النوم أجفاني. في كلِّ مرّة أقرأ الشاهنامة أو أوديب وأكرّر قراءتهما كأيّ حكاية قديمة، كنت أشعر بأنّ روحي تتطهّر من الفلوس والأرقام. وأكتشف أن باستطاعتي الخلود إلى النوم براحة تامة. موضوعات الحكاية تدور حول الشعور بالذنب، وبرغم ذلك كانت تطهّرني من هذا الشعور كلّما أعدتُ قراءتها مرّة إثر أخرى.

قراءة نصٍّ واحد بعينه كما لو كنت أردّد دعاءً من الأدعية كان له وقع طيِّب في نفسي، ولكنني اكتشفت مع مرور الزمن أنّي كنت مهتمّاً بجانب واحد فقط من الشيء الذي كنت أقرؤه، ألَا وهو قصة كتبت في الغرب، وأخرى مثيلة لها كتبت في الشرق. وبينما أعيد قراءة الحكايتين – إحداهما كتبت في اليونان القديمة، في الغرب، والأخرى في إيران، في الشرق – كنت أجسّد أمام عيني القليل من تلك الهموم والأخلاقيات الكبيرة والقيم الإنسانية التي تحدَّث عنها الأبطال. أفضل مثال على هذا هو زواج أوديب من أمه «جوكاستيا». فلا أستطيع تجسيد هذا الفعل أمام ناظريَّ، إلّا أنّه كمُجرَّد فكرة (كذنب عظيم)

أتعدّاها وأمضي. فإنني كنت أفكر في الأمر، ولا أجرؤ على تحويل الفكرة إلى صور في مخيّلتي.

مثال آخر هو الشيء الذي جعل أوديب وسهراب يتشابهان، أو صيَّرهما شقيقين. وهو افتقادهما الأب. هو جملة الانفعالات التي صاحبت بحثهما عن أب. ولم أكن قد توقفت بما فيه الكفاية على جانب مهمّ من حياة «أوديب» و«سهراب» وهو بُعدُهما عن أبويهما. فقلت في نفسي إنك كنت تخفي - حتى عن نفسك - أنك كنت تبحث عن أيّ شخص كي تتخذه أباً لنفسك. فأبي تركني مثلما فعل «روستم» مع ابنه سهراب. تركني وذهب إلى السجن أولاً، ثم هجرنا ليكوّن لنفسه حياةً أخرى. وما عساي أن أفعل! رحت أبحث عن أشخاص آخرين ليلعبوا في حياتي دور الأب، وأرغمت على الإصغاء لنصائحهم. وما زلت إلى الآن أتذكر الأُسطى «محمود» وهو يتربّع في زاوية ما من عقلي ويصغر شيئاً فشيئاً حتى يتحوّل إلى قمع صغير يحفر بئراً في جانب من الكرة الأرضية ويخرج من طرفها الآخر. وفي بعض الأحيان كان يغيّر هندامه ويدخل أحلامي ليقصّ عليّ الحكايات.

من النتائج الأخرى التي أُصِبتُ بها من جرّاء البحث المخيب للآمال عن أب، هو ما قالته لي الست «فكرية خانم» مديرة مكتبة «طوب قابي» بينما كنّا جالسين في الحديقة الكبيرة لـ«قصر عبد المجيد» نتجاذب أطراف الحديث. كان البروفيسور «هاشم» أستاذ الأدب - وهو من معارفي ومن رواد دار مكتبة «دنيز» - قد كلّم «فكرية خانم» عني وعن مدى اهتمامي بحكاية «روستم وسهراب» وأنها قالت له: «ليأتِ إليّ... سأريه أنواعاً من الصور القديمة الجميلة، من الشاهنامة» (فما زال هنالك الكثير من الناس الطيبين في إسطنبول).

إدارة المتحف لا تعرض تلك الصور على الملأ، ولكن الفهارست التي تنشرها تحتوي على أندر وأغلى المخطوطات الفارسية الموجودة في العالم. حتى إنها تضاهي متحف التماثيل القائم في سراي الزهور

بمدينة طهران. تشكّلت النواة الأولى لمتحف «طوب قابي»[24] من الكتب والمخطوطات التي جاء بها السلطان «سليم ياوز» من «تبريز» بعد احتلالها والانتصار على «إسماعيل الصفوي» في العام 1514 في معركة «جالديران» الواقعة في جنوب بحيرة «وان». كانت خزائن الشاه إسماعيل تحتوي على الغنائم التي سلبها من خزائن الملوك والأمراء الذين هزمهم مثل دولة الخروف الأبيض والخان شيباني الأوزبكي، ومن بينها مخطوطات ونماذج نادرة من الشاهنامة، وكان أغلبها مطعَّماً بالصور والمنمنمات والزخارف. وفي الحقبة التي أعقبت ذلك التاريخ دامت الحرب بين العثمانيين وبين الصفويين لأكثر من قرنين من الزمن، شهدت تبريز خلالها اندحارات وانتصارات كلا الفريقين، وقد تغيرت القبضة التي تتحكم بالمدينة لعشر مرات. وبعد أن وضعت الحرب أوزارها أرسل الصفويّون سفراء للمصالحة، وكلّما أرسلوا مبعوثاً حمّلوه بالمزيد من الهدايا. وأغلب تلك الهدايا كانت عبارة عن مخطوطات للشاهنامة. فالفرس كانوا يشعرون بالفخر حينما يقدّمون هدايا من كتابهم المفضل الشاهنامة. كانوا يقدّمون نسخاً مصورة مزخرفة ومزوَّقة بالرسومات. كانت تلك التّحف تذهب إلى خزائن «طوب قابي» لتحفظ هناك.

أخذت «فكرية خانم» تجود عليّ بعرض أجمل الصور وأروع الصفحات من نماذج الشاهنامات الموجودة لديها في المكتبة. فكنا نتأمل معاً الصور التي تجسد احتضان «روستم» لجثة ابنه الملطخة بالدماء، وهو ينتف شعر رأسه ولحيته ويبكي بحرقة من أجل فلذة كبده الذي قتله بيديه. في البدء كنت أشعر بالذنب بشكل مكثف مثلما شعرت به في السابق حينما كنت أزور خيمة المسرح في «أونجوران». إنّه شعور بالندم أصاب أباً تلطخت يداه بقتل فلذة كبده. إنّه شعور رهيب يشبه الشعور بالندم والخجل الذي يتولد لدى المرء حين يحطم أشياء جميلة أو يشوهها دون قصد! كانت تتجسد في نظرات الأب تلك المشاعر التي

24- تُكتب في الأدبيات التاريخية نحو «طوبقبو سراي». (المترجم).

يتمنى صاحبها لو أن اللحظات الأخيرة في ذلك المشهد ما قبل القتل تعاد إلى الوراء.

في ذلك اليوم أرتني «فكرية خانم» صوراً كثيرة. وبعد أن تأخر الوقت وأظلم الجو قالت لي: «أشكرك لأنك قبلت زيارتي»، ثم أردفتْ قائلة: «راق لي كثيراً اهتمامكم الكبير بروستم وسهراب. نحن هنا وحيدون دائماً، ولن نجد أحداً يهتم بهذه الحكايات غيرنا. حسنٌ ما الذي وجدتموه في هذه الحكاية؟».

«قتل الأب لابنه، ثم ندمه أثّر فِيَّ كثيراً»، قلتُ، «كنت قد شاهدت عرضاً مشابهاً لهذا المشهد قبل سنوات في خيمة للمسرح نُصبت في إحدى ضواحي إسطنبول».

«هل علاقتكم مع أبيكم سيئة؟»، سألتني «فكرية خانم» حين رأت أنني تلكّأت في الإجابة، ثم أضافت قائلة: «نحن الأتراك أهملنا الشاهنامة، لم نعد نعيش في عالم يتمتع بقراءة حكايات قديمة فيها محاربون أبطال أمثال روستم، حتى إن كتاب الفردوسي صار في طيّ النسيان. ولكن القصص التي تحتويها الشاهنامة لم تُنسَ، بل استبدلتْ لبوسها وما زالت إلى الآن مفعمة بالحياة، تتنفس وتتجوّل بين ظهرانينا».

«كيف؟».

قالت مديرة المكتبة:

«قبل ليلة أنا ومساعدتي «طوبا» تابعنا فيلماً قديماً من أفلام «إبراهيم تاتلي سس» عرض على قناة 7، كان فيلماً مستوحى من الشاهنامة من قصة حب أردشير والجارية جولنار. كنّا نتابع مشاهدة أفلام «يشيل جام» لأنها تذكرنا بإسطنبول الجميلة أيام زمان، وكذلك كنّا نشخّص القصص التي كانت تُستوحى من الشاهنامة أو من كتب أخرى. آه كم تغيرت إسطنبول، أليس كذلك يا سيد «جيم»؟ ومع ذلك فإن العين لا تخطئ الأزقة القديمة والميادين مثلما تشخص حكايات الشاهنامة. فلا يمكن للمرء أن يتغاضى عنها. تابعنا قبل مدة فيلماً معاصراً تقع أحداثه في هذه

الأيام التي نعيشها في الوقت الحاضر ولكننا توصَّلنا إلى تحليل الفيلم بكونه نسخة مطابقة من حكاية «خسرو وشيرين». أنا برأيي أنَّ هذه الكتب وإن صارت في طيّ النسيان إلّا أنها ظلَّت حية إلى الآن عن طريق هذه الحكايات، ونتذكر الحكايات الغابرة فيما نشاهد ميلودرامات «يشيل جام» ولربما يوجد أناس مثلكم يقرؤون الحكايات ويكتبون قصصاً للسينما التركية أو الإيرانية. جمهور هذه القصص منتشرون في باكستان والهند وفي آسيا الوسطى ويصنعون الأفلام مثلما تصنع في «يشيل جام».

ذكّرتُ «فكرية خانم» أنّني لست كاتب سيناريوهات بل أنا مهندس جيولوجي بدأت أولي اهتمامي بالحكايات القديمة بعد أن سافرت إلى إيران مراراً. سألتها إن كانت قد سمعت أم أنها لم تسمع عن أن الحكومة الحالية في إيران قد أخذت تقتفي آثار صورة مفقودة تمثل «روستم» وهو حزين يبكي ابنه سهراب؟ وأنّ الصورة موجودة حاليّاً في متحف متروبوليتان في نيويورك، وأنّ إيران لم تدَّخر وسعاً إلّا واستخدمته من أجل استعادتها. قلتُ لها إن إيران قد عرضت أموالاً طائلة على بعض التجار الحاذقين من أجل شراء واسترداد تلك التحفة النادرة.

«سيد جيم هل سمعتم هذه الإشاعات المتداولة بين مقتني المخطوطات الإسلامية من الأستاذ هاشم؟»، سألتني فكرية خانم. «الكتاب الذي تتحدث عنه كان موجوداً عندنا هنا في «طوب قابي» وعندما ترك السلاطين «طوب قابي» سرق من هنا وتم تهريبه إلى الغرب. في البداية وصل إلى يدَيْ عائلة «روتشيلد» ثم بيع إلى أمريكا. فهذا الكتاب حاله حال أبطاله التعساء قد قضى جل حياته في المنافي، تلقفته أيدي الغير في بلدان الغربة وصار أداة طيّعة بأيدي الساسة والقوميّين».

«كيف؟».

«هل فكرتم بمن يسمّون بالروم أو توران؟ منْ يتم الحديث عنهم في الشاهنامة كأعداء، أولئك الذين تُكسر أنوفهم على الدوام، من هم؟ هم نحن الأتراك، في حين خزائن مكتباتنا مليئة بالشاهنامة».

قلت مبتسماً:

«في سنة ألف، أيْ في السنة التي كتبت فيها الشاهنامة لم يكن الأتراك قد جاؤوا بعد من آسيا».

«أنتم أعلم وأكثر اهتماماً من أيّ بروفيسور ولكنكم ما زلتم مبتدئين»، قالتها «فكرية خانم» بلطف وأوقفتني عند حدّي. ثم استمرّت بعرض كثير من المخطوطات والرسومات، وسرد العديد من القصص على مسمعي.

وصْفُها لي بكلمة «مبتدئ» لم يكسر قلبي، ولكنها كانت كافية لتجعلني أتذكر أنّي عاطفي في أساليب أبحاثي. ففي كل تلك الصور كان هنالك نموذج للمرأة التي تراقب اقتتال الأب مع ابنه، ونساء يبكين وهن ينظرن إلى الأب الذي يحتضن جسد ابنه المضرج بالدماء. كلّما رأيتهن كنت أتخيل أنّي أصبغ شعورهن بالأحمر مثلما كنت أفعل في طفولتي حين ألوّن المساحات الفارغة من الصور في دفتر الرسم.

ثقل تلك الأيام التي عشتها مع مُعلِّمي حين كنّا نحفر بئراً قد خفّ بعد انقضاء خمس وعشرين سنة، أمّا ما أعاني من فوضى فقد حل محل رغبتي – التي انطفأت – في أن أكون كاتباً، وهي منحتني مشاعر صميمية كنت أفتقدها في حياتي العملية.

تقدّمتُ بآيات الشكر إلى «فكرية خانم» التي دعتْني إلى مكتبها الخاص وإلى حجرة المتحف من أجل إعطائي معلومات أكثر. كان مساءً من أماسي الخريف، وقد أُغلقت أبواب المتحف أمام الزوار، ولم يكن في الجوار أيٌّ من السيّاح. جلسنا معاً هناك حتى خيّم الظلام. بينما كنّا نمر من تحت أعمدة الرواقات الظليلة والفناءات المفروشة بأوراق صفراء من أشجار الكستناء وأشجار الجميز شعرت بشيء غريب ربما هو الشعور بالتاريخ. شعور بالتاريخ لمهندسٍ هاوٍ يقوم ببحث أدبي تتخلّله ألعاب وخزعبلات، ليخفف من حدة الشعور بالذنب. لكي يتهاود شعوره هذا بحيث يمكن النزول به إلى مستوى يمكن تحمُّله.

برغم أن «فكرية خانم» ليس لها أيّ اهتمام بالسياسة، كشفت لي عن أن المسؤولين عن إدارة شؤون المكتبة الذين جيء بهم من أجل حماية مخطوطة الشاهنامة لهم علاقة بالسياسة القومية، كما أوضحت بعض نقاط التشابه المشتركة بين أوديب وسهراب، وهي الإبعاد السياسي، أيْ النفي، أو الاغتراب عن الوطن الأم. كان أبي يهتم بهذا الموضوع دوماً وعلى نحو عاطفي. إذ إنَّ بعضاً من أصدقائه في التنظيم السياسي علموا ما ينتظرهم بعد حدوث الانقلاب العسكري لذلك فرّوا إلى ألمانيا. أما بعضهم الآخر من أمثال أبي ومن لفّ لفَّه ممن لم يقدروا على الهرب أو شعروا بأنهم ليسوا مذنبين إلى الحد الذي يستوجب هروبهم من وجه القانون، أو ظنوا أنه لن يتمكن أحد من إلقاء القبض عليهم، إلّا أنهم وقعوا في أيدي الشرطة في نهاية المطاف وتعرضوا للتعذيب.

في الواقع نرى أن أوديب وسهراب وفي خِضَمّ البحث عن أبويهما تغرّبا عن ديارهما، وابتعدا عن المدينة التي ترعرعا فيها، وبذلك سقطا في موقف شائن، استخدمتهم البلدان - العدوة لبلدهم - والمضيفة لهم لتجعلهم مُجرَّد خائنين. ففي كلتا الحكايتين نجد أن الشعور القومي لم يكن في موقع الصدارة بشكل واضح، بل الرباط العائلي، الإخلاص للملك، الطاعة للسلطان وللأب تجدها أكثر أهمية من الأواصر القومية، لذلك لم يتم التأكيد على هذه المعضلة. وهكذا تجد أن الأميرين أوديب وسهراب أخذا يتواطآن مع أعداء بلديهما في أثناء رحلة البحث عن والديهما.

-31-

بعد أن بلغت أنا الأربعين من العمر، وناهزت «آيشا» الثامنة والثلاثين اقتنعتْ زوجتي - ثم اقتنعتُ أنا أيضاً - بأنّ أحلامنا في الإنجاب لن تتحقق بعد هذا أبداً. بعد معاناة طويلة على أيدي الأطباء المحليّين، وبعد العذاب الذي قاسيناه على أيدي الأطباء الألمان والأمريكان في مستشفياتهم ومختبراتهم، يمكنني القول إننا استسلمنا إلى قدرنا تماماً. ولم نكسب من كل هذه التجارب والتحاليل التي أجريت لنا، غير الإرهاق ومزيد من خيبة الأمل. ولكننا ازددنا التصاقاً بعضنا ببعض، وازدادت أواصر الصداقة بيننا متانة، وصرنا حميميين أكثر من ذي قبل. وعندما تأكد لنا بما لا يقبل الشك أننا لن ننجب ولن يكون لنا ولد، وجدنا أننا نختلف عن بقية الأُسر. صرنا أكثر عقلانية منهم. حتى إن «آيشا» بدأت تشعر بالضجر من صديقاتها، وخاصة اللائي أنجبن العديد من الأطفال، بلغ بها الضجر إلى حد التذمر حين بدأن بإظهار تعاطفهن معها، وإشفاقهن عليها لأنها عاقر. آنئذ قررنا أن نؤسس شركة صغيرة تتعهد بإكمال الأعمال الثانوية التي تأبى الشركات الكبرى - مثل الشركة التي أعمل فيها - تنفيذها. فطلبت إليها أن تضطلع هي شخصيّاً بإدارة الشركة، أيْ أن تكون بمنصب مدير مفوض لإدارة الشركة. وقد تعلمت «آيشا» في وقت قياسي قصير آلية توجيه المهندسين وكيفية التعامل مع الأسطوات والعمال، أما أنا فكنت أقف خلفها، داعماً إياها ومسانداً. وهذا الكيان أسميناه «شركة سهراب» ليكون ابناً لنا.

واظبنا على السفر مثل أيّ زوجين سعيدين يذهبان لقضاء شهر العسل. في رحلة الطيران كنت أضع رأسي في حجر زوجتي وأمدّ رقبتي لأنظر عبر نافذة الطائرة لأحظى برؤية «أونجوران» وكانت «آيشا» تقابل رغبتي هذه في النظر إلى الخارج بسرور.

في بداية موسم الصيف انتقلنا إلى شقّة أغلى ثمناً في «جوموش صويو»[25]، شقّة لها إطلالة على البحر، مكونة من أربع غرف. في أثناء سفراتنا كنّا ننزل في أفخم الفنادق. نتجول كثيراً ونزور المتاحف ونتمتع بمشاهدة الرسومات، وبين الحين والآخر كنّا نحمل ملفّنا ونراجع طبيباً أخصّائي «نساء وتوليد». كانت هذه المراجعات تمنحنا بصيصاً من الأمل في بادئ الأمر، وبعد ذلك تأتي النتيجة ثقيلة على القلب، مخيِّبة للآمال كما في كل مرّة.

في ذات مرّة توسَّط لي أحد الدبلوماسيين فدخلت إلى مكتبة «جيستر بيتي»[26] في دبلن، وبعد مرور سنة على ذلك التاريخ ذهبت إلى المتحف البريطاني بتوصية من لدن «فكرية خانم» وتمكنت من أن أمتّع ناظريَّ بمشاهدة الصور الموجودة من نُسَخ الشاهنامة المحفوظة في الجناح الخاص في المكتبة، والمخصص للمخطوطات القادمة من إيران. فهذه الصور نادراً ما كانت تنقل إلى صالات المتحف ليراها الزوار. فعندما أنظر إلى المسوّدات والصور أتذكر المرأة ذات الشعر الأحمر وذكرياتي

25- حيّ من أحياء إسطنبول.

26- مكتبة تأسست في دبلن في 1950م لتجميع مقتنيات المليونير الأيرلندي السير ألفريد جيستر بيتي. افتتحت المكتبة بشكلها الحالي في سنة 2000م وحصلت على جائزة المتاحف الأوروبية لسنة 2002م. ألفريد جيستر بيتي (1875 - 1968م) ولد في مدينة نيويورك في الولايات المتحدة الأمريكية، درس هندسة التعدين في جامعة كولومبيا. جمع ثروة كبيرة من استخراج النحاس من المناجم وخاصة من ولاية كولورادو. حاز على الجنسية البريطانية عام 1933م وفي أربعينيات القرن العشرين انتقل إلى لندن واستقر فيها، ثم انتقل إلى موطن أجداده أيرلندا وأسس مكتبته هناك. جمع في المكتبة كافة مقتنياته من المخطوطات الإسلامية وأوصى أن تكون بعد وفاته مكتبة خيريّة. (المترجم).

القاسية في مقتبل حياتي مع شعور عارم بالندم. أما المشتغلون هناك في المتحف من الشباب ذوي الخبرة العالية، الذين يلبسون أحياناً قفازات بيضاء فكانت كل حركاتهم - في الصالة المضاءة بمصباح أصفر ليموني وفي الغرف المغلَّفة بالخشب والتي تفوح منها رائحة الغبار - كانت تنبئنا بمدى رِقَّةِ وغلاء وقدمِ هذه الأشياء التي نمعن النظر فيها.

وفي الحقيقة إننا لم نشعر بعمق الرسومات الإسلامية التي شاهدناها، ولا قصص الشاهنامة ولا حتى الموضوعات الأثيرة والأفكار التي يتم تداولها عن الشرق والغرب. هذه المنمنمات المنقوشة على صفحات المخطوطات القديمة تُعلِمُنا أن الحيوات المَعيشة في الماضي لم تكن سوى نزواتٍ عابرة مضت إلى غير عودة، كما كانت تُعلِمُنا أننا كنّا نشعر بكبرياء فارغ من أيّ معنى حين توهَّمنا أننا تمكَّنّا من إدراك معنى التاريخ. وعندما نغادر مكتبة المتحف إلى أزقة مدينة أوروبيّة كبيرة كنّا نشعر بأننا أعمقُ إنسانيّةً بفضل تلك الرسومات.

في الواقع إنّني مثل جميع الأتراك مِمَّن هم من جيل أبي الذين نالوا قسطاً من التعليم، كنت أقتفي في الغرب أثر أيّ شيء يمكن أن يؤثّر في مجرى حياتنا، إن كان فكرة أو صورة ما. أكان ذلك محفوظاً في متحف أم كان موجوداً في واجهة المحلّات الزجاجية أو في دور السينما. ذلك أشبه ما يكون بما يحدث في لوحة «إيليا ريبين» المرسومة بالألوان الزيتية والمسماة «إيفان الرهيب يقتل ابنه»، فاللوحة التي شاهدناها أنا و«آيشا» في متحف تريتياكوف[27] - أب مثل روستم، قتل ابنه ويحتضن جسده الملطخ بالدماء وهو يذرف الدموع - يخيّل لي أنها قد رَسَمَها رسّامٌ مطّلعٌ على عمل أمهر رسامي المنمنمات في إيران، أو كأنه رسام

27- متحف تريتياكوف: تأسس عام 1856 من قِبل بافيل تريتياكوف التاجر الروسي وجامع التحف واللوحات الروسية. وفيه غاليري تريتياكوف الوطني الذي يحتوي على أكثر من 130 ألف لوحة فنية روسية بما فيها الأيقونات الروسية القديمة بدءاً من القرون الوسطى وحتى يومنا هذا. كما يضم لوحات أغلب الفنانين التشكيليين الروس مثل إيليا ريبين وغيره. (المترجم).

فارسي تسنّى له الاطلاع على كافة تقنيات الظل والمنظور في المراحل الفنية للحقبة ما بعد عصر النهضة. فاحتضان الملك الحاكم لجسد ابنه المخضب بالدماء بعد أن قتله بيديه في لحظة غضب أهوج، واسترخاء جسد الابن في حضن أبيه، مشاعر الندم والدهشة التي تعلو وجه الأب تجدها متجسدة في الفيلم الذي أخرجه أيزنشتاين، فيلم «إيفان الرهيب». فكان «ستالين» مثل إيفان الذي قتل ابنه، وأحب روسيا وبَنى دولة الروس بلا رحمة وعلى نحو قمعي. فمشاعر الندم والقسوة التي تفيض بها اللوحة كانت تذكّرني بجبروت الدولة وقسوتها.

في تلك الأمسية وأنا أنظر إلى الظلمة في ليل موسكو الخالي من النجوم أحسست بالخوف من جبروت الدولة المألوف عندي. ففي إيفان الرهيب أجد ذلك المزيج من المشاعر الجياشة يختلط بعضها ببعض. مشاعر الندم والحب المفرط والشفقة إزاء الولد. هذا التناقض في الحالة الروحية يذكرني بكلام أبي إذ كان يجذب انتباهي إلى ما كان يُشاع بين أركان الدولة من كلام، يقولون عن الشعراء والفنانين ممن كانوا ذوي قابليات فذة ويوجهون انتقاداتهم إلى الدولة، يقولون عنهم:

«يتوجب عليك أولاً أنْ تنفّذ الإعدام بالشاعر الفلاني ثم تجلس تحت أعواد المشنقة لتحزن عليه وترثيه».

في حقبة ما من الحكم العثماني كان السلطان عندما يعتلي العرش يقوم بقتل جميع الأمراء، ثم يخنق أشقّاءه الأمراء وولاة العهد، وفي الوقت نفسه يضفي على طقوس القتل هذه مسحة من الشرعية تذرّعاً بالمنطق القائل: «إنها قسوة لا مناص منها للمحافظة على هيبة الدولة!».

كنت أشتاق إلى أبي، وأود أن أناقشه في هذه الموضوعات، ولكنني كنت أغير رأيي اعتقاداً مِنّي بأنه سوف ينتقدني على ذلك.

في الحقيقة كنّا نحاول أن ننسى مسألة عدم الإنجاب ونغطي على ذلك بالإكثار من السفر. ونقوم بتبرير ذلك لأنفسنا بأننا ذاهبان لمشاهدة صورة أوديب، ولكننا لم نجد شيئاً سوى لوحة واحدة تاريخية رسمت

بشكل أكاديمي، أو لوحتين اتخذتا من فكرة مسرحية سوفوكليس موضوعاً لهما. لوحة «أوديب وسفينكس» للرسام «آنغرز»[28] معروضة في اللوفر، وهي ليست مؤثرة ولا تلقى إقبالاً من جمهور الزائرين. فالتأثير الوحيد الذي تركته اللوحة فيّ هو أنّني رحت أسأل نفسي إن كان منظر مدينة «ثيبة» - التي تبدو من خلف تل كابي اللون - قد رُسِمت بشكل واقعي.

في متحف «غوستاف موريو»[29] بباريس رأينا لوحة أخرى عن «أوديب وسفينكس» رسمت من بعد «آنغرز» بنحو أربعين سنة. ولا تجسد هذه اللوحة عثرات أوديب أو ذنوبه بل انتصاره. أيْ حَلَّه لعقدة سفينكس. ورأينا نسخة من هذه اللوحة في نيويورك في متحف متروبوليتان. وبعد قليل، في الطابق نفسه على بعد أربعين خطوة في جناح الفن الإسلامي رؤيتنا لمشهد قتل روستم لابنه سهراب دفعتنا إلى الحيرة والدهشة. في متحف متروبوليتان جعلنا جناح الفن الإسلامي، الجناح نصف المظلم الذي لا يزوره إلّا القليل، جعلنا نشعر أنّه فارغ ليس فيه أيّ زائر، وأننا نولي اهتمامنا لموضوع مَنسيّ أصلاً. فالإنسان حتى وإن كان لا يعرف بالقصة إلّا أنّه كان يتمتع بالنظر إلى لوحة «موريو»، ولكن صفحات الشاهنامة كانت تترك فينا أبلغ الأثر لأننا نعرف بالقصة. وكان هنالك كثير من المتعات المحدّدة لرسومات معينة. ولكن السؤال الأساسي هو

28- جان أوغست دومينيك آنغرز (1780 – 1867): مستشرق ورسام كلاسيكي فرنسي. في عام 1802 أسس صالونه لأول مرة، وفاز بجائزة «منحة روما» لقاء لوحته «سفراء أغاممنون في خيمة أخيل»، ثم حقق نجاحاً كبيراً في العام 1824 بلوحته رافايليسك من نذر لويس الثالث عشر، وأصبح معترفا به كقائد للمدرسة الكلاسيكية الجديدة في فرنسا. أسس استوديو على غرار «فيلا ميديتشي» وأخذ يرسم بشراهة، حتى إنّه رسم العديد من الآثار في روما في تلك الحقبة من حياته... (المترجم).

29- غوستاف موريو «رسام فرنسي» (1826 – 1898): تأثر برسامي عصر النهضة الإيطالية ورسم مواضيع دينية وأخرى مستمدة من الكتاب المقدس ومن الأساطير. تعتبر لوحة «أوديب وسفينكس» واحدة من أولى لوحاته الرمزية. عرضت في العام 1864، وتوجد حاليا في متحف نيويورك للفنون... (المترجم).

أن ثقافة الرسم وتقاليده غنيّة وتحتل مساحة واسعة في أوروبّا. فعندما تذكر أوديب لن يولّد ذلك أيّ انطباع عن قتل الأب ومضاجعة الأم، ولن يرسم المرء هذه المشاهد في ذهنه أبداً. رسّامو أوروبّا يفكرون بتلك المشاهد بالكلمات ويفهمون القصة جيداً، ولكنهم عندما يفكرون في الأشياء بكلمات مُجرَّدة لا يستطيعون تجسيدها أمام أعينهم. لهذا السبب لم يقم أيّ رسام بتصوير تلك المشاهد بل رسمَ اللحظة التي يتمكن فيها أوديب من حَلّ عقدة سفينكس، في حين نجد مشهد قتل روستم لابنه سهراب رُسِمَ آلاف المرات وبانفعال وهياج، ولم يحظ كثيرون بمشاهدتها، بسبب منع تداولها في الدول الإسلامية.

استطاع الروائي والرسام والمخرج السينمائي «بيير باولو بازوليني» الخروج على هذه القاعدة بعمل فيلم «الملك أوديب» إذ شاءت الصدف أن أحظى بمشاهدة الفيلم بمناسبة أسبوع أفلام بازوليني، الذي أقامته القنصلية الإيطالية في إسطنبول. فالممثل الشاب الذي كان يؤدي دور أوديب كان يحتضن أمه الجميلة الممثلة «سيلفانا مانجانو» التي تكبره كثيراً، يُقبّلها ويمارس الحب معها. وفي أثناء المشهد الذي يجسد ممارسته الحب مع والدته كانت صالة «كاسا دي إيتالي» المغلفة بألواح الخشب غارقة في الصمت.

لقد صوّر بازوليني فيلمه هذا في المغرب، وقد استعان بالمناظر المحلية، وسلط الضوء على التربة الحمراء كما تخيّل قلعة حمراء استخدمها في فيلمه.

«أود أن أشاهد الفيلم مرّة أخرى» قلتُ لزوجتي. «ترى هل من الممكن أن نعثر على الفيلم كفيديو أو كقرص مدمج؟».

قالت زوجتي:

«حتى سيلفانا مانجانو الرائعة كان شعرها أحمر».

-32-

أظنّ أنّه من الخطأ أن يتصور القارئ أننا أنا وزوجتي «آيشا» مُجرَّد زوجين من نخبة المثقفين الذين لا شغل يشغلهم سوى متابعة الأفلام وزيارة المتاحف ولا يستطيعون تخليص أنوفهم المحشورة في تفاصيل اللوحات الفنية. كانت «آيشا» تخرج معي منذ الصباح وتذهب إلى العمل لتدير العمل في شركة سهراب الإنشائية، التي كانت تكبر يوماً بعد آخر وبسرعة مذهلة. أما أنا فكنت أخرج مبكراً من الشركة التي أعمل فيها وأذهب إلى مكتب شركتنا في حيّ «نيشانتاش» الآخذ في الاكتظاظ بالسكان. كنّا نعمل مع المهندسين إلى ساعة متأخرة ثم نذهب من هناك إلى أحد المطاعم لتناول وجبة العشاء ثم العودة إلى البيت. بعد مرور سنة واحدة على مشاهدتنا لفيلم «الملك أوديب» لبازوليني، أيْ في أواخر سنة 2011، قطعت صلتي بالشركة التي كنت أعمل فيها لأتفرغ تماماً لسهراب. كنت أعمل بتفانٍ من أجل شركتنا نحن. أخرج لتفتيش مواقع العمل المنتشرة في مختلف أنحاء إسطنبول. وبينما تتقدم سيارة «شركة سهراب» التي يقودها سائق الشركة وهو من أهل «سامسون» ببطء في تقاطع الطرقات، أو عندما يقف عند أضواء المرور كنت أنهي بعض الأعمال بواسطة هاتفي الجوال. أتحدث مثلاً مع مجهِّزي المواد الإنشائية أو مع رؤساء العمّال في مواقع البناء أو مع أصحاب مكاتب العقارات، فأجد أكثرهم قد وقع مثلي في فوضى الازدحام المروري في أماكن وتقاطعات أخرى من إسطنبول. أو أجدهم قد ضلّوا طريقهم على أرصفة الأحياء الجديدة المكتظة بالملايين من البشر. وبينما أسأل محدثي على الطرف الآخر من الخط عن تكاليف البناء

والعمل أجده يناقش أحد السوّاقين أو يوقف أحدهم ليسأله عن عنوان ما. فكل واحد من سكان هذه المدينة كان يهمّ بتشييد مبنىً في مكان ما. وكلُّ مَن يحصل على قرشين يشتري بهما قطعة أرض ويشيّد عليها بناءً. لقد كانت المدينة تكبر وتتوسّع بشكل انفجاري مذهل.

أحياناً كانت نظراتي تتعلّق بالمارة الفقراء والباعة المتجولين والشباب والمسترزقين من وراء السوّاقين ومسؤولي الكراجات التي تتوقف فيها سيارات الأجرة. أنا الذي تطبَّعتُ حياتي بكوني رجلاً غنياً في أواسط عمري، والأهم هو أنّني بدأت آلَفُ هذا الطراز من الحياة. وكنت أتساءل في سِرّي: ما هي الأشياء الجميلة التي توجد في حياتي غير صداقتي مع زوجتي، وولعي كهاوٍ بحكاية أوديب وسهراب؟ أفكر بأبي، أخابر زوجتي، وفي خضم الفوضى الناجمة من الزحام في المدينة كنت أحاول أن أقنع نفسي بأنني سعيد. أحياناً كنت أفكر لو كنّا رزقنا بمولود قبل هذا، لكان الآن شاباً في العشرين من عمره.

أنا و«آيشا» كنّا نشتري أشياء باهظة الثمن بالمبالغ التي كنّا نربحها. كنّا نشتري ملابس، دُمى، أنتيكات عثمانية وسجاجيد. حتى إننا اقتنينا أثاثاً مستورداً من إيطاليا، ولكن نزعة الاستهلاك وحبّ المظاهر لم يجعلانا سعيدين، بل جعلانا نشعر بأننا سطحيّان وتافهان. وعلاوة على ذلك تولّد لدينا نوع من الكراهية إزاء معارفنا الذين كنّا نستضيفهم من أجل عرض تلك الحاجيّات عليهم. وفي الواقع ما زال كره هذه النزعة طاغياً عندي، وهي من مخلّفات أبي اليساريّ وتأثيره عليَّ. وعلى الرغم من ذلك كنّا وما نزال مكتفين بسيارة الرينو القديمة ونداري بها وضعنا.

مع تزايد السيولة النقدية في أيدينا بدأنا نشتري الأبنية القديمة في المناطق التي كنّا نعرف أنه سيزداد الطلب عليها، والأراضي الواقعة خارج نطاق المدينة. وبينما كنّا نشتري الأراضي الواقعة خارج حدود المدينة كنت أشعر بنفسي وكأنني سلطان يغزو البلدان المجاورة ويضمّها إلى ملكه ليداري حرمانه من الذراري.

كانت إسطنبول مثل سهراب تنمو وتتوسع بشكل مذهل.

كنا قد نصبنا في سيارتنا جهاز دليل الطرقات، كي نستدل به على الأماكن التي نريد الذهاب إليها. فالمكان المعني يظهر لنا على الشاشة. كما تظهر لنا أسماء لم نسمع بها من قبل، وذلك بسبب سرعة توسع المدينة. وبدلاً من التباكي على الأطلال تقبّلنا هذه المتغيرات ببهجة كما لو كنّا ننتظر أن نفوز بفرصة تنفيذ مشروع ما للبناء. «آيشا» وهي جالسة في مكتبها كانت تطَّلِعُ على الصحف اليومية وتقرأ إعلانات المزايدات في بيع الأراضي والأملاك، كما كانت تقرأ صفحة إعلانات البيع في جريدة «حُرّيت» وتتابع المواقع الأخرى.

في ذات يوم وضعت «آيشا» على مكتبي تفاصيل إعلان بيع بالمزايدة العلنية كانت تراه مناسباً. وقبل أن تتسنّى لي فرصة تركيز اهتمامي بالموضوع، وجدتْ أبعاد الأرض على موقع جوجل، قرَّبَتْه على الشاشة وأرتْني إياه. وما إنْ قَرأتُ اسم «أونجوران» حتى تسارعت دقّات قلبي، ولكنّني حافظت على رباطة جأشي بدمٍ بارد، كأيّ قاتل له خبرة. حرّكتُ الماوس واقتربت بصمت إلى أهم البلدات في حياتي.

كان اسم «أونجوران» مكتوباً في مكان عالٍ من ميدان المحطة، ثم توصلت إلى الكشف عن أسماء بعض الأزقة، ولكنني لم أتعرف على كثير من الأماكن، لأن جوجل كانت تعتمد على بيانات جديدة وليس على الأسماء القديمة مثل تسمية «شارع المطاعم» التي كانت متداولة قبل ثلاثين سنة بين أهالي «أونجوران». وجدت المحطة أولاً ثم المقبرة، وبدأت أحدد مكان السهل على الخارطة ولكنني لم أستطع قراءة أسماء الأزقة. أجل فالسهل برمّته تحوّل إلى أحياء سكنية.

«يقول مراد سوف يتم شقّ طريق من هنا، سوف يكون هذا المكان ذا منظر خلّاب، ويكون ملائماً لإنشاء حيّ سكني. هل يمكننا معاينة المكان صباح الأحد قبل الذهاب إلى زيارة والدتك؟».

مراد صديقي من أيام الدراسة الجامعية، الذي اصطحبني إلى طهران،

هو الآخر ترك عمله في مجال العقارات وبدأ بالعمل في الإنشائيات. كانت له علاقات واسعة مع المتنفذين في الحزب الحاكم، وبفضل أصدقائه المحافظين في الحزب بدأ بتنفيذ مشروعات كبيرة قياساً إلى الأعمال التي كنّا نحصل عليها. كان يهتم بعلاقة الصداقة التي تربطنا به ويفيدنا كأيّ صديق بأنْ يخبرنا عن الأراضي التي سوف يزيد الطلب عليها.

«كأن هنالك جوانب مشؤومة في بلدة أونجوران، تماماً مثل الحكايات التي سمعتها في فترة شبابي...». قلتها لزوجتي «آيشا»، «دعكِ من أعمال البناء هناك. أنا متأكد أنّه ليس هنالك أيّ منظر جميل غير منظر الليل المرصَّع بالنجوم».

-33-

في تلك الصائفة عانت إسطنبول من قلّة المياه. فالربيع كان جافّاً في تلك السنة، لم تهطل كميات كافية من المطر لكي تمتلئ السدود، والأنابيب القديمة باتت تضخُّ نصف الكمية المقرَّرة في السابق من الماء إلى المدينة. الآباء والأمهات كانوا يسهرون إلى منتصف الليل ويصيخون السمع لعلهم يسمعون صوت الماء إذا جرى في الأنابيب الفارغة. وعندما يجري الماء يقومون أولاً بالاستحمام ثم يملؤون الأحواض في الحمامات. صارت خطة توزيع الماء في الحيّ الفلاني وفي الساعة الفلانية الشغل الشاغل بين الناس، كما صار حديث الساعة بين السياسيين، حتى كانت تحدث مشادّات كلامية بهذا الخصوص وتتحوّل فيما بعد إلى معارك سياسية.

في نهاية الصيف كانت تحدث العواصف، ترعد فيها السماء وتبرق، وتحدث فيضانات تغرق الأحياء وتبقى الأزقة تحت رحمة السيول. بعد تلك الأيام دعانا أبي إلى البيت لتناول العشاء معهما. زوجته الجديدة كانت قد أرسلت رسالة إلكترونية عبر الإنترنت إلى زوجتي «آيشا». فكرت: «أبي ألم تكن له القدرة على كتابة رسالة كهذه؟».

كان أبي يعيش في شقّة في العمارات السكنية المبنية على التلال المطلّة على البحر الأسود خلف حيّ «صاري يير». استغرق وصولنا إلى هناك ساعتين. فالشقة الصغيرة التي يظهر منها جزء قليل من منظر البحر الأسود البعيد، كانت قد أُجِّرَتْ مؤخَّراً، بدتْ لي من الخارج قديمة إلى

الحد الذي تصوَّرتُ أنها قد خرجت توّاً من الحرب. أما داخلها فكان يغصُّ بأشياء أبي التي أعرف بعضاً منها منذ نعومة أظفاري قبل أربعين سنة. كان سقفها قد خَرَّ في آخر مطرٍ شهدتْهُ المنطقة. بعد المحادثة الأولى والمزاحات السطحية وجبر الخواطر تأكَّد لي أنَّ أبي قد شاخ حقّاً، وقد أثَّر فِيَّ تأثيراً بالغاً وضعُه التعِب وحياة العوز التي يعيشها.

لقد فقد أبي بريقه. أبي الذي كنت مغرماً بشخصيته وجميع أشيائه. كنت في السابق أطيل النظر إليه وأتمنى أن أكون صديقاً له. أنتظر منه أن يمزح معي ويضمَّني إلى صدره، إلّا أن حركاته تباطأت واحدودب ظهره. والأسوأ من هذا هو أن الحياة اجترفتْه ورضي بالاندحار وتقبل الهزيمة أمام الدهر. الرجل الذي كان في يوم ما متأنّقاً وزِيرَ نساء يبدو أنّه لا يهتم بهندامه ولا بصحّته. قال وهو يزوّق وضعه الحالي بقوله: «اليساريون لا يهتمون بالمظهر بل بالجوهر». وكان يلاعب زوجته ذات الصدر الضخم والضحكة العذبة والأسنان المشابهة لأسنان الأرنب. كان يمازحها ويومِئ لمحدِّثه أن حياته الجنسية عامرة وممارساته مكثّفة. انضمت «آيشا» إليهما متجاوبة مع سلوك أبي وأخذت تتحدث عن الحب وعشّ الزوجية وعن الشباب. عن الأفلام وعن الذكريات. أما أنا فانزويت إلى جانب ما من المكتبة لأنني لا أجرؤ على الخوض في موضوعات كهذه مع أبي، ورحتُ أقرأ وأنا ممسك بيدي قدح العرق وباليد الأخرى رحتُ أُقلِّبُ كتب أبي اليسارية التي ما زلت أتذكرها. أقرأ ظهر الكتاب وفي الوقت نفسه أصغي إلى الحديث الدائر على المائدة. عندما تطرقت زوجة أبي إلى الحديث عن معاناتها من شُحّ المياه تذكرت الأُسطى «محمود» فقلت على الفور:

«يمكن أن يتم حفر بئرٍ هنا على تلال «صاري يير» بالطرق القديمة، ونصبُّ جدار البئر بالخرسانة بواسطة قالب متزحلق».

سألني أبي:

«من أين تعلمت هذه الموضوعات؟».

«بعد أن تركتنا في صيف 1986 كان عليّ أن أوفّر مبلغاً من المال لأدفعه إلى المدرسة الخصوصية فاضطررت للعمل في حفر الآبار مع أُسطى قديم... حتى (آيشا) لم أكلّمها في هذا الموضوع».

«لِمَ لَمْ تكلّمها؟ هل خجلت من الحديث عن الموضوع لأنك عشت حياتك مرةً كعامل؟».

فرحتُ لأن أبي عرف عن عملي في حفر الآبار كعاملٍ كادحٍ في مرحلة ما من مراحل حياتي. وفي الواقع إنّ أبي كان فرحاً أيضاً لأنه وجدنا أغنياء. وقد اجترحت خطأً فادحاً حين أسبَلتُ نفسي لمشاعري الجيّاشة وأخذت أتحدث عن الأيام ما بعد اشتغالي في حفر الآبار، وشغفي بحكاية أوديب وقصة سهراب وروستم، وعن الكتب التي تهيّأَتْ لي قراءتها، والمتاحف التي زرناها أنا و«آيشا»، وعن كوني ملمّاً بالموضوعات التاريخية الاجتماعية، ومحاولتي في إثبات ذلك له.

«أفْضلُ من تطرق لهذه المسائل هو ويتفوجل»[30]، قالها أبي مقاطعاً إيّاي «ها هنا كان كتابه. من يقرؤه بعد هذا، أكَل عليه الدهرُ وشرب... تُرى ماذا كان يقول لو أنّه علم أن يسارياً طاعناً في السن يحتفظ في مكتبته بنسخة من كتابه المترجم إلى الفرنسية؟».

هذا مشابه لتساؤلي الذي كنت أثيره، وأسأله لنفسي مراراً: «لو أن أبي علم بهذا ما سيقول لي؟». هذا النوع من السؤال الذي طرحه أبي أثار شغفي لرؤية الكتاب. أمضيت بعض الوقت أجول ببصري على رفوف المكتبة. وبعد لَأي تناولت قدحاً آخر من العرق. زوجة أبي و(آيشا) كانتا تتحدثان فيما بينهما، وأبي يجلس إلى طرف من المنضدة لائذاً بأذيال الصمت.

30- كارل أوغست ويتفوجل، كاتب مسرحي ألماني الأصل أمريكي الجنسية (1896 - 1988)، مؤرخ لغوي، عالم أحياء، كاتب وسياسي كان عضواً ناشطاً في الحزب الشيوعي الألماني وبعد الحرب العالمية الثانية انقلب على الفكر الماركسي وصار مناهضاً للشيوعية. له كتاب «الاستبداد الشرقي» تنبأ فيه بظهور الصين كقوة كبيرة ومؤثرة في الشرق. له مسرحيات مثل «المشلول» «الأم واللاجئ»، «من هو أكبر مغفل؟»، ومسرحية «ناطحة سحاب».

«أبي!»، سألته، «أريد أن أسألك عن تلك المجاميع السياسية... أيّ فريق كان أولئك الوطنيُّون الثوّار الماويّون؟».

«أعرف الكثير عن تلك الجماعة، لديهم بناتٌ كثيرات». كان واضحاً أنّ الخمرة قد أثّرت فيه، قالها أبي مثل أيّ طالب ثانوي يسرّ لصديقه عن وجود بنات كثيرات في الصف الآخر من مدرستهم.

سألته زوجته:

«وأيّ بنات؟»، قالت وكأنها تشعر بالفخر إزاء مغامرات زوجها أو تتباهى لكونه زير نساء.

كنت أفكر بالموضوع الذي أخفيته حتى عن نفسي، وتأكدت من ظنوني في أن أبي كان قد تعرَّف على أعضاء فرقة المسرح «مسرح الأساطير المثالية» إبّان السنوات التي كان يتعاطى فيها السياسة، وقد ظهر أنّه ربما كان قد تعرف على المرأة ذات الشعر الأحمر أيضاً. حسنٌ، كيف كان أبي يفكر بالمرأة التي قاسمتُها السرير لأول مرّة في حياتي؟

بدا لي أبي أنّه قد تخلّص من تأثير المشروب. استفاق من إغفاءته وبانت نظراته التي كان يضع فيها الحدود بيني وبينه محافظاً على أسرار حياته السياسية. فاغتنم فرصة بقائنا وحدنا، سألني عن والدتي، فأخبرته أنّني اشتريت لها بيتاً في «جبزة»، وفي كل أسبوعين نذهب أنا و«آيشا» لزيارتها، وأنها تنوي الانتقال إلى إسطنبول.

«فرحت كثيراً لأن أمك سعيدة في حياتها». قالها أبي وأنهى الموضوع.

وفي طريق العودة أخذت «آيشا» السيارة لأنني كنت ثقّلتُ في الشرب، فأخذت تؤنِّبني كما لو كانت تؤنِّب طفلاً صغيراً: «لماذا أخفيت عنّي عملَك كصبيّ حَفّار بئر، هيه؟». وفيما كنّا نعبر غابات بلغراد في منتصف الليل، ونتقدم عبر الطريق بين السياجات الواقية، كان صرير زيز الحصاد يصمّ الآذان، وتملأ روائح الصعتر فراغ السيارة. فأخذتني سِنة من النوم وأنا جالس في المقعد الأمامي.

كتاب «استبداد الشرق» الذي عفا عليه الزمن وشرب كان في حضني. في البيت لم ألقِ إليه نظرة لأنني رحت أبحث بصمت في الحاسوب في موقع «جوجل» عن «أونجوران» وكأنني أهبط إليها من عِلِّيِّين، حتى وجدت محل المعجنات في ميدان المحطة ثم بناية أحد المصارف. وفي طريق إسطنبول وقع بصري على يافطة إعلان لواحدة من الشركات المختصة ببيع البنزين. حاولت أن أتذكر تلك الأماكن شبراً شبراً، وأن أتخيل نفسي حين كنت أتبع خطى المرأة ذات الشعر الأحمر. هنالك في «أونجوران» إذا افترضنا أنها كانت صادقة حين ذكرت لي تاريخ ميلادها، فإنها الآن امرأة في حوالي الستين من العمر. زوجة أبي الحالية كانت في هذه السن تقريباً. حتى إنّني صرت أفكر على نحو ما بأنّ أبي يقضي بقية حياته الآن مع المرأة ذات الشعر الأحمر في عمارة بائسة مطلّة على البحر الأسود.

لأنني حرّمت على نفسي البحث عن مكانها ومعرفة أيّ شيء عن حياتها وكيف تقيم أودها وإلى آخره، فلم يكن يعنيني أن أعثر على أثرها طوال الثلاثين سنة المنصرمة. حين كنت أتابع التلفزيون أرى بعض الممثلات من جيل المرأة ذات الشعر الأحمر يمثلن في مقاطع إعلانية، عن نوع ما من مساحيق الغسيل، أو الترويج لبطاقة أحد البنوك حيث تظهر امرأة طاعنة في السن تمثل دور أم تروّج لبطاقة تستطيع بواسطتها سحب مبالغ كبيرة، وتتمتَّع بفرصة تسديد ذلك المبلغ من راتبها التقاعدي. وعندما أرى إحداهن وهي تمثل دور الجدة في مسلسل تاريخي يحكي قصة محمد الفاتح أو مسلسل عن سليمان القانوني و«خُرَّمْ سلطان»[31] أقول إنها هي أو تلك الممثلة التي تقوم بدور المرأة الخبيرة في شؤون الحب والغرام وتسدي النصح لإحدى جواري السلطان، أم تراني قد تبلّدت مشاعري بسبب دوران الخمرة في رأسي، وأنني لم أعد أميّز المرأة الأولى في حياتي، فكنت أضيّق ما بين جفنيَّ وأشدّد النظر في شاشة

31- هي السلطانة هيام في المسلسل المترجم والمدبلج إلى العربية «حريم السلطان».

التلفاز. وأحياناً كنت أتابع مسلسلاً أجنبيّاً مدبلجاً وأستمع للأصوات واحداً فآخر لعلي أمّيز أحد الأصوات النسوية المشابهة لصوتها. أحاول أن أتذكر نبرات صوتها حين كانت تلقي حوارها الغاضب في خيمة المسرح في «أونجوران» أو حين كنت أصغي لكلامها العذب بينما كنّا نتمشى عند ميدان المحطة.

بعد منتصف إحدى الليالي حين استيقظت من النوم بعد يوم عمل حافل بالشد والجذب، دهشت حين ألقيت نظرة إلى الرسالة التي جاءتني بالبريد الإلكتروني من المهندس الخبير في شؤون شراء العقارات عن الأملاك المعروضة للبيع في «أونجوران». كان هنالك مخزن قديم وورشة مهجورة للبيع تقع على مقربة من الأرض التي حفرنا فيها بئراً. فما يجذب الانتباه ليست المباني المنشأة فوق هذه الأرض قبل ثلاثين سنة بل ما يمكن تشييده فوقها من مبانٍ جديدة. ومن دون الرجوع إلى «آيشا» التي كانت نائمة كتبت إلى الرجل الذي كان يعمل لدينا أننا نهتم بقطعة الأرض هذه.

-34-

أنا و«آيشا» فيما كنّا نقرأ بشغفٍ كتاب «الاستبداد الشرقي» لكارل أ. ويتفوجل، في البدء لم ندرك لماذا أوصانا أبي بقراءة هذا الكتاب بالذات. فلا يوجد فيه أيّ شيء يخصّ معضلة الآباء والبنين. الكتاب طبع في العام 1957، ومن الواضح أن أبي لم يقرأ الكتاب بشكل كامل، وإنما تصفّحه قليلاً ثم نسي محتواه، ولكنه اكتفى بالقول: هذا كتاب يساري مهم عن مجتمعات الشرق. لا أدري لماذا تذكّر هذا الكتاب عندما تكلمت أنا عن أوديب وسهراب؟

فالكتاب الذي طبع في الأيام الساخنة من الحرب الباردة يجري الحديث فيه عن الأنهار والجداول والسيول وعن شُحّ المياه. فقد ضمّن المؤلف «ويتفوجل» كتابه هذا «استبداد الشرق» بشروحات مطوّلة عن الصين التي تمتلك أراضي ذات تضاريس صعبة يتوجب عليها ألّا تهدر ولا قطرة واحدة من الماء. وأن تنقل المياه بالجداول الاصطناعية والميازيب والأوعية بين المناطق من أجل الزراعة. ومن أجل تنفيذ ذلك يرى أنها في أمس الحاجة إلى انتظام فريد من نوعه وإلى بيروقراطية واسعة وطَيِّعة. وهذا الانتظام لا يتحقّق ما لم يَقم حُكمٌ يقوده ملوكٌ قساة مع وجود إداريّين يمارسون سلطات استبدادية واسعة. يتوجب على هؤلاء الإداريين ألّا يرحموا من يتقاعس، أو من يشقّ عليهم عصا الطاعة. ولهذا السبب لن تجد أفراداً متنوِّرين لا في محيطهم الإداري ولا حتى في ديوان الحريم التابع لهم. بل تراهم

يجمعون حولهم أناساً يقدّمون لهم فروض الطاعة كالعبيد. هذا النظام هو ما كان يتحدث عنه ويتفوجل في خاتمة كتابه.

«أولئك الملوك حين يتصرفون هكذا مع نسائهم ومرؤوسيهم سيعمدون إلى قتل أبنائهم في نهاية الأمر»، قالت آيشا. «لا شيء هنا في هذا الأمر يدعو إلى العجب. نعرف هؤلاء الناس، وتعارفنا عليهم ولكن رسّامي بلاطهم لِمَ لَمْ يرسموا تلك اللحظات بالهياج نفسه؟».

«لأن الملك كان يبكي في ذلك الحين»، قلتُ. «فالقيم المرئية للصورة هي ندم وحزن... ولكن المعنى الأساسي هو تأكيد مدى قسوة الملوك. وهم أنفسهم سوف يدفعون المبالغ مقابل رسم هذه الصور، وليس أمثال سهراب المساكين الذين فقدوا عقولهم».

«إن كان سهراب فاقداً لعقله، فهل كان أوديب عاقلاً؟»، سألت آيشا.

وبعد مرور بعض الوقت على قراءتنا لكتاب «ويتفوجل» فتر اهتمامنا به، ولكننا بفضل أبي وبمساعدة الكتاب ومن خلال مناقشاتنا لمسألة قتل الأب لابنه وقتل الابن لأبيه تمكّنّا من إيجاد بعض التشابه بين مختلف الحضارات.

إبان تلك الشتوية قرّرتُ أن نشتري تلك الأراضي. وكانت نفوس إسطنبول تتناثر وتنتشر بهذا الاتجاه. كان «مراد» قد أبلغنا بذلك قبل مدّة كافية بأنّ الحياة ستنتقل إلى هنا، حيث سيشيّد الجسر الثالث على المضيق من ناحية البحر الأسود، وسوف ترتفع أسعار الأراضي القريبة إلى الجسر وإلى الطرقات الحولية من خلالها. فقد كان عليَّ أن أفكر بتطوير سهراب وإنجاح أعمالها، لا أن أتعلق بأهداب الحكايات القديمة وأتذرَّع بالشؤم والذكريات.

في أثناء الأيام التي كنّا نستميت فيها من أجل إنجاح سهراب ونفكر بمستقبله كنت أحزن لأنه لم يكن لي ولد. لو كان لي ولد، ربما لم يكن يحذو حذو أبيه، بل يعيش حياةً خاصة به. وبرغم كل شيء كان يعتبر

ابني! وربما شاءت الأقدار أن يكون كاتباً. وإلى جانب ذلك كنت أشعر بتفاهة تلك الحكايات، حكاية أوديب وسهراب.

في ذات مساء خَابرتْ زوجةُ أبي على جوّال «آيشا» وقالت إنَّ أبي يمرّ بأزمة صحية. فاستقللنا سيارتنا وتمكنّا من بلوغ بيته. وجدت أضواء الشقة مطفأة. دهشت، بل غضبت حتى. وعندما فتحت زوجة أبي الباب لنا وهي تبكي ظننت لأول وهلة أنهما ربما كانا قد تخاصما. ولكنني حالما دخلت البيت تأكّد لي أنّ أبي قد أسلم روحه. بعد ذلك أنار أحدهم مصابيح الشقّة بلمسة واحدة، وتسنّى لي أن أرى ما لم أكن أرغب برؤيته. لقد كان أبي مستلقياً على الكنبة حيث كان يجلس على الدوام ويحكي قصصه.

متى توفّي؟ ربّما توفي بينما كانت سيارتنا عالقة في الزحام المروري، وهذا كان بسببي، ولربما كان قد توفي عندما خابرتْنا زوجتُه. لم تستطع النظر إلى أبي. كنت أكرّر هذا السؤال مثل أيّ محقّق ولكنني لم أسمع منها أيّ جواب، لأنها لم تكن تتوقّف عن البكاء.

تلك الليلة حين تأكد لي أنّه ليس لنا خيار آخر سوى المبيت في شقّة أبي، وجدت في الثلاجة قنينة عرق «كلوب» فبدأت أشرب منها. جاءنا طبيب ليكتب تقريراً عن حالة الوفاة. وأعلَمَنا أنّ الوفاة تحقّقت من جرّاء عجزٍ في القلب. قرأنا الورقة وعرفنا سبب الوفاة. بعدها حملنا نحن الثلاثة جثّة أبي ووضعناها على فراش نظيف في غرفة النوم. خُيّل إليَّ أنّني أردت أن أبكي. ولربما بكيت، ولكن زوجته كانت تنشج في البكاء، حتى إن الغمغمات التي كنت أصدرها أنا لم تُسمع.

بعد وقت طويل من منتصف الليل راحت زوجتي وانطوت على نفسها، واستلقت على كنبة في صالة الضيوف. أما زوجة أبي فانزوت إلى فراش آخر في البيت. أما أنا فأويت إلى الفراش واستلقيت بجانب جثّة أبي. كان كل شيء في أبي المسكين مثلما أَلِفْتُه في طفولتي. شَعره، خدّاه، ذراعاه، قميصُه المجعّد وحتى رائحتُه هي نفسها. وفي لحظة ما تعلّقتْ نظراتي برقبته وبشرته. تذكرت اليوم الذي ذهبنا فيه إلى ساحل

«هيبالي» لنسبح في البحر، كنت يومئذٍ في السابعة من عمري. بهدف تعليمي السباحة كانت أمّي تضع يدها تحت بطني لترفعني في الماء، ثم تدفعني باتجاه أبي الواقف على بعد ثلاث خطوات، وأنا أجذّف بكلتا يديَّ خشية الغرق، وللوصول إلى أبي. إلّا أن أبي وبهدف كسر حاجز الخوف وتعليمي السباحة ينقل خطوة إلى الخلف، وأنا من شدة الهياج أصرخ: «بابا! لا تبتعد!» وعندما يراني خائفاً أستغيث كان يبتسم، وكان يمدّ ذراعَيه القويّتين ويحملني خارج المياه وكأنني مُجرَّد قِطّ. حتى وهو في البحر كانت رائحته خاصة به «مزيج من نكهة البسكويت ورائحة نوع رخيص من الصابون». رقبته التي أنظر إليها الآن وأضع رأسي إلى جانبها. وفي كلّ مرّة كان يقطّب ما بين حاجبيه ويقول لي:

«يا ولدي، لا داعي لأن تخاف بهذا القدر. انظرْ فأنا هنا إلى جانبك. هل فهمت؟».

«فهمت»، كنت أقول وأنا أتنفس بصعوبة، وبسعادة وثقة التواجد في حضنه وفي برّ الأمان.

-35-

دفنّا أبي في مقبرة «فري كوي» وكانت هنالك ثلاثة مجاميع من المشيعين عند قبره: في المقدمة زوجته دامعة العينين، ومن بعدها نحن أهله ومِن ثَمَّ أقرباؤنا القريبون والبعيدون، وفي الخلف المقاولون والمهندسون وحشدٌ من رجال الأعمال الذين جاؤوا لأجلي لا من أجل أبي. وتبعثر أصدقاؤه، أصدقاء السياسة، هنا وهنالك على شكل مجموعات مكوّنة من ثلاثة أو أربعة أشخاص. راحوا يدخنون فيما كانوا ينتظرون بدء الصلاة على الميت.

على الرغم من رغبتي في أن أقص عليكم أكثر من هذا فإنني لن أخوض في تفاصيل مراسيم الجنازة. في مقبرة «فري كوي» جاءني رجل مرح، طويل القامة وضمّني إليه بكل ما أوتي من قوة، وقال: «أنت لا تعرفني ولكنني أعرفك جيداً يا سيد جيم».

رأى الرجل أنّني لم أعرفه حقّاً. «أرجو المعذرة» قالها ودسَّ بطاقته الشخصية في جيبي. ولم أستطع إلقاء نظرة إلى البطاقة إلّا بعد مرور أسبوعين عندما عُدنا إلى أعمالنا اليومية. تُرى من هو «سري سياه أوغلو» هذا؟ الذي يعمل في أشغال الطباعة وعمل بطاقات تعريف شخصية وينفّذ أعمالاً ترويجية. حاولت أن أتذكر كل الأشخاص الذين التقيت بهم في «أونجوران» وأستحضر كل الوجوه التي تعرفتها حينما كنت في السادسة عشرة من العمر. وجه «عليّ» الصبي الآخر الذي عمل معي لدى الحَفّار، كان يحضر دوماً أمام عيني. وهو

من أكثر الناس الذين قلقت عليهم بعد المرأة ذات الشعر الأحمر والأُسطى محمود.

بعد أن عجزت عن تذكّر السيد «سري» لجأت إلى البطاقة التي طبعها بنفسه وأرسلت رسالة إلى عنوانه الإلكتروني. فكرت أنّني سوف أسأل عن أحوال أهالي «أونجوران» وكذلك سأكوّن فكرة ما عن أسعار الأراضي هناك. ثم أليس من الصائب أن أعود إلى محل وقوع الجريمة كمقاول، وأتصرف على نحو ما، وكأن شيئاً لم يحدث؟

لقاؤنا بعد عشرة أيام عند بائع المحلبية «سراي» كان لقاءً مذهلاً على الرغم من كونه قصيراً جدّاً. لم ننبس ببنت شفة، وهذا ربما يعد من الأخطاء التي ارتكبتها، ولكن في كل لحظة من مدة لقائنا كنت أشعر بأنه يحق لي أن أسأل عن أيّ شيء كي أعرف عنه. ومن المحتمل أنّني سأمتنع عن تلقي هذه المعلومة عن طريق إلقاء السؤال بخوف.

فالسيد «سري» بدا لي عريض المنكبين وأكثر بدانة من ذي قبل. ولم أجد له صورة بين الوجوه التي استذكرتها خلال شهر واحد قضيته هناك في «أونجوران»، ولكن لم يعد هنالك سبب كي أنزعج من أجله. فقد صدق في قوله إنّه التقى بي لأول مرّة في أثناء مراسيم الجنازة، ولكنه فيما يبدو كان يعرفني من بعيد لبعيد. كان يعرف أبي ويكنّ له احتراماً كبيراً. ولقد كان سعيداً جدّاً إذ حضر مراسيم الجنازة وسنحت له الفرصة كي يعبر عن مشاعره بإزاء هذا الحدث. عندما وقع بصره عليّ عرفني على الفور، لأنني كنت شبيهاً لوالدي: إنك وسيم مثله، ما شاء الله. وجهي نوراني وأنا طيب القلب. أبي كان وطنيّاً، محبّاً لوطنه ومضحياً من أجله. وقد أهدر طاقاته من أجل بلاده. وقد عمل كل ذلك بنيّة صادقة. ولم يحصد لقاء ذلك غير التعذيب، ولكنه لم يتخاذل. اعتقل وحكم عليه بالسجن ولكنه لم يتزعزع عن موقفه. أصدقاؤه خانوه، افتروا عليه وخيّبوا ظنه.

«أيّ افتراء، مثل ماذا يا سيد سري؟».

«سيد جيم، لا أريد أن أشغل وقتكم الثمين بالنمائم السياسية القديمة

أو بإثارة السخافات المحزنة. لي رجاء عندكم. شركتكم سهراب تهتم بأمر قطعة الأرض التي أملكها، إلّا أن موظفيكم المختصين بالعقارات ومهندسيكم يتعاملون معي بإجحاف. فأنت ابن ذلك الرجل الذي لم يكن يرضى بالظلم. فقلت يجب أن أحيطك علماً بهذا».

لم يعطوه السعر نفسه الذي كانوا يعطونه للآخرين لقاء المتر المربع الواحد في المنطقة نفسها، بسبب ظهور شركاء آخرين في أرضه، في حين كان يدّعي أنّه هو وحده مالك تلك القطعة من الأرض.

«سيد سري هل عندك رقم قطعتك؟».

«جئت بنسخة مصورة من الطابو، ولكن أرجو أن لا تصغوا إلى الشركاء وتكوّنوا فكرة سيّئة».

تناولت نسخة الطابو، وبينما كنت أحاول تحديد موقع القطعة قلت له وأنا ساهم: «هل تعرف يا سيد «سري» أنا أيضاً كنت قد تواجدت في «أونجوران» منذ زمن بعيد».

«طبعاً يا سيد جيم أعرف ذلك. وقد حضرتَ إلى خيمة المسرح التابع لجماعتنا. وكان السيد تورجاي وزوجته يسكنان في الشقة المطلّة على الحديقة الخلفية، بينما سكن والداه في الطابق الثاني المطلّ على ميدان المحطة».

إذن فهذا هو الخطّاط صانع اللوحات، وفي تلك الشقة شاركت سرير المرأة ذات الشعر الأحمر. زوجته هي التي فتحت لي الباب وأبلغتني برحيل الفرقة المسرحية. آه، لِمَ لَمْ أستطع التكهُّن بذلك؟

«أنتم كنتم تعملون مع حَفّار الآبار الأُسطى محمود»، قالها وأشار إلى الطابو، «تقع أرضي هذه ما وراء البئر. عندما وَجَدَ الأُسطى محمود الماء أخذَ الحرفيّون بالتهافت على هذه الأراضي. محلّ الخط والإعلانات لم يكن يكسب أيّ شيء، ولكننا أنا وزوجتي رتّبنا أمورنا وبعد سنوات تمكَّنّا من شراء قطعة الأرض هذه هناك. وهذه القطعة هي كل ما تبقّى لعائلتي».

منذ سنوات وأنا أفكر في الأُسطى «محمود» بجانب من عقلي، لا بل كنت أفكر فيه بكل روحي وعقلي. ولم أكن أصدّق أنّه ما زال على قيد الحياة. عرفت أنّه قد أكمل حفر البئر، وعثر على الماء. ومن أجل استيعاب الأخبار التي سمعتها رحت أنظر إلى روّاد محلّ «بائع المحلبيات» وأجول ببصري على وجوه الزحام المتألّف من الطلبة الذين يتناولون طعامهم على وجه السرعة، والنساء اللائي خَرجْن للتبضُّع، ومن الرجال ذوي ربطات العنق، إلّا أن تفكيري كان منصبّاً على ما عشته في الماضي.

لا أدري لِمَ أمضيت ثلاثين سنة من حياتي وأنا أصدّق بقتلي للأُسطى محمود؟

لأنني كنت قرأت أوديب وصدّقت بالحكاية. هكذا أردت أن أفكّر إذن! وقد تعلمت من الأُسطى «محمود» كيف أؤمن بقوة الحكايات القديمة. وإلى الآن ما زلت أبحث عن ذنبي المدفون في الماضي مثل أوديب.

«سيد «سري» كيف تعرّفتَ على الأُسطى محمود؟».

بعد أن عدت أنا وَجدَ الأُسطى محمود الماء، فأغدق عليه «خيري بيك» الهدايا، وأعطاه فرص عمل أخرى. وقد نال إعجاب وتقدير الناس لأنه جُرِحَ أثناء العمل. سقط عليه سطل التراب. اتَّفقَ معه «خيري بيك» على حفر آبار أخرى وربط بعضها ببعض من الأسفل عن طريق حفر أنفاق بينها، وبنى صهاريج ماء كبيرة. ثم راحت المصانع الأخرى في الجوار تمنح فرص تنفيذ أعمال الحفر والبناء وصب الخرسانة للأُسطى «محمود»، وهكذا بعد أن كُسِرَت كتفه وأصبح معاقاً اختار المرحوم أن ينتقل إلى السكن في «أونجوران».

«متى توفِّي الأُسطى محمود؟».

«منذ أكثر من خمس سنوات»، قال السيد «سري».

كانوا قد دفنوه في المقبرة الواقعة على حافة المنحدر، وحضر كل الأسطوات والمُعلِّمين من أمثاله وصبيانهم وأصحاب المصانع، حضروا صلاة الجنازة.

قلت وأنا أرفع حاجبي ناظراً في وجه محدِّثي بفضول: «كنت أحبُّ مُعلِّمي محمود مثل أبي».

فهمت من نظرات السيد «سري» أنّه كان يعرف أنَّ الأُسطى «محمود» كان غاضباً عليَّ، لأنني ارتكبت حماقة معه. ولكني شعرت بأنه لا ينوي التطرُّق إلى الموضوع لأنه كان يتوسَّل إليّ من أجل مساعدته. تُرى هل كان السيد «سري» يعرف أنّي كنت أعتقد منذ ثلاثين سنة أنّي قتلت مُعلِّمي وتركته في البئر؟

كنت أشعر بالحاجة إلى أن أسأل السيد «سري» كيف خرج الأُسطى محمود من البئر؟ وكذلك كنت أود أن أطرح عليه أسئلة أخرى من أجل معرفة كل ما يتعلق بأخبار المرأة ذات الشعر الأحمر. كنت أنوي أن أسأله عن كل شيء إلّا أنّني كنت أمسك نفسي بصعوبة.

«كان الأُسطى محمود يقول عنك صبيٌّ قرأ كتباً كثيرة»، قال السيد «سري» وهو يحاول أن يقول كلاماً يثني به عليّ.

ربما كان الأُسطى محمود يضيف إلى كلامه هذا المزيد ويقول: «في الحقيقة عليك أن تأخذ حذرك ممن يقرؤون كثيراً». حتى إذا قال هذا، فله الحقّ فيما يقول. لأنني كنت المذنب الذي تسبّب في كسر كتفه وإعاقته.

هل كان السيد «سري» على علم بالمرأة الأولى التي دخلت حياتي، وهل يعرف أنّني نمت معها في بيته؟ وعلى الرغم من أنّه كان يمطّ في الكلام فإنني تمكنت من معرفة الأجوبة التي كنت أسعى لمعرفتها، وهي أن السيد «سري» وزوجته قد انتقلا من تلك البناية المطلّة على ميدان المحطة، وأن العمارة القبيحة ذات النوافذ الكبيرة قد هُدمت وبني في مكانها مركز كبير للتسوق. والآن تجد الشباب يتجمّعون هناك. أمّا مسألة القطعة العائدة له فكان علينا أن نعاينها على الأرض. وإذا ذهبت إلى

هناك فإنه سوف يدعوني لتناول وجبة العشاء في بيته. كان قد ترك التنظيم ولكنه لم تكن بينه وبين رفاقه القدامى أيّة جفوة. بين الحين والآخر كان يقتني جريدة «الوطن» الثورية، ولكنه لم يكن يقرؤها لأن الجريدة كانت تتمادى في غلوائها. قال:

«عليهم أن يفضحوا الفساد والتلاعب في قطاع البناء بدلاً من مناصبة أمريكا الإمبريالية العداء».

هل كان كلام السيد «سري» الأخير هذا يحمل تهديداً؟

«سيد «سري» أنا سأكلم جماعتنا، وهم لن يسمحوا بحدوث أيّ نوع من المظالم. ولكن لديَّ طلب أرجو قبوله. هل يمكنكم أن توضحوا الافتراء الذي تعرض له أبي...؟».

لم يعانِ أبي وحده من ممارسات كهذه. تركيا يومها كانت بلداً متخلّفاً. أعضاء التنظيمات الماركسية اليسارية، وبخاصةً القادمون من الريف كانوا يحملون تأثير الإقطاعية وما كان باستطاعتهم أن يتفهموا العلاقة بين الجنسين، ولم تكن تروق لهم حكايات الحب ولا يتقبلون الوقائع الغرامية. وكان مسؤول التنظيم قد وضع حدّاً لمثل هذه المسائل خوفاً من تفشي الغيرة والكراهية بين أعضاء التنظيم. لذلك فإن حكاية الحب هذه التي كان أبي بطلها قوبلت بعدم الرضا.

ثم قال السيد «سري»: «كانت الفتاة رائعة الجمال، وقد وضع أحد قادة «الوطن» الثورية الفتاة نصب عينيه».

لهذا السبب تضخمت المسألة. وفي نهاية المطاف اضطر أبي للانفصال عن تلك المجموعة لينضم إلى جماعة أخرى. ثم قام المُعلِّم الكبير هذا بالزواج من تلك الفتاة. أما حين اصطيد هذا المُعلِّم من قبل جنود الدرك، زوّجوا الفتاة من أخيه الصغير. لم يكن أبي يشعر بالأسى لانفصاله عن تلك الفتاة المنفلتة تماماً، بل على العكس عمد إلى اختيار زوجة له من خارج التنظيم. وهكذا ولدتُ أنا. وطالما أنّ أبي لم يغيّر وجهته إلى اليمين فلا تحزنني هذه الحكايات قَطّ.

«لقد ولّى الماضي إلى غير رجعة يا سيد «سري»، فلا شيء يستحق أن تحزن من أجله. إنها حكايات حب ليس إلا».

«في الواقع يا سيد جيم! أولئك الناس أنت تعرفهم جيداً».

«أعرف من؟».

«الرجل الذي تزوجته الفتاة هو السيد «تورجاي». عشيقة السيد الوالد هي تلك المرأة الممثلة التي كانت تسكن في الشقة العائدة لي».

«كيف؟».

«تلك المرأة ذات الشعر الأحمر! السيدة «كولجهان» يومها كانت صهباء ولون شعرها كستنائي، تلك الشابة كانت عشيقة أبيك المرحوم!».

«هكذا إذن! أين هم الآن يا ترى؟».

«انقلعوا من هنا. ولُّوا الأدبار... عادوا مرتين إلى هنا لتقديم عروضهم للجنود ثم غابوا. حين رزقوا بطفل امتهنوا أعمالاً أخرى وهاجروا مثل غالبية الناس الذين غيّروا مدنهم... ابنها يعمل محاسباً. يقوم بتنظيم دفاتر حساباتي. أنا أيضاً هجرت هذه التنظيمات. القلة القليلة من القدماء في البلدة أمثالي مازالوا ماكثين هناك في «أونجوران» ينتظرون...».

إلى أن حانت فرصة افتراقنا لم أكرّر سؤالي عن المرأة ذات الشعر الأحمر. شعرت بأنّ السيد «سري» يزوّق الحكاية من هنا ويجمّلها من هناك لئلّا يتسبّب في كسر خاطري. ثم عمد إلى نقل تلك الأحداث إلى ما قبل زواج أبي وأمّي، في حين أنّ أبي عندما هجرنا وغاب عن الأنظار لمدة سنتين، كنت أنا في الثامنة أو التاسعة من العمر. وفي أثناء غيابه راحت أمّي تصب جام غضبها عليه، وقلّ احترامها له أكثر فأكثر. بالطبع كنّا نعرف أنّه كانت هنالك أسباب سياسية تكمن خلف تلك الغيبة. ولكن كان لهذا الحدث الذي صار أمراً واقعاً جانب مجهول لم أكن أدركه. وفهمت من الهمس الدائر أن والدتي كانت غاضبة، توجّه أصابع الاتهام إلى أصدقائه السياسيين أكثر مما توجهها إلى الدولة.

خرجنا من محلّ بائع المحلبية معاً مع السيد «سري» وقد أصبت بالذهول مما سمعته من هذا الرجل. ولم يكن سهلاً قَطّ تحاشي الانفعال، ولئلّا يكتشف هذا الخطّاط القديم أمري. بقيت أطوف الأزقة من بعده مثل شبح لا أب ولا ابن له.

-36-

أخبرتُ «آيشا» أنّني التقيت بأحد قصاصي الحكايات القدامى في «أونجوران» حين ذهبت إليها لإتمام معاملات تتعلق بشراء بعض الأراضي. هناك شعرت كما لو أنّني تعرضت للإهانة والاحتقار أو وقعت فريسة للاحتيال أكثر من الشعور بالندم أو الشعور بالذنب. أبي المرحوم ماذا كان يقول عن هذا؟ ماذا ستكون ردة فعله لو عرف أننا «أنا وهو» تقاسمنا فراش المرأة نفسها مع فارق زمني يبلغ سبع أو ثمانِ سنوات؟ فكرت في هذا ولكن ليس لمدة طويلة، بل من أجل التقرب إلى زوجتي. شعرت بالخوف ينتابني من المرأة ذات الشعر الأحمر.

كان القلق ينهش روحي لأنني كنت أخشى مما سأطّلع عليه مجدداً، وبرغم كل محاولاتي في أن أكون إنساناً طيباً كان هنالك شعور بالذنب لا أدري ما هو مصدره ينغّص عليَّ حياتي. أن تُتهم وتتحمل جريرة عمل ما برغم كونك بريئاً أمرٌ لا يحدث إلّا في الأحلام، وهذا بحد ذاته نوع من أنواع الخوف. هذه الهواجس أشعر بها مراراً وتكراراً.

سهراب كشركةٍ للبناء كانت تنمو نموّاً سريعاً، أما نحن فمهما بذلنا من جهد ما كنّا نلحق بهذا التطور.

جئنا بابن عم «آيشا» وجعلناه مسؤولاً في الشركة عن قسم بيع وشراء العقارات. كنّا نشعر بالغبطة حين نسمع «مراد» يتأفّف مردِّداً قوله: «لقد اشترينا قِطعاً عديدة من الأراضي على مرتفعات «بيكوز» ولم نذهب لحدّ الآن لرؤية أيّة واحدة منها».

«هنالك أراضٍ رائعة خلف «شيلة»[32] لم ننتبه إليها، ولكن سهراب - ما شاء الله - حصل على قطع عديدة من الأراضي في تلك النواحي». كنّا نبتهج حين نسمعه، وهو يقول هذا الكلام أمام أصدقائنا لأن «سهراب»[33] ولدنا قد كبر وصار قبلة للأنظار.

أحياناً أسأل عن أيّ معنى لحياتي على نحو ساذج، تُرى هل السبب هو عدم إنجابنا، أم لأن كل شيء سينتهي من بعد رحيلنا؟ كلّما انتابتني الكآبة التجأت إلى صداقتي مع «آيشا». وكانت «آيشا» قد اكتشفت أنَّ قوَّة ارتباطي بها نابعة من حاجتي إلى امرأة قوية وذات تفكير سليم تقف إلى جانبي. وكانت تعلم علم اليقين أنّني لن تكون لي علاقة سرّية أخرى، ولن أخدعها مع امرأة أخرى ولن أهرب منها. في بعض الأيام عندما يتعذر علينا اللقاء رغم أننا في أماكن مختلفة من مكاتب الشركة فنتحدث على الهاتف الجوّال. كانت تسألني: أين أنت؟ هذه الثقة بالنفس فسحت المجال واسعاً أمام نوع من الغرور والإعجاب بالنفس تسبّب في اتخاذنا قرارات خاطئة ألحقت ضرراً كبيراً بشركة سهراب في مطلع العام 2013.

شركات مثل شركتنا ممن كانت تعمل في قطاع البناء استفادت من قانون الإعمار وحققت نموّاً كبيراً، وراحت تبني أحياء سكنية متكاملة ذات عمارات عالية، وبهدف الترويج عن مشاريعها وتسهيل بيع الشقق السكنية بدؤوا بنشر إعلانات كبيرة في الصحف والتلفزيونات، أما نحن فأبرمنا اتفاقاً مع شركة إعلانية، صدقنا بآرائهم.

ففي إعلانات الشركات الإنشائية يظهر المقاولون الكبار بأنفسهم ليتحدّثوا عن العمارات التي بنوها. هذه الطريقة كانت متّبَعة في السابق أيضاً بهدف الإيحاء بأنّ هذه المواقع بَنَتْها شركاتٌ مرموقة وموثوق بها.

32- شيلة: ناحية تابعة لإسطنبول. تقع في منطقة «مرمرة» على ساحل البحر الأسود. أهمّ المعالم فيها هو برج شيلة وفنارها، والصخور الباكية التي تقع خلف برج الفنار، تجري مياهها من بين الصخور كما تجري الدموع. (المترجم).

33- المقصود هو شركة سهراب، وليس سهراب بن روستم. (المترجم).

وهكذا فإنَّ المقاول ذي الشعر الأشيَب إذْ يظهر مرتدياً بذلةً وربطة عنق، لا يمكن أنْ يكون محتالاً يخدعكم ويبيع لكم بناءً غير رصين ينهار في أول زلزال.

بالنسبة إلى خبراء الإعلان نحن «أنا وآيشا» كنّا شابَّين قياساً إلى المقاولين الشيوخ. شابَّين متعلِّمَين ومعاصرَين. ظهورنا جنباً إلى جنب سوف يوحي للمشاهدين بأنّ «سهراب» ليست شركة ريفية المنشأ. سوف يفرِّق المشاهد بيننا وبين الشركات الأخرى. وعلى الرغم من أننا طلبنا ألّا نظهر في الإعلانات إلّا أن أحاسيسنا تبلَّدت وألسنتنا انعقدت. فلم نستطع التخلص لا من الحداثة ولا من اسم سهراب.

فيما كنّا في بداية عملية تصوير الإعلان قمنا بتفخيم الحياة الأوروبيّة التي لم نكن ألِفْناها أصلاً، وأخذنا نقلّد بعض الجوانب المترفة في الحياة تقليداً شكليّاً. وما إن ظهرت الإعلانات في الصحف ولوحات الإعلانات في الشوارع، وبوشر ببثّها عبر الأثير وظهرت على شاشات التلفزيون حتى حقّقت نجاحاً ساحقاً من جهة، ومن جهة أخرى تسبّب الإعلان بفضحنا بين الأصدقاء والأقارب. الأحياء السكنية الثلاثة التي باشرنا بها في مناطق مختلفة من إسطنبول، في «كاواجك، كارتال، وأونجوران» وفي الأيام التي كنّا نبيع الشقق الباهظة الثمن نسبيّاً، حتى قبل اكتمال معظمها، صرنا نسمع من أصدقائنا مزاحات تستهزئ بإعلاناتنا، وانتقادات تطول كلامنا وملبسنا الذي نظهر به في الإعلان. قال بعضٌ منهم من أصحاب النوايا الحسنة، محذِّرين إيانا: «هل كان ظهوركم في هذه المرحلة صائباً؟»، فالأثرياء في العثمانية، وحتى في روسيا وفي إيران وفي الصين كانوا يخفون ثرواتهم عن أعين الدولة خشية التعرض إلى بطشها.

وهكذا قضينا مدة من الزمن لم نخرج فيها من البيت، ولم نفتح جهاز التلفزيون. وانتظرنا عسى أن ينسى الناس وننسى نحن أيضاً كابوس هذا الإعلان. وفي هذه المرحلة شعرنا بأنّ سهراب ليس ولدنا، أما نحن فلم نكن سوى أسرى وقعنا في يديه.

في تلك الأيام ظهرت حملة إعلان ضد سهراب وصارت تصلنا رسائل تستهزئ بنا. ثمانِ رسائل أو عشرُ رسائل كانت تصلنا كل أسبوع، أنا شخصيّاً كنت أفتح المظاريف، أقرؤها ثم أرميها، ولكنني احتفظت بواحدة من تلك الرسائل:

«السيّد جيم...

أودُّ أنْ أقدِّم لك جُلَّ احترامي، لأنك أبي.

سهراب يقوم بأعمال خاطئة في أونجوران.

أودّ أن أحذرك كوني ابنك.

إذا كتبتَ إليّ على هذا العنوان فسأشرح كل التفاصيل.

لا تخشَ ابنك.

أنور»...

وكان هناك عنوان البريد الإلكتروني للمرسِل، كُتِبَ أسفل الرسالة. فكرت على الفور أن هذا الشخص مثل السيد «سري سياه أوغلو» أو مثل بعض النمّامين من أهالي أونجوران الذين يحاولون تحقيق مكاسب مادية عن طريق التهديد أو الاستغلال. وقد راقت لي مخاطبته إياي بكلمة «إنّك أبي». استشرت محامي الشركة السيد «نجاتي بيك» وسألته عن «الأعمال الخاطئة».

«الكل هنا يعرف أنك عملت كصبيٍّ لدى حَفّار آبار، قبل ثلاثين سنة حينما كانت أونجوران بلدة عسكرية صغيرة لا أهمية لها»، قالها المحامي. «أما بعد ظهور ذلك الإعلان فقد تحوّلَ الخبر إلى أسطورة. كان يروق لأهالي أونجوران أن يفتخروا لأن هذا المقاول والمهندس العصري الذي يظهر في الإعلانات مع زوجته، ويتخذ وضعيات مختلفة

أمام عدسات الكاميرا كان يعيش بينهم فيما مضى من الأيام، وعمل كشغّيل في الآبار. ولكنهم حين ينوون أن يبيعوا أراضيهم يرفعون – بفخر أيضاً – سقف السعر إلى حد غير معقول، وفي أثناء المساومة على السعر المناسب يبدو عليهم الضجر ثم ينقلب حبهم له إلى حقد دفين. وما يثير هذا الحقد أكثر فأكثر هو تصرف جنابكم في الإعلان. يعتقدون أن ما تقولونه في الإعلان حقيقي فيحسبونك أرعن إلى درجة كبيرة، وأكثر من مبالاتهم بك كمُلحد، يصدّقون بما حدث من سوء بينك وبين الأُسطى «محمود»، وكان قد بلغ عندهم مرتبة القدِّيسين لأنه عثر على الماء. عليك أن تذهب إلى هناك وتغيِّر ما في نفوس أولئك الناس، أن تشرح لأهالي أونجوران اليوم تفاصيل ما حدث بينكما قبل ثلاثين سنة. كيف كنتما تعملان معاً هناك في عزّ الصيف من أجل إيجاد الماء، سوف يفهمون كونك واحداً مثلهم، وسوف يقلعون عن وضع العراقيل التافهة أمام سهراب».

-37-

لم أجرؤ على اتخاذ قراري بشأن الذهاب إلى «أونجوران»، لأن قلبي كان مترعاً بخوفٍ ترسَّب في داخله لكثرة ما قرأت وناقشت حكايات أوديب وسهراب.

وبعد خمسة أسابيع طلب السيد «نجاتي» أن ينفرد بي في المكتب.

«سيد جيم هنالك أحدهم يدّعي أنّه ابنك».

«هل هذا شخص حقيقي؟».

«نعم، وهو في السادسة والعشرين من العمر. يدّعي أنك عاشرت أمّه في العام 1986».

كانت هنالك غيوم رصاصية تتلبّد فوق إسطنبول. كنت في غرفتي الكائنة في مكاتب شركة سهراب التي تَشغَلُ ثلاثة طوابق واقعة في الطوابق العلوية لأحد مراكز التسوُّق، الكائنة في حيّ «نيشانتاش» في شارع «والي كوناغي».

«وقتها جنابك كنت في السادسة عشرة من العمر»، قالها السيد نجاتي حين وجدني لُذْتُ في صمت عميق، «وقد مرَّتْ على الواقعة ثلاثون سنة. في قديم الزمان كان القضاة لا يستمعون إلى الأمّهات ولا إلى الأولاد الذين يقيمون الدعاوى. ومثل ما هو معلوم لدى الجميع فإن المدة القانونية المسموح بها في النظر إلى الدعاوى كانت قصيرة ومحدَّدة حسب ما نصّت عليه القوانين. يمكن اللجوء إلى المحاكم بعد عام على ولادة الطفل، والفتى بعد عام واحد على بلوغه سن الرشد... لقد مرَّت ثمانِ سنوات على ولادة الفتى».

«حسنٌ، ماذا إذا كان الفتى محقّاً؟».

«تقصَّينا الحقائق وبحسب المعلومات المتوافرة لدينا، فإن النطفة عندما وقعت في رحم الأم كانت الأم الممثّلة متزوِّجة من ممثِّلٍ آخر. ففي القانون التركي وبهدف المحافظة على كيان الأسرة، ومن أجل عدم المساس بسلطة الأب، أو الإضرار بهوية الأب الرمزية، يحق للأب أن يسجل الطفل المولود حديثاً باسمه، ويثبت ذلك في وثيقة النفوس التابعة له. في الواقع القيام بعكس ذلك كان ضرباً من المستحيل. حسب القوانين القديمة إذا ادّعت المرأة قائلة: نعم بينما كنت على ذمّة هذا الرجل، ذهبت إلى الفراش مع رجل آخر وهذا الرجل هو أبٌ لابني»، لكانت الدنيا تقوم ولا تقعد. ولتعرَّضَت المرأة في صالة المحكمة إلى طعنٍ بالسكاكين من أهل زوجها. أو كانت تقاضى ويحكم عليها بالسجن».

«هل تغيرت هذه القوانين؟».

«سيد جيم، قبل أن تتغير القوانين تغيَّر الطبّ وتطوّر. فلم يعد الأمر منوطاً بيد القضاة ذوي النوايا الحسنة، كما ولت وإلى الأبد تلك الأساليب القديمة التي كان الحاكم يلجأ فيها إلى إجلاس الأب وابنه جنباً إلى جنب لينظر في وجهيهما، ويهتف نعم إنك تشبه أباك أو ينادي على الأب ليسأله هل تعرف أمّ هذا الولد؟ أو يستدعي الأم ليسألها هل لديكِ شهود أو صور فوتوغرافية تثبت ذلك؟ الآن تؤخذ عيّنات من دم الأب والابن ويتمّ فحص الحمض النووي في المختبر. ويعرفون من هو أبو الولد، والأب من هو ابنه. في السابق كانت هذه المسائل تعتبر بمثابة بارود يوضع تحت قواعد المجتمع لنسفه، كانت مرفوضة».

«لماذا يهتزّ المجتمع إذا تقبَّل الولد شخصاً ما كأب حقيقي له؟».

«سيد جيم، ذهبت إلى صديقٍ محامٍ له خبرة، وهو مختص بتبنّي دعاوى الأُبوّة والبُنُوّة. وقد أحزنني ما سمعت منه. فهنالك العديد من الأمثلة. مثلاً أحد الأثرياء كان يلاعب فتاة فقيرة ثم حبّلها. ولأنه كان يعرف القوانين راح يمنّيها بمعسول الكلام، ويعدها بإيجاد حلٍّ ملائم في

الغد أو بعد غد، حتى تنقضي سنة كاملة على فعلته فيقوم بحلّ المشكلة مثل الباشوات العثمانيين وتزويجها بأحد رجاله لكي يتخلّص من الفضيحة. أمثلة أخرى كثيرة... مثل فتى كان يضاجع زوجة عمّه في السر فتحمل منه، أو شاب يأتي من القرية ويحلّ ضيفاً في بيت أحد أقاربه فيقع في ورطة مع بنت الجيران، أو من يغتصب زوجة أخيه أو من يفتضح أمره مع شقيقته هو بالذات. ومن أجل الحفاظ على الروابط العائلية قام الناس بالتستُّر على هذه الفضائح والتعتيم عليها لكيلا تسكب المزيد من الدماء. ولكن الناس لن ينسوا مثل هذه الأعمال الشنيعة. سيد جيم! عندما كنتم في السادسة عشرة من العمر، أيْ في سنة 1986 هل حدث أنْ نِمْتَ مع السيدة «كول جيهان» أُمِّ هذا الولد؟».

«نعم مرّة واحدة فقط! ولكنني لا أصدق أن يتحقق الحمل من مرّة واحدة».

«لقد وكّلوا دعواهم القضائية إلى محامٍ شرس له أنياب قاطعة، يمزّق من يواجهه. هو الآخر ظلَّ على مدى سنوات يعتقد أنَّ أباه رجلٌ آخر. لا يتبنَّى أيّة دعوة ما لم يكن متأكداً من أحقّية المدَّعي».

«من الذي يعرف أحقيَّة هذا من ذاك؟» قلتُ، «هل السيدة كول جيهان ما زالت على قيد الحياة؟».

«أجل ما زالت حيّةً تُرزق».

«حين كنت في السادسة عشرة من عمري كان شعرُها أحمر».

«ما زال كذلك. ما زالت جميلة. توفّي زوجها السيد «تورجاي» بعد مدة قصيرة من انفصالهما. كان زواجهما تعيساً، إلّا أنّه كان زواجاً مفعماً بأحلام عن الحياة والمسرح. يبدو لي أنها خرجت علينا بهذه الدعوى القضائية لتوفير مورد مناسب لابنها الذي يعيش حياة الفاقة. بعد طلبها فحص الحمض النووي لا بدّ أنها أُحيطت علماً بأنّ شرط مرور مدة سنة كما كان في القانون السابق لم يعدْ ساري المفعول...».

«ماذا اكتسب الولد في حياته الدراسية؟».

«الشخص الذي يدّعي أنّه ابنكم، أنور، قد درس قسم المحاسبة في جامعة نسيت اسمها. أعزب... له مكتب محاسبة في بلدة أونجوران... ينتمي إلى إحدى المنظمات القومية. يكره اليساريين والأكراد، غاضب على الحياة وعلى أبيه».

«تقول غاضب على أبيه، هل تقصد السيد تورجاي؟».

«نعم».

«نجاتي بيك لو كنت مكاني ماذا كنت ستفعل؟».

«أنتم تعرفون أحسن مِنِّي ما الذي جرى لكم قبل ثلاثين سنة، لذلك لا أستطيع أن أكون في مكانكم يا سيد جيم. ولكن ما دمت تتذكر أنك كنت مع تلك السيدة، أرى أنّه من الأفضل أن نطلب عمل فحص الدم... لنباشر بدراسة القضية. ومن دون إطالة الموضوع لنطلب فحص الدم اعتباراً من الجلسة الأولى. ثم يتوجب علينا أن نتّفق مع الحاكم على أن تكون القضية مغلقة عن الصحافة، لئلّا يتمّ نشر أخبار فاضحة ومزعجة عن صاحب شركة سهراب».

«أودُّ ألّا تسمع السيدة «آيشا» أيّ شيء عن الموضوع في الوقت الحاضر، لأنها سوف تحزن كثيراً. وقبل ذلك أرجو منك أن تلتقي بالسيد أنور وتتحدّث معه إن كان بإمكاننا حلّ المسألة بلطف خارج صالة المحكمة».

«قال لي المحامي إن موكِّلَه لا يريد اللقاء بكم ولا التحدُّث معكم!».

انتابتني الدهشة لأنني شعرت فجأة بالانكسار، وفي الحقيقة أنّني كنت قد قلقت على ابني.

يداه، ذراعاه، وجهه أو مُحيّاه، تُرى هل فيه شيء يشبهني؟ إذا تقابلنا وجهاً لوجه تُرى ماذا كان يدور في خاطري؟ تُرى أصحيح أنّه يحشر نفسه مع القوميين المتشددين؟ لماذا سكن في أونجوران؟ تُرى ما هو رأي المرأة ذات الشعر الأحمر؟

-38-

بعد شهرين ذهبتُ إلى الكلية الطبية في «جابا» وقبل أن يعلن القاضي نص التقرير للمحكمة أخبرني به المحامي «نجاتي بيك» عن طريق الهاتف. وبعد أسبوع وبالنظر إلى كافة النتائج الحقيقية قرر القاضي بأنّ يُسجّل أنور في دائرة النفوس بكونه ابني الشرعيّ. طيلة هذه المدة التي استغرقتها المحاكمة وفحص عينات الدم، وفترة اتخاذ القرار، ومراحل تحويل وثيقة نفوس الولد إليّ، تخيلت بيني وبين نفسي أننا سنلتقي في ردهة مستشفى أو في قاعة المحكمة وجهاً لوجه، وكنت أسأل نفسي تُرى ماذا سيكون ردّ فعلنا إذا التقينا؟

في الواقع إن عدم رغبة ابني في اللقاء معي يجب أن تفسَّر على نحو جيد كما يذهب إلى ذلك المحامي السيد «نجاتي بيك». ففي مواقف كهذه ومهما كانت أعمارهم فإن الأبناء يكونون غاضبين على آبائهم. وبمُجرَّد أن يتم تحويل الولد إلى تبعية أبيه، يحق للولد وأمه أن يقدِّما طلباً لتعويضهما ماديّاً عن سنوات الحرمان التي عاشاها بعيداً عن الأب. وعدم قيامهما بتقديم هذا الطلب لحدّ الآن خبرٌ يبشِّر بالخير. ربما لا يفكران في الوقت الحاضر بأنّ يضايقاني بطلب مبلغ من المال، وهذا بحدّ ذاته كان يدفعني إلى التفاؤل. وهذا ما حذّرني منه المحامي قائلاً: إن كل قضايا الأبُوّة والبُنوّة التي تصل إلى قاعة المحكمة هي في الأساس دعاوى اقتصادية. فعلى مدى التاريخ لم نسمع أنْ قدَّم فتىً شكوى إلى المحكمة يقول فيها: هذا الثريّ ليس هو أبي الحقيقيّ بل هو ذلك الرجل الفقير، ويشير إلى رجل بائس.

السيد «نجاتي بيك» الذي كان مسؤولاً أيضاً عن استثمارات «سهراب» أشار إلى أهمية عقد الاجتماع التعريفيّ للشركة في أونجوران، وسيكون لهذا أثرٌ جيد.

كان عليّ أن أفاتح زوجتي «آيشا» بالموضوع. وفي ذات يوم قلت لها وأنا أحدّق في عينيها:

«أريد أن أكلّمك في موضوع مهمّ».

«ما هو؟» قالت، وأظهرت مخاوفها مقدَّماً مما سوف تسمعه. كنت قد تيقّنتُ أنّني لن أتمكّن من الحفاظ على هذا السر إلى النهاية، ولن أفلح في إخفاء الموضوع عن زوجتي مثلما أخفيت الأُسطى «محمود» في البئر.

«ظهر أنّه لي ولد»، قلتها بعد تناولي العشاء وأخذي كأسين من النبيذ. قلت ذلك على نحو مفاجئ ثم أخذت أروي كل ما حدث لي في السابق دون أن أنقص منه شيئاً. وهذا جعلني أشعر بالراحة. وبقدر شعوري بالراحة تألمّت «آيشا».

«طبعاً تشعر الآن بنوع من المسؤولية تجاه الولد»، قالتها ولاذتْ بصمت عميق، ثم أردفت قائلة:

«انتابني الحزن لسماع هذا الخبر. هل ترغب برؤيته؟».

رأتني أتلكّأ في الرد فأمطرتني بوابل من الأسئلة، إن كنتُ أرغب برؤية المرأة ذات الشعر الأحمر، أو إن كنت أطمح لتوطيد الصداقة بيني وبين ابني، وهل هو الآخر يريد أن نكون صديقين؟ ألهذا الغرض إذن أمضينا كل هذه السنين ونحن نحلّل ونفسّر العلاقة ما بين الملك أوديب و«روستم وسهراب»؟

في تلك الليلة التي شربنا فيها إلى حدّ الثمالة، لم نبقِ بيننا من خفايا إلّا وخُضنا فيها. حتى تطرّقنا إلى ذلك الموضوع الذي كان عالقاً بيننا: إذا مُتُّ أنا قبل زوجتي «آيشا» ولأننا لم ننجب طفلاً آخر فبحسب القوانين التركية المعمول بها – ولا داعي حتى إلى كتابة رسالة وصيّة – سيرث

الفتى ثلث الحصص من شركة سهراب. أما إذا توفّيت «آيشا» قبلي (ولعدم وجود فارق كبير في العمر بيني وبينها)، فمن بعدي ستكون سهراب بأكملها ملكاً لهذا الفتى الذي لم نَرَ وجهَهُ بعد.

في صباح اليوم التالي قالت «آيشا»: «ليلة البارحة رأيت فيما يرى النائم أن ابنك يُقتَل». وفي صباح ليلة أخرى تحدَّثتْ على نحو أكثر حدّية وبشكل واضح: أشعر بالخجل من ذكر هذا الأمر، ولكنني أحياناً أريد أن أقتله. هذا اللقيط لو كان اسمه سهراب لكانت اللعبة متكاملة».

«أرجو ألّا تلفظي تلك الكلمة البذيئة»، قلتُ لها. «الفتى لا ذنب له. ثمّ إنّ أباه لم يعدْ مجهولاً».

مُجرَّد شعورها بأنني أصطفّ إلى جانب الفتى كان يسبب كسر خاطر زوجتي فكانت تلوذ بأذيال الصمت. ظلت لفترة ما بعد ذلك تحاول استدراجي في الكلام، إن كنت ألتقي بالولد أم لا. فقلت لها: «الولد بالذات لا يريد أن يراني على الإطلاق». ولكي أجعلها تطمئن إليَّ أكثر أضفت: «يبدو لي أنّه فتى غريب الأطوار».

«أنت! يشدُّك الفضول لرؤيته. هل تودّ أن تَرى وجهَه؟»».

«لا»، قلت لها وأنا أعرف أنّي أكذب عليها. كان يتوجّب عليّ أن أقول «لا» لأنني لم أستطع كذلك إجبار ولدي على اللقاء بي. وشعرت بأنني قريبٌ إليه أكثر من قرب زوجتي إليَّ.

بعد ثلاثة أشهر خابرني «مراد» من أثينا وطلب إليّ الحضور فوراً، مثلما طلب إليّ قبل سنوات عندما دعاني إلى الحضور إلى طهران. وتذكرت أنّني لم أندم على ذهابي إلى هناك. قال إنّه ينتظرني في فندق «جراند بريتان»، وبعد يومين حين التقينا في أثينا أخبرني بانفعال واضح، أن دولة اليونان على وشك إعلان إفلاسها. قالها ونحن جلوس في الصالة الفخمة للفندق الذي اتخذته بريطانيا مقرّاً لقواتها في أثناء الحرب الأهلية التي أعقبت الحرب العالمية الثانية. وأخبرني أن أسعار العقارات قد هبطت إلى النصف، وهؤلاء الذين تراهم جالسين هنا وهناك، أغلبهم

رجال أعمال ألمان وأجانب جاؤوا لشراء عقارات معروضة للبيع في أماكن متفرقة من مركز المدينة. وأخذ يريني صوراً ملونة للعقارات المعروضة للبيع.

وعلى مدى يومين زرنـا المباني المعروضة للبيع مع «مـراد» والمسؤول عن بيع وشراء العقارات الذي يعمل لديه. وفي ذات يوم بعد انتصاف النهار استأجرت سيارة تاكسي واصطحبت صديقي إلى مدينة «ثيبة». وكانت هناك خطوط سكك حديد متروكة، وعربات قطار قديمة تغطيها النباتات المتسلقة ونسيج العناكب. كما رأينا مصانع ومسقَّفات خاوية. المدينة التي عاش فيها «الملك أوديب» بدت تماماً كما رُسمت في لوحة «آنغرز» وغوستاف موريو. كانت منتصبة على قمة تلٍّ شامخ. وفيما كنّا نحتسي القهوة هناك أعرب لي «مراد» عن حاجته إلى مبلغ من المال، وقال إنّه ينوي أن يبيعني الأراضي التي سبق أن اشتراها في «أونجوران». محامونا في إسطنبول، الذين كانوا يفكرون على نحو سليم أفضل مِنِّي ولديهم سرعة بديهة أحسن مِنِّي، وافقوا على طلب «مراد» ورأوا أن أسعاره مناسبة، ولكن قبل مباشرتنا بإتمام هذه الصفقة المربحة بالنسبة إلى شركة سهراب، كان عليَّ أن أهتم بعقد لقاء مع ولدي وأمه في «أونجوران» لأثبت للملأ أنّني أُكِنُّ احتراماً كبيراً للأيام الغابرة التي عشتها هناك، ولذكرى الأُسطى «محمود»، وليكون ذلك تعبيراً عن حسن نوايا الشركة.

طلبتُ إلى السيد «نجاتي» ألّا يخبر «آيشا» إنْ كنّا سنعقد لقاءً معهم في «أونجوران»، كما طلبتُ إليه أن يتحرَّى عن السيدة «كول جيهان» والسيد «أنور» وما هو رد فعلهما؟ وأن يستأجر مفتِّشاً بوليسيّاً لمعرفة ذلك إذا اقتضى الأمر.

بعد أسبوعين أعطاني السيد «نجاتي» جميع المعلومات التي جمعها عن المرأة ذات الشعر الأحمر وابنها. قال إنّ العلاقة بينهما متينة. إنهما صديقان ولكنهما لا يلتقيان إلّا قليلاً، فالعلاقة بينهما فترت بعد رفع

دعوى الأبوّة في المحكمة. المرأة ذات الشعر الأحمر في البدء ردّتْ بالنفي على طلب السيد نجاتي، ثم ما لبثت أنْ اشترطتْ أنها ستقبل «إذا تمّ اللقاء سرّاً»، وبعد ذلك غيّرتْ رأيها ورفضت المواجهة. كانت تعيش في شقّة ورثتْها من زوجها المتوفَّى «تورجاي» وتقيم أودها بالعمل في دبلجة المسلسلات التلفزيونية.

بالنسبة إلى «نجاتي بيك» فإنّ ابني أنور منزعج من الحملة الدعائية وله ردة فعل وغير راضٍ عن ظهوري في الإعلان، ولا يريد أن يعرف الناس أن أباه هو من يظهر في هذه الإعلانات، ولهذه الأسباب مجتمعة لا يريد أن يلتقي بي. لا يريد أن تهتز صورته أمام أصحاب المحلّات الذين كلفوه بتنظيم حساباتهم. فهو كمحاسب يساعدهم في تنظيم معاملاتهم التجارية ويرشدهم إلى كيفية إدارة دفة الضرائب المترتبة عليهم.

يقول بعضهم عن ابني إن علاقته بأمّه قوية، وهنالك آخرون يرون فيه ذلك العصاميّ الغضوب، ويقولون لهذا السبب لم يتزوّج لحد الآن. له علاقة صداقة تربطه مع لفيف من الشبان يدينون بحب المسرح مثلما كانت أمه تحب المسرح. وبينما كنت أطَّلعُ على مجلّات مثل مجلّة «هلال» و«بنار» المحافظتين والمعتدلتين اللتين جاء بهما السيد نجاتي، بدأت في البيت بقراءة أشعاره المنشورة في هذه المجلات، وأنا أخفيها بعيداً عن عينَي زوجتي. كنت أتساءل: تُرى لو كان أبي على قيد الحياة ماذا كان يقول عن حفيده الذي ينشر أشعاره في مجلّات دينية؟

طلبت إلى قسم التسويق أن يتهيّؤوا للاجتماع المزمع عقده في «أونجوران» وأبلغتُ آيشا أنّي لا أستطيع الحضور في ذلك الاجتماع. خشيتُ من الحضور ولا أريد أن أكسر خاطر زوجتي. وقد اخترعت لنفسي موعداً وهمياً للذهاب إلى «أنقرة» وعندما ذهبت إلى مكتب الشركة يوم السبت نحو الظهر ألغيتُ موعد السفر إلى «أنقرة» بشكل مفاجئ. لقد أثر في نفسي الهياج الذي كان ينتاب كل واحد من منتسبي سهراب. رجوت من السيد «نجاتي» ألّا يخفي عن «آيشا» ذهابي إلى

«أونجوران» بمعيّة منتسبي سهراب. وبعد ذلك أردت تحقيق الحلم الذي ظل يراودني طوال ثلاثين سنة، وقلت لأصدقائي بأنني أرغب في أن أستقل القطار في ذهابي إلى «أونجوران». وقبل أن أغادر المكتب أخذت مسدسي نوع «كرك قاله» المرخَّص من الدولة - فالدولة سمحت بحيازة سلاح شخصيّ مرخَّص لأرباب العمل وأصحاب المناجم والمقاولين - كنتُ قد جرّبتُ المسدَّس قبل خمسة عشر يوماً حين وضعت قناني زجاجية فوق أكياس الإسمنت في أحد مواقع البناء وجربت السلاح. بالطبع كنت أخشى أن أجابِه موقفاً غير اعتيادي.

-39-

القطار الذاهب إلى «أونجوران» كلّما شقّ طريقه مترنّحاً بين أسوار بحر مرمرة وبين الأبنية العوجاء الملتوية والفنادق المبنية بالبلاطات الخَرَسانيّة والساحات والمطاعم ومن بين السفن والسيارات كنتُ أشعر بوجعٍ يتزايد شيئاً فشيئاً. أبلغَني المحامي السيد «نجاتي» أنّ السيد «أنور» لن ينضم إلى الاجتماع، وقال إنّه لن يتواجد في «أونجوران» ولكنني لم أستطع منع نفسي من التفكير بأنّ ولدي قد يلغي جميع مواعيده ويأتي لرؤية والده. مخاوفي - من المواجهة في يوم ما مع الأسطى «محمود»، أو مع ما اقترفت يداي من إثم - تحوّلت إلى اضطراب وقلق بعد ثلاثين سنة من الكبت. وفيما أبطأ القطار في أثناء مروره عبر «أونجوران» لم أرَ الهضبة التي كنّا نعمل عليها بسبب الصروح الخَرَسانيّة ولكنني شعرت أنّني جئت إلى هنا كما لو كان عندي موعدٌ مسبق.

ما إن خرجت من المحطة وجدت «أونجوران» قد تغيرت كثيراً حتى إن البلدة القديمة قد تلاشت إلى الأبد، وهُدِمَت البناية التي كنت أنظر إلى شبابيكها لكي أتمكن من معرفة أيّ طابق تسكن المرأة ذات الشعر الأحمر. وقد بُني في محلّها مركز للتسوق مزدحم بشبّان يتناولون الهمبرغر ويشربون علباً من الشنينة وقناني البيرة. أما العمارات المقابلة للميدان فكانت واجهاتها قد أُفردت للبنوك ولمطاعم الكباب وللبوفيهات التي تبيع الشطائر.

فيما مضى من الأيام حين كنّا أنا والأُسطى «محمود» نجلس معاً في

مقهى «الروميلي» ونتحلّق حول واحدة من المناضد الموضوعة على الرصيف، ولم أجد في الجوار أيّ أثر من آثار الماضي، يدلّني على المكان الذي كنّا نحتسي فيه الشاي ولا الرصيف الذي حفظت أبعاده عن ظهر قلب. لقد ولَّتْ المباني القديمة وولّى معها كل البشر الذين كنّا نعرفهم، وجاء بدلاً منهم أناسٌ فرحون صخّابون، سريعو الانفعال، جاؤوا مع العمارات الحديثة.

وعلى الرغم من كون اليوم يوم عطلة نهاية الأسبوع، فإنني لم أرَ لا جنوداً ولا أفراداً من الانضباط العسكري الذين كانوا يطلَقُون إلى الأسواق لمراقبة الجنود، ولم أرَ بائع العُدَد اليدوية أو الحدَّاد ولا البقَّال الذي كان الأُسطى «محمود» يشتري منه سجائره. لم أرَ أيّ واحدٍ منهم في أماكنهم المعهودة، ورأيتُ أنَّ المباني المكوَّنة من ثلاث شقق قد هُدمتْ وحلّت محلّها عماراتٌ متشابهة فيما بينها، مكوَّنة من خمسة أو ستة طوابق. فكل شيء تغيّر ولم أعرف أين يتوجب عليَّ أن أبحث، ولا أدري عمّا أبحث.

شاءت الأقدار أنْ أُهوِّل مسألة عودتي في وقت قصير إلى «أونجوران» وأكبِّر المسألة في عينيّ، فمدينة إسطنبول بأبنيتها الشاهقة وأحيائها الخَرَسانيّة قد ابتلعت هذه البلدة القديمة. وبرغم ذلك قابلت بعضاً من قدامى معارفي هناك. رأيت «عليّ» الصبيّ الحَفّار، وتصافحت معه. كان يبتسم بمرح وحميمية. ذهبت إلى بيت «سري سياه أوغلو» وتعرفت على زوجته البدينة وشربت الشاي معهما. السيد نجاتي وإداريُّو شركة سهراب كانوا معي. تصافحنا مع صاحب محلّ المعجَّنات والسكَّريَّات – قيل إنّه من أقارب الأُسطى «محمود» – وقد أخجلَنا بلُطفه والموجودون في الجوار شملونا بكرمهم. وبينما كنّا نصعد المنحدر بموازاة المقبرة التي دُفِنَ فيها الأُسطى «محمود» تأكَّد لي أنّني قد نُسيتُ تماماً، وبقيت خارج نطاق المهتمِّين بالعقارات. لم يبقَ في أذهان الناس أيُّ شيءٍ أخشاه، لذلك قرّرتُ أن أتصرَّف وكأنَّ شيئاً لم يحدث.

فريق التسويق النشط التابع لشركة سهراب مرُّوا بي عبر الأزقة الخلفية وأوصلوني إلى صالة الأعراس التي استأجروها من أجل الوليمة والاجتماع. وأنا أتأمّل المنظر عبر الشبابيك الواسعة للصالة حاولتُ أن أخمّن أين تقع الجبال الزرقاء ما وراء الثكنة العسكرية، فالبئر كانت على بعد نصف كيلومتر من ناحية الثكنة. كنت أشعر بوجود قوّة غريبة تجذبني إليها كي أترك كل شيء وأذهب إلى هناك. الأراضي التي كانت ملكيّتها تعودُ إلينا قد ارتفعت أسعارُها بسبب شقّ طريقٍ ذي أربعة أشرطة، تربط المطار الجديد والجسر المعلق بمنطقة «أونجوران» من صوب البئر وليس من اتجاه محطة القطار. أغلب الذين جاؤوا إلى الاجتماع لم يكونوا من أهالي «أونجوران» الأصلاء بل كانوا من الأغنياء الجدد أصحاب السيارات الحديثة، ممن كانوا يفكّرون في الحصول على شقق هنا في هذه المنطقة، وبسبب السأم الذي انتابني ووضعي القلق لمْ أبَالِ باستفساراتهم عن مقاييس حدائق الأطفال وأحواض السباحة، ولم يكن يعنيني مدى اهتمامهم بالمناظر التي كانت تبدو من الطوابق العليا. فريقُ التسويق في شركة سهراب جاؤوا بزوجَين سبق لهما أن اشتريا شقّة في أحد الأحياء السكنية التي شيّدتها الشركة في «بيكوز» و«كارتال» وفي مناطق أخرى. دعوا هذين الزوجين إلى الاجتماع من أجل أن يظهرا مدى سعادتهما وامتنانهما لشركتنا لأنهما تعاملا معها. بدأ الزوجان بمخاطبة الناس بالشعار الذي رفعناه في الاجتماع وهو «طابع سهراب سيضفي المتعة على حياتكم»، الأمر الذي أثار حفيظة بعضٍ من المجتمعين، وبالأخص أولئك الجالسين في الصفوف الخلفية الذين لم يأتوا من أجل شراء أيّ شيء، بل من أجل الضحك على الذقون. أُثيرت في الصفوف الخلفية أسئلة كان هدفها واضحاً. سؤالان كان فيهما استهزاء واضح سمعتهما بملء أذني. يبدو أن هنالك من أحكم خطته في إفساد اجتماعنا، وإيقاعنا في مواقف محرجة وإفشال جهودنا. ربما كان الهدف من كل ذلك هو إعاقة مبيعاتنا.

لم أخبر أهالي «أونجوران» القدامى ولكنهم كانوا في انتظاري، لم أطل الكلام بل تحدثت باختصار. في هذا الركن الجميل من إسطنبول وقبل ثلاثين سنة كنت قد جئت لأول مرّة إلى هنا مع مُعلِّمي الأُسطى «محمود» من أجل أن نحفر بئراً هنا. ولا يسعني إلّا أن أذكر بكل احترام وتبجيل مُعلِّمي الذي عثر على الماء وصار سبباً في إسعاد الناس، فاتخذوا من هذه المنطقة سكنى، وانتشروا فيها. وكان هذا سبباً كافياً لنموّ الصناعة وازدهار الأعمال هنا. وكان المُعلِّم «محمود» سبّاقاً في تشجيع الناس على بناء مساكن لهم هنا. فمصغّرات الأحياء السكنية هذه التي ترونها هي في الأصل امتدادٌ للتوسّع الحضاري الذي بدأنا به قبل ثلاثين سنة.

كان عدد المجتمعين هنا يبلغ مائة أو مائة وعشرين شخصاً، شعرت بأنّ أولئك الشبان الجالسين في الخلف جاؤوا إلى الاجتماع من أجل التسلية. كانوا يثرثرون ويضحكون بصوت عال. وبرغم أنهم كانوا يُبيتون نوايا سيئة، إلّا أنهم لم يكونوا خطرين إلى حد ما. فكرت أن الخطر الحقيقي قد يظهر من بين ذوي النوايا السيئة والمندسّين بين الآخرين، والذين ظلّوا ساكتين لحدّ تلك اللحظة، فعمدت إلى مخاطبة الجالسين في الخلف، ورحت أتقرّب إليهم رويداً رويدا.

مثلما سألهم المتحدّثون من قبلي: «هل هناك أسئلة تشغل بالكم»، لم يفسحوا المجال كي أسألهم وحسب، بل راحوا يمطرونني بوابل من الأسئلة. فأول سؤال كان عن شروط التسديد والتسهيلات المتاحة، فأجابهم المدير المسؤول عن الحملة. وسؤال آخر جاء من زوجين آخرين أجاب عليه المسؤول نفسه. وكان السؤال هو: إذا بدأنا بتسديد الأقساط فوراً، واعتباراً من هذا اليوم فمتى نتسلّم شقّتنا. هناك رأيت امرأة مسنة ترفع يدها بعناد فتسارعت دقّات قلبي.

لا أدري لِمَ تأخّر عقلي في فهم الصورة التي تلقفتْها عيناي! فالسيدة التي كانت جالسة هناك بدا لي أنها المرأة ذات الشعر الأحمر. جئنا وجهاً لوجه، وحدّقنا في عيني بعضنا بعضاً. وفي خضم الضجيج الذي كان

يثيره المجتمعون هنا، بذلت المرأة ما في وسعها للظهور بمظهر الصديق لا العدو، فابتسمت بعذوبة ورفعت يدها بإصرار، فسمحت لها بالكلام. قالت: «سيد جيم نقدّر جهود سهراب تقديراً عالياً، ولكننا ننتظر منكم أن تشيدوا صالة للمسرح في واحدٍ من هذه الأحياء السكنية». انتبه الجالسون بالقرب منها وراح بعضٌ منهم يصفّقُ معجباً برأيها هذا. ولم أرَ بين الحاضرين من كان ينظر إليّ بمعنى ما، أو يومئ إليَّ بحركة فيها معنى آخر. بعد انتهاء فاصل الأسئلة توجَّه المجتمعون مقترِّبين من المصغَّرات. وفي أثناء التدافع حين كان المجتمعون يهمّون بالانصراف اقترب الواحد منّا إلى الآخر.

بعد انقضاء ثلاثين سنة هأنذا أرى المرأة ذات الشعر الأحمر لأوّل مرّة. بدا لي أن كل تلك السنوات لم تنلْ منها، بل أظهرت تلك التقاسيم الجميلة والتعابير السحرية في وجهها، وجعلت أنفها وشفتيها المكتنزتين أكثر حدّية. لم تكن متعبة ولا غاضبة، بل كانت مستريحة ومنشرحة، وفي الأقل كانت توحي لنا بذلك.

«لقد أربكتْنا يا سيد جيم. مع بعض الشبان من أصدقاء ولدي كنّا نخطّط لتشكيل شلّة مسرحيّة... أردتُ أن يتعرّفوا عليك. لم يُعلِمونا ولكنني كنتُ متأكّدة من أنك ستحضر».

«سيد أنور غير موجود؟».

«لا».

التجمُّع المسرحيّ الذي كانت تقصده، هم تلك الشلة من الشبان، وكانوا قد احتلوا زاوية ما من الصالة. ومن دون أن يشعر أحد بلقائنا أجلسَنَا السيد «نجاتي» على طاولة واحدة، وأوصى لنا بقدحين من الشاي وانسحب تاركاً إيّانا وجهاً لوجه.

«سيد جيم، إنْ كنت أنتَ أبا «أنور» أمْ «تورجاي»... لسنوات طويلة لم أتيقَّن من هذا. ولكنني في الوقت نفسه لم أُبالِ قَطّ لمعرفة ذلك. كان الشكّ يساورني دوماً، وأقول لنفسي لو وصلت هذه المسألة إلى

المحاكم فلن أستطيع إثباتَ أيّ شيء، فضلاً عن أنّني سوف أتسبّب في إحراجكم وفضح نفسي، وإلحاق الأذى بكثير من الناس المحيطين بنا. أنت تعرف أنّني لم تكن لديّ نوايا مثل هذه».

كنت أصغي لحديث المرأة ذات الشعر الأحمر وكأنني أبتلع الكلمات التي تنطق بها كلمة إثر أخرى، وفي الوقت نفسه كنت أجول ببصري هنا وهناك على الزحام الموجود في الصالة لعلّني ألمح من كان يراقبنا. كانت جالسة قبالتي تحرك يديها الصغيرتين بسرعة. لون ردائها لازورديّ مائل إلى الأزرق السماوي مثل الثوب الذي كانت ترتديه قبل ثلاثين سنة بينما كنّا نتمشى عند ميدان المحطة. وكان اعتناؤها بوجهها ويديها وأناملها يثير فيَّ الدهشة. حتى كلامها كان مثيراً.

«شكوكي في موضوع من هو أبوه لم أفصح عنها لأيّ واحد منهما»، قالتها المرأة وأردفت: «تورجاي كان يتصرف معي ومع الولد بشكل غير لائق لأنني كنت متزوجة من أخيه الأكبر قبل أن يتزوَّجني هو، وبعد انفصالنا ووفاته لا أستطيع أن أشرح لك أنّني شعرتُ أنّ أباه البيولوجي لا يمكن إلّا أن يكون إنساناً ناجحاً جدّاً ومتألّقاً. ولم يكن من السهل إقناع «أنور» بأن يقيم «دعوى أبوّة» وفي نهاية المطاف نزل عند رغبتي وأقام الدعوى. وبسبب ذلك تخاصمنا كثيراً. ولحدّ الآن لم يحرز ولدنا «أنور» النجاح في حياته، ولكنه شابٌّ فخور بنفسه، مرهف الحسّ، مبدع ويكتب الأشعار».

«السيد نجاتي هكذا قال لي، وبعضها قد نُشِرَ فعلاً. عَثَر على تلك الأعداد. قرأت أشعاره. أشعارٌ جميلة. ولكني وجدت أفكاره غريبة، ولم أستسغ تلك المجلّات. ومن المؤسف حقّاً أنهم لم ينشروا صورة الشاعر الشابّ».

«أجل بالطبع، عليّ أن أرسل لكم صورة فوتوغرافية من صوره»، قالت المرأة ذات الشعر الأحمر، «ليس مهمّاً أبداً. فاليوم يعاند ويرسل أشعاره إلى مجلة تصدرها جماعة دينية، وفي الغد ستراه يكتب عن العسكر

والراية... إنّه صعب المراس، له شخصية متفرّدة وردّ فعل إزاء كل شيء. إنّه بأمسّ الحاجة إلى أبٍ قوي الشكيمة ليريه طريق الصواب». كان هنالك بعض الأشخاص من جمهور المجتمعين يقتربون إلينا. «يجب أن يعرف «أنور» أباه ويجب أن يحبه». قالت المرأة ذات الشعر الأحمر وأضافت: «دعوته ليأتي إلى هنا، إلّا أنّه لم يُلبِّ طلبي. الشباب الذين جاؤوا اليوم إلى هنا أنا من استنهضت فيهم حب المسرح. نلتقي أيام الآحاد في إسطنبول ونذهب إلى المسرح، وبعضهم من أصدقاء أنور».

فيما اقترب جمهور المحتشدين إلينا راحت المرأة ذات الشعر الأحمر تتقمَّص دور الزبون المهتم بجمع المعلومات عن تفاصيل الشقق، تحتسي الشاي وتقوم بحركات مهذبة. أما أنا فنهضت واختلطت مع الجمهور، تجوَّلتُ بينهم، ثم رحت إلى السيد نجاتي وطلبت إليه أن يدعو المرأة ذات الشعر الأحمر وفريق الممثلين الشباب إلى مأدبة العشاء التي أقمناها.

«انفضّ الاجتماع بسلام»، قالها المحامي «نجاتي بيك» وتنفَّس الصعداء وكأنَّه حطّ عن كاهله حملاً ثقيلاً. «لم يبقَ أمام سهراب أيّة عقبة تعيق انطلاقه في أونجوران بعد اليوم».

«لا يمكن التكهُّن بما سيحدث في المستقبل»، قلتُ، «لأننا هنا في هذه المنطقة لسنا في أونجوران، بل نحن في إسطنبول».

-40-

إقامة مأدبة عشاء وتقديم مشروبات روحية بعد الاجتماع الترويجي كانت فكرة من الأفكار التي تبنّاها الإعلاميّون. أمّا تجهيز المأدبة بأنواع من الأطعمة فكانت قد تبنّته إدارة مطعم «كورتولوش» الذي ظل إلى هذه الساعة مفتوح الأبواب. بينما كنّا نتحدث مع الرجل المسن، صاحب المطعم من أهالي «سامسون»، عن ذكرياتنا قبل ثلاثة عقود من الزمن تذكرتُ تلك الأمسية التي جمعتنا فيها طاولة واحدة مع المرأة ذات الشعر الأحمر في مطعم «كورتولوش». وفي أثناء مأدبة العشاء اتخذت قراراً مفاجئاً في العودة إلى إسطنبول دون أيّ تأخير. وقبل ذلك كنت أرغب في رؤية موقع البئر التي كنّا نحفرها أنا والأُسطى «محمود». قال «نجاتي بيك»: «بسيطة»، وبدأ بترتيب المسألة، ولكنه بدلاً من أن يذهب إلى «عليّ» الذي عمل معنا كصبيّ، ليكون دليلاً لنا في العثور على البئر، راح إلى المرأة ذات الشعر الأحمر وهذا ما أزعجني.

«الفتى سرهاد من أعقل الشبان الممثلين وأنضجهم»، قالتها المرأة ذات الشعر الأحمر وجاءت إليّ: «هذا الفتى يتخيل أنّه في ذات يوم سيجد فرصة مؤاتية كي يمثل سوفوكليس في بلدة أونجوران».

«كيف تعرف مكان البئر؟»، سألت السيد سرهاد.

«بعد أن عُثِرَ على الماء فيها صارت حديث الناس»، قالها الفتى الممثل، «في صغرنا كان يحلو للأُسطى محمود أن يروي علينا حكايات قديمة وقصصاً عن الآبار».

«أما زلت تتذكّر تلك الحكايات؟».

«أتذكّر أغلبها».

«اجلسْ هنا إلى جانبي. ربما سنقوم من هنا، من المأدبة لترينى البئر».

«بالطبع».

بالضبط مثلما كنت أفعل قبل ثلاثين سنة كانت طاولتي عامرة بالعرق والجبن الأبيض وأنواع اللُّمَج، وفي الطرف الآخر تجلس المرأة ذات الشعر الأحمر. في تلك السنوات تعلّمت أن أحبّ العرق مثل أبي. رحتُ أملأ الكأس للفتى المسرحيّ الجالس إلى جانبي. أملأ كأسه وهو يشرب ولم ألتفتْ ناحية المرأة ذات الشعر الأحمر وفريقها المسرحي.

بعد لَأيٍ ألقيتُ السؤال على الفتى؛ أيّة قصة يتذكرها الآن أكثر من القصص الأخرى التي سمعها من الأُسطى محمود في صباه.

قال السيد سرهاد:

«القصة التي أتذكّرها كثيراً هي قصّة روستم المحارب الذي قتل ابنه دون أن يدري».

ممن سمع الأُسطى محمود هذه القصة؟ أجل كان قد ذهب إلى مسرح الخيمة الصفراء قبل أن أذهب أنا. ولم يكن يفهم ما المقصود من تلك الحكاية المرقَّعة، قد تكون المرأة ذات الشعر الأحمر هي التي قصّت عليه الحكاية. ربما كان يعرف بتلك الحكاية منذ الصغر.

«لماذا بقيت حكاية روستم عالقة في ذهنك، هل انتابك الخوف؟».

«الأُسطى محمود ليس أبي»، قالها الفتى الذكي، «ولم الخوف؟».

«قبل ثلاثين سنة في صائفة ما كنت قد اتخذت الأُسطى محمود أباً لنفسي»، قلتُ، «لأن أبي كان قد هجرنا. فاصطنعته أباً لنفسي. كيف هي علاقتك بأبيك؟».

«إنه بعيد»، قالها السيد سرهاد وهو ينظر أمامه. تُرى هل كان ينوي أن يعود إلى الشلّة ليلتحق بالمرأة ذات الشعر الأحمر وفتيانها الممثّلين

الهواة. تُرى هل تدخّلتُ كثيراً في شؤون الفتى؟ كان معظم الجمهور الموزَّعين على الموائد قد ارتووا من كثرة تناول المشروبات. كان المكان يعجّ بصخبٍ عارم مثل اجتماعات أبناء البلد، أو مثل الثرثرة التي تثار بين مشجِّعي فِرَق كرة قدم بعد أن يعودوا ليكملوا مناقشاتهم في إحدى الحانات.

«كيف عرفت الأُسطى محمود؟».

«كان يجمع الأولاد حوله ويقصّ عليهم حكاية ما. لم يدعُني أحد، بل رُحت إلى بيته دون أن يدعوني أحد. في الواقع عندما رأيت كتفه المكسورة راودني الخوف...».

«هل لك أن تريني بيت الأُسطى محمود بعد أن نشاهد البئر؟».

«طبعاً لقد انتقلوا من بيت إلى آخر. بعض تلك البيوت تهدمت، فأيُّها تريد؟».

«كنت أخاف من حكايات الأُسطى محمود، لأنها في نهاية المطاف كانت تتحقق...».

«ما معنى تتحقق؟»، سألني الفتى.

«أي الحدث الذي في الحكاية، لأنها كانت تتحقق في حياتي. ثم إنّني كنت أخشى من البئر التي كان يحفرها الأُسطى محمود. وفي النهاية، ذات يوم تملكني خوف شديد فتركته في جوف البئر وهربت. فهل كنت تعرف هذه الحكاية؟».

«أعرفها»، قالها دون أن ينظر في عيني.

«كيف؟ من أين؟».

«رواها لي «أنور» ابن السيدة «كول جيهان». إنّه يعمل هنا في المحاسبة. الأُسطى محمود مثله مثل أبيه. عن قريب سوف...».

«لم تكن ثَمَّةَ إيحاءات في وجه الفتى تدلّ على أنّه يُبيّت نيّة سيّئة، أو إيماءة تدلّ على المكر. شعرت بأنه لا يعلم أيّ شيء عما يجري هنا،

وسكتُّ. كنت أحسّ وكأن هذه الليلة المفعمة برائحة الخمر والسجائر قد ولجت في أعماق رأسي.

بعد مرور وقت طويل سألتُه: «السيد أنور هذا هل جاء إلى هنا؟».

«كيف؟» سأل «سرهاد» ونظر إليّ باستغراب وكأن هذا السؤال غير مسموح به. وفي الحقيقة لم يكن الشخص الذي هو ابني، لا في الاجتماع ولا بين الجالسين حول المناضد.

«أنور لم يأتِ إلى هنا»، قالها الشاب. «هل وعدكم بأنه سيأتي؟».

لم أحر جواباً ولكن الفتى شعر بالاضطراب في داخلي. قال:

«إنه لا يأتي إلى هنا!».

«لماذا؟».

هذه المرّة عمد «سرهاد» إلى الصمت وعدم الإجابة عن سؤالي.

-41-

فكّرتُ كثيراً لمَ لا يريد ابني أن يأتي إلى هنا. إذن فهو لا يستسيغ أباه ولا يريد أن يراه. شعرت بالغضب تجاهه. فكرت، ربما أنا غير محقّ في غضبي عليه. أراني أشعر بالشوق إلى رؤيته وفي الوقت نفسه أتلهَّف لترك «أونجوران» بأسرع ما يمكن. «سيد سرهاد! هيا أرني موقع البئر قبل أن يتأخّر علينا الوقت».

«طبعاً».

«ولكن لا أريد أن ينتبه إلينا أحد. اخرجْ أنت قبلي، وانتظرْني في عطفة المرتفع، لكي أجدك بسهولة عندما آتي بعد خمس دقائق. فازدردّ الفتى لقمته وخرج. في حين كانت المرأة ذات الشعر الأحمر ترمقني بطرف عينيها، من مكانها على الجهة الأخرى للمنضدة. أما أنا فاحتسيت جرعة أو جرعتين من العرق، وتناولت قطعة صغيرة من الجبن الأبيض واندفعت في جوف الظلام حتى وجدت «سرهاد» عند أول المرتفع.

أخذنا أنا ودليلي نغذُّ السير بصمت بين الظلال والذكريات. وبينما كنّا نصعد المرتفع لم أكن أمّيز أين نحن من السهل الذي عملنا عليه في السابق. وكنت أعزو ذلك إلى شعوري بالدوار بسبب الإكثار من شرب العرق، متناسياً كثرة الأبنية الخَرَسانيّة والجدران العالية والمخازن التي غيّرت كل المعالم في الجوار. الدوار الحقيقي الذي كنت أشعر به كان بسبب ابني لأنه لم يكن يرغب برؤيتي.

سرنا بمحاذاة حائط طويل بلا لون، ثم مررنا من أمام حديقة مضاءة

بمصابيح «النيون» الوردية. رأيت ظلالنا أنا ودليلي الذي كان معي، تنعكس على الواجهة الزجاجية لمحل حلّاق مغلق. وعرفت أننا متساويان في الطول. سألت الفتى «سرهاد» هاوي التمثيل:

«منذ متى تعرف السيد أنور؟».

«منذ أن وعيت على نفسي، فأنا من سكنة أونجوران القدامى».

«أي شخص هو؟».

«لماذا تسأل؟».

«كنت أعرف أباه «تورجاي». كان صديقي قبل ثلاثين سنة».

«أنا برأيي أن مشكلة «أنور» لا تكمن في أبيه، بل لأنه بلا أب»، قالها «سرهاد» الولد ذو العقل الراجح. «تراه غاضباً على الدوام، ومنطوياً على نفسه. إنّه شخص مختلف عن الآخرين».

«أنا أيضاً عانيت من فقدان الأب ولكنني لست غاضباً، ولم أنطو على نفسي قَطّ. ولم أكن مختلفاً عن الآخرين». قلتها بوهم الحكمة التي تتولد من جراء تناول الخمرة.

«أنت طبعاً متميز عن الآخرين، لأنك غنيّ»، قالها سرهاد الذي كان يتمتع بسرعة البديهة، «مشكلة أنور تكمن في أنّه لا يريد أن يكون غنيّاً».

غرقت في الصمت لبرهة من الوقت وأنا أتفكر في كلام هذا الفتى الدّعِيّ.

هل أراد القول إن أنور لا يملك قرشاً، أم أراد القول إن أنور لن يرضى لنفسه أن يختلط مع أناس من أمثالكم ممن لا همَّ لهم سوى كسب المال. ولهذا السبب لم يلبِّ دعوتكم للحضور إلى المأدبة.

تعلق تفكيري بالاحتمال الثاني. كنت أحزر أننا نقترب شيئاً فشيئاً إلى الأرض التي كنّا حفرنا عليها بئراً. فالأشواك البرية وأنواع الدغل التي كانت تعترض طريقي قبل ثلاثين سنة هي نفسها بتّ أراها قد نبتت عند حافات الأرصفة وفي الأراضي المهجورة. وفي لحظة ما توقعت أنّني

سأتقابل مع سلحفاة ذات رقبة مجعدة. وبينما أتأملها ستتهيأ لي فرصة مؤاتية لسبر أغوار الحياة والزمن. فالسلحفاة كأن بها تقول: «هاكَ انظرْ ما الذي حدث في العقود الثلاثة الفائتة! فالعمر الذي يبدو تافهاً في نظرك، هو قطعة من الزمن بالنسبة لي، مرّت ولا أدري كيف انقضت».

ترى هل تحدثت المرأة ذات الشعر الأحمر لابنها عن أن أبي، أيْ جد أنور الذي أعتُقل بسبب معتقداته السياسية، كان رومانتيكياً ومثاليّاً؟ وكان يؤرقني تصوّر ابني بأنّ أباه هو أسوأ من جده وأكثر سطحية. كنت أصبّ جام غضبي على الولد الدّعِيّ «سرهاد» الذي أوقعني في هذا الموقف المحرج. وفي أثناء ذلك تذكرت هذه العطفة من الطريق، فصحتُ: ها هي ذي! هذه هي الاستدارة الأخيرة قبل البئر».

قال الشاب «سرهاد»: «حقّاً؟ ما أعجبها من مصادفة، الأُسطى محمود سكن هنا مدة من الزمن».

«أين؟».

فأشار إلى حيث تزدحم الورش الصناعية والمخازن التي لا تظهر إلّا بالكاد، وكأنها رسمت بيد مصنوعة من الظلال. فلمحت في قلب الظلام شجرة الجوز التي طالما استلقيت في ظلها. لقد نمَتْ كثيراً خلال الثلاثين سنة الماضية ولكنها ظلت حبيسة بين جدران أحد المعامل. وفي الاتجاه الذي كنت أنظر أُنيرت الأضواء الشاحبة لذلك البيت القديم.

«عائلة الأُسطى محمود سكنت هنا لمدة طويلة»، قال «سرهاد»، «أنور وأمه السيدة «كول جيهان» كانا يأتيان إلى هنا في الأعياد. وقد تعرفت على أنور هنا، في حديقة منزل الأُسطى محمود».

ساورني الشك لأن الفتى ساق الحديث إلى موضوع «أنور» مجدداً، ولكنني وجدت الأرض التي جئت إليها لأول مرّة قبل ثلاثين سنة قد تحولت من أرض قاحلة وموحشة إلى عالم من الحيطان والأبنية الخَرَسانيّة، غير مصدق بأنّ المكان يأوي كل هذا العدد من البشر والحيوانات على حد سواء. وفي اللحظة ذاتها طلع لنا كلب بلون الطين. اندفع بعدائية نحونا

وراح يتشمّمنا. كنت أبذل قصارى جهدي من أجل رؤية الحقائق وتقبلها كما لو كانت أموراً اعتيادية. وربما أتمكن من رؤية حجارة ما، أو نافذة. فهل تتهيأ لي الفرصة في أن أستنشق رائحة ما مألوفة لديّ.

قال الفتى «سرهاد» العنيد: «في هذا البيت بالذات روى لنا الأُسطى محمود القصة المأخوذة من القرآن الكريم، قصة الأمير الذي ترك والده في البئر».

«ليست هنالك قصة كهذه، لا في القرآن ولا في الشاهنامة»، قلت.

«كيف تعرف ذلك؟»، قالها سرهاد، «هل أنت متديّن؟ هل تقرأ القرآن؟».

فهمت من طبيعة الفتى المشاكس أنّه كان واقعاً تحت تأثير ابني «أنور» فلُذت بأذيال الصمت. وتسبّب كل هذا بكسر قلبي، فأيقنت أن المجيء إلى هنا كان ينطوي على مخاطر كثيرة. قلت: «كنت أحب الأُسطى محمود، فقد كان لي في تلك الصائفة بمثابة الأب».

«إذا أردت يمكنني أن أُريك بيت أنور»، قالها دليلي.

«هل هو قريب؟».

حينما دلف «سرهاد» إلى زقاق جانبي رحت أتبعه. مررنا بعمارات مصابيح واجهاتها مطفأة، رُكنت أمامها هنا وهناك شاحنات وباصات مصغّرة. هنالك عيادة للإسعافات الأولية وصيدليّة. يقف حراس ليليون عند أبواب مرأب وهم يدخنون. انتابتني الحيرة غير مصدق بهذا الزحام المتراكم أمامي. كيف أمكن لهذا السهل أن يحتوي كل هذه الصروح، وتتكالب فيه كل هذه الأشياء بعضها فوق بعض.

«هذا بيت أنور»، قال سرهاد، «يسكنون في الطابق الثاني. الشبابيك الواقعة إلى جهة الشمال هي شبابيكهم».

تسارعت نبضات قلبي، وأخذت أسمع دقاتٍ غريبة بعض الشيء. شعرت بأنني لن أستطيع لجم هذه الرغبة المنفلتة في أن أكون صديقاً لابني».

«شبابيك الطابق الذي يسكن فيه السيد أنور مضاءة» قلت بأريحية شخص دارت في رأسه الخمرة، «هل نذهب لنطرق عليه الباب؟».

قال «سرهاد»: «حتى وإن كانت المصابيح مضاءة فلا يعني هذا أنّه موجود في البيت»، قالها «سرهاد» الذي يفكر بعقل سليم دوماً، «لقد اختار «أنور» حياة الوحدة. لا يطفئ مصابيح الشقة عندما يخرج ليلاً إلى الزقاق لكي يظن اللصوص وذوو النوايا السيئة أن البيت غير خالٍ. وعندما يعود إلى البيت ليتذكر كم هو وحيد».

«يبدو أنك تعرف صديقك حق المعرفة. حين يراك أمامه لن يقع في حيرة».

«لا أحد يمكنه أن يحزر ماذا سيكون رد فعله».

هل كان عليَّ أن أعتبر هذا الكلام مُجرَّد إطراء بحقّ ابني، وهل يحق لي أن أتباهى به؟» مشيت بضع خطوات صوب الباب. سألت: «لماذا يعيش وحيداً يا ترى؟ لمَ الوحدة إن كانت له أم تحبه كل هذا الحب، وله صديق قريب إليه إلى هذه الدرجة...».

«كلا! إنّه ليس قريباً من أحد».

«ألأنه ترعرع مِن دون أب؟».

«ربما... ولكن قبل أن تطرق الباب أرجو منك أن تفكر مليّاً»، قالها الفتى المحتاط في كل الأمور، صديق ابني، ولكنني لم أصغِ إليه بل رحت أقرأ بسرعة لائحة الأسماء التي تعلو أزرار الأجراس. وفي لحظة مفاجئة شعرت بقوة سحرية أصابتني فتسمّرت في مكاني.

6: أنور يني أر...

محاسب قانوني حر...

ضغطت على زر الجرس ثلاث مرات.

«أنور بابه مفتوح دائماً للضيوف، حتى لغير المدعوين. وإن كان الوقت منتصف الليل»، قالها سرهاد، «لو كان في البيت لفتحَ الباب».

ولكن الباب لم يفتح. فكرت أنّه ربما كان موجوداً في البيت ولكنه يعرف أنّني جئت لذلك امتنع عن فتح الباب. بدأت أصبّ جام غضبي على ابني، وعلى صديقه سرهاد هذا الذي راح يعلّق على كلامي بتعليقات لاذعة لها أكثر من مغزى.

«لا أدري لمَ أنت متلهف لرؤية السيد أنور؟»، سألني سرهاد.

لا بدّ أن ثَمَّةَ شائعات قد طرقت أذنه.

«أرني البئر يا هذا، لكي أعود إلى بيتي قبل أن يتأخر الوقت أكثر»، قلت له وأنا أفكر وأردّد مع نفسي أنّني يمكن أن آتي في يوم آخر لرؤية ابني دون أن يشعر بنا أحد.

قال سرهاد: «إذا ترعرعت مِن دون أب فلن تصدق أن للكون حدوداً ومركزاً. وتعتقد أنك يمكن أن تنجز أيّ عمل مهما كان. ولكنك بعد مرور مدة من الوقت لا تدري ماذا أنت فاعل! تبحث عن مركز هذا الكون، وتحاول أن تجد له معنى وتقوم بالبحث عن شخص ما ليقول لك كلّا».

لم أعد أجيبه، ولا أعيره أيّة أهمية. شعرت بأنني قد بلغت آخر نقطة في رحلة البحث هذه التي استمرت على مدى سنوات طويلة.

-42-

«ها هي ذي البئر التي تبحث عنها» قالها «سرهاد» ونظر مليّاً في وجهي. كنّا نقف أمام أحد المعامل، وكان بابه مصنوعاً من حديد لا يصدأ.

«بعد وفاة «خيري بيك» ونقل ابنه معامل النسيج وورش غسل الأقمشة وصباغة النسيج إلى بنغلاديش توقف الإنتاج هنا بالكامل. ومنذ خمس سنوات يستخدم هذا المكان كمستودعات وما زال كذلك إلى يومنا هذا. ولربما تجد أصحابها يفكرون بالعثور على مقاولين كبار من أمثالكم للتفاهم معهم لبناء عمارات شاهقة في مكانها».

«أنا لم آتِ إلى هنا من أجل بناء منشآت جديدة، بل جئت من أجل ذكرياتي».

عندما ذهب «سرهاد» نحو كابينة الحارس بقيت أنا لوحدي وجهاً لوجه مع جدار ما غير مصبوغ، عُلّقت عليه لوحة من زجاج بلاستيكي جذبت انتباهي. نظرت إلى أعلى. كان قد كتب عليها «معامل نسيج العزم ذ.م.م». أخذت أنظر إلى اللوحة وإلى كل شيء هنا في محاولة لاستذكار ما حدث هنا قبل ثلاثين سنة. الشاهد الوحيد الذي يمكن أن يؤكد لي أن هذه الأراضي هي نفسها أرض السيد «خيري بيك» هو امتداد الجدار الطويل إلى ما لا نهاية وشعوري بأنّ السماء قريبة إليّ، مثلما كنت أشعر وأنا في السادسة عشرة من العمر.

سمعت كلباً يعوي بزمجرة. عاد بعدها «سرهاد» وقال:

«الحارس رجلٌ نعرِفُهُ، ولكن ليس هنالك أحد في الجوار. ما زال الكلب مربوطاً، هذا يعني أن الحارس سيعود...».

«تأخَّر الوقت علينا».

«كانت توجد هنا ناصية مفتوحة في الجدار، دعني أرى»، قالها «سرهاد» وتلاشى في الظلام رويداً رويداً.

المنطقة الواقعة وراء الجدران لم تكن غارقة في الظلمة، فمصابيح النيون كانت تضيء الأبنية والسطوح الكائنة هناك. رؤيتها كانت تسرّني على الرغم من انزعاجي من نباح الكلب المستمر. كنت أفكر أنّني سوف ألقي نظرة على البئر ثم أعود أدراجي. ولكن «سرهاد» لم ينبس ببنت شفة. كنت أفقد صبري لأن دليلي الشاب عندما يذهب إلى مكان ما لإلقاء نظرة يتأخّر كثيراً. تماماً في هذه اللحظة رنّ هاتفي الجوّال. كانت «آيشا» زوجتي على الخط:

«سمعت أنك في «أونجوران». جماعة الشركة أبلغوني».

«نعم».

«لقد تخطَّيْتَ حدودَك يا «جيم» وكسرتَ خاطري. إنك تتصرف على نحو خاطئ».

«لا شيء نخاف منه، فكل الأمور تجري على ما يرام».

«هنالك أشياء كثيرة ينبغي الخوف منها. أين أنت الآن؟».

«أنا بصحبة دليلي الشاب. وصلنا حيث حفرنا بئراً مع الأُسطى محمود».

«ومن هو هذا؟».

«دليلي! إنّه شابّ من أهالي أونجوران القدامى. أراه دَعِيّاً ولكن لا بأس فهو يعاونني».

«من الذي دلّك عليه؟».

«المرأة ذات الشعر الأحمر»، قلتُ، وفجأةً تخلَّصتُ من تأثير الكحول، وثُبْتُ إلى نفسي قليلاً.

«هل هو إلى جانبك الآن؟».

«منْ؟ هل تقصدين المرأة ذات الشعر الأحمر؟».

«كلّا! بل أقصد الشاب الذي عرَّفتْك عليه! هل هو بالقرب منك؟».

«لا، ليس قريباً... راحَ يبحث عن ممرّ في الحائط. وعَدَني أن يدخلني إلى المصنع المهجور».

«جيم! أرجوك أن تعود فوراً، الآن!».

«لماذا؟».

«ابتعدْ عن ذلك الولد! اهرب منه، ولا تدعه يتبع أثرك».

«لماذا أنتِ خائفة؟»، سألتُها وفي الوقت نفسه انتقلتْ إليَّ عدوى الخوف ربما عن طريق الهاتف.

قالت «آيشا»: «أي الحكايات قرأناها أنا وأنت معاً. أنت بالطبع ذهبت إلى أونجوران من أجل رؤية ابنك، وبسبب ذلك تخطّيتني ولم ترغب في أن أكون إلى جانبك. من الذي عرّفك بذلك الدليل؟ المرأة ذات الشعر الأحمر؟ فهل عرفت الآن من هو؟».

«منْ؟ هل تعنين سرهاد؟».

«من المحتمل أنّه هو بالذات ابنك أنور! جيم أرجوك اهربْ ولا تبقَ هناك».

«هدِّئي من روعِك. فالناس هنا غير مرتابين البتَّة. لم نتكلَّم عن الأُسطى محمود كثيراً».

«احذرْ وأصغِ إليَّ جيداً»، قالت «آيشا»، «ربّما وجدوا حجّة سياسيّة وكلّفوا أحداً بطعنك. سوف يلعب القاتل دور السكّير. بعد فعلته سيسأل نفسه ماذا جرى لي؟ من الذي طعن هذا الرجل! فكر جيداً إذا قتلوك فماذا سيحدث؟».

«يحدث أنّني سأكون ميتاً» قلتُها وضحكت.

«حينئذٍ ستكون شركة سهراب برمّتها لقمة سائغة في أفواههم. فهؤلاء لا يتوانون أبداً عن قتل أيّ واحد يعترض طريقَهم».

«ذلك الشابّ ما زال بصحبتك؟».

«لا! قلتُ لكِ لا».

«أتوسَّل إليك جيم أن تبتعد عنه في الحال. قبل أيّ شيء اختفِ في مكان يصعب عليه العثور عليك».

وأخيراً نزلتُ عند رغبتها وفعلتُ مثلما طلبت إليَّ. هرعتُ إلى زاوية مظلمة عند ناصية أحد المحلّات».

«أصغِ إليّ الآن» قالت «آيشا» «إذا كانت آراؤنا عن القصص التي قرأناها قَبل سنين طوال، عن أوديب وأبيه، وعن روستم وابنه آراءً صحيحة... وإذا كان ذلك الفتى هو ولدُك، فإنه سيقتُلك! لأنه فردٌ غربيٌّ متمرِّد...».

«إذا أقدم على أمرٍ كهذا فسأكون أنا ذلك الأب الشرقيّ المستبدّ وأسبقُه، سوف أقوم بقتلِه»، قلتُ ذلك مبتسماً.

«بالطبع لن تتمكَّن من القيام بعملٍ مثل هذا»، قالت «آيشا» وقد أخذت كلام زوجها المعاقِر للخمرة مأخذَ الجِدّ، وتصوَّرت أنّه من المحتمل أن ينفّذ تهديده هذا. قالت: «إذن لا تتحرّكْ من مكانك. أنا قادمة».

أضواء الكتب القديمة والأساطير والصور والحضارات القديمة كانت من البعد بمكان في ليل أونجوران المعتم والوحشي، لم أفهم سبب قلق زوجتي. لم أستطع أن أتحرك من مكاني مدة طويلة. وبعد مدة قصيرة حين انقطع صوت دليلي «سرهاد» داخَلَني الخوف. في الواقع هل من الممكن أن يكون «سرهاد» ابني؟ يمتدّ الصمت ويتوسّع وكنت أغضب من الفتى الذي تركني هنا للنسيان. وأخيراً تناهى إليَّ صوتُه من خلف الجدار:

«سيد جيم، سيد جيم!».

انتابتْني الدهشة ولم أنبسْ ببنت شفة، ولكن الشاب استمرّ في المناداة.

بعد ذلك بوقت قصير ظهر الفتى في المكان نفسه الذي تلاشى فيه من وراء الجدار. وأخذ يقترب على مهل. أجل يبلغ طوله بقدر طولي، بطريقة مشيه وإسبال ذراعيه ذكّرني بأبي. وهذا ما أخافني فعلاً. عندما وصل إلى المكان الذي تركَني فيه نادى عليَّ ثانيةً:

«سيّد جيم!».

كنتُ في موقف لا أستطيع فيه رؤية وجهه، في حين أجد نفسي متلهّفاً لذلك. ربما كان لهذا الخوف صلةٌ بالأحلام التي تراودني، وأخيراً وثقت بالمسدس الذي أحمله فتلمّستُه في جيبي وخرجت للفتى من مكاني في الظلمة. سألني: «أين كنت؟ إذا أردت أن تدخل فعليك أن تتبعَني»، قالها واستدار إلى الوراء وأخذ يمشي. كان الزقاق قد أظلم تماماً، فخطر ببالي أن الفتى يجرّ قدمي إلى مكان خالٍ ومظلم لكي يقوم بالتخلّص مِنّي. ليتني نظرتُ إلى وجهه عن قرب ولو لمرّة واحدة! تبعت صوت خطاه وتقدّمتُ في قلب الظلام. وعندما وصلنا إلى القسم الواطئ من الجدار قفز «سرهاد» مثل القط وغاب عن الأنظار، وانتظرني ريثما أعبر أنا أيضاً. مسكت بيده الساخنة والندية. فكرت لوهلة هل من الممكن أن تكون هذه اليد يد ابني، وعبرت إلى الجانب الآخر من الجدار. أجل ها هو ذا السهل! كان كلب الحراسة في المعمل المهجور ينبح بجنون ويقاوم السلسلة الحديدية المربوط إليها.

تجولت بين أبنية المعمل دون أن أهتم بالكلب لأنني قررت أن أقتله بمسدسي إذا تمكن من قطع السلسلة الحديدية.

بعد أن اكتُشِفَ الماء هنا قام «خيري بيك» وابنه الذي كان يلبس حذاء كرة قدم جديد، بتشييد ورشة لغسل النسيج ومصبغة أكبر مما كانا يحلمان بها. خلال السنوات العشر الأخيرة شيّدت أبنية أخرى هنا كملحقات للمعمل قبل أن ينتقل قطاع النسيج بأكمله إلى الصين وبنغلاديش وإلى

الشرق الأقصى. بناية الإدارة التي رصف مدخلها ببلاطات من المرمر كلها كانت قد هجرت، وبقي الكثير من المواد الخام والصناديق الفارغة، والكثير من البضائع التي صارت عديمة الفائدة بعد أن تركت تحت رحمة الغبار والصدأ. اتخذت بعض هذه الأبنية كمستودعات، وتحوّل ما تبقى منها إلى خرائب.

البئر التي حفرناها كانت قد ظلّت في وسط مطعم العمّال الذي كان «خيري بيك» يتباهى بأنه سوف يبنيه ذات يوم. هذا المبنى لم تبقَ في شبابيكه أيّة زجاجة سليمة، ولم يعد صالحاً لاتخاذه كمستودعٍ حتّى.

من وراء الحائط راقبت دليلي الشاب في ضوء النيون الشاحب الذي كان موجوداً في المبنى الكائن وراء الحائط. مررنا عبر المستودع من بين ركام الحديد الصدئ والأنابيب وأكداس الخردة وحطام الأشياء وأنسجة العناكب ثم جئنا إلى فوهة البئر المبنية من الخرسانة. قال دليلي:

«في الواقع إنّ قِفل هذا الغطاء عاطل»، ثم مال إلى الغطاء الحديدي الموضوع لسدّ فوهة البئر، وأخذ يجذب حلقة الغطاء ويشدّ القفل المضروب عليه.

«يبدو أنك تعرف هذه الأمكنة جيداً».

«لقد جاء بي أنور إلى هنا مراراً».

«لماذا؟» سألته، فقال: «لا أدري»، قالها وما برح يعالج القفل في محاولة منه لفتحه. «ما سبب مجيئك؟».

قلتُ: «لم أنسَ عملي هنا مع الأُسطى محمود».

«هو الآخر لم ينسَ! كنْ واثقاً، إنّ الأُسطى محمود أيضاً لم ينسَكْ».

ترى هل كانت هذه إشارةٌ إلى أنّني تسبّبت في كسر كتف الأُسطى محمود وإعاقته؟

وفي محاولة لمعالجة القفل من وضعية أحسن واستعادة قوته وقف دليلي الشاب على طول قامته فتسلّط ضوءٌ كاشفٌ إلى وجهه. نظرت إليه

مليّاً، ورحت أشدّد النظر إليه عسى أن أرى فيه إشارة إنْ كان هو ولدي أم لا! كان قد غمرني شعور بالعطش، وفي داخلي كان ثَمَّةَ حبّ على وشك الاخضرار في أيّة لحظة.

لكنني أصبت بخيبة أمل. نعم! ربما كانت تقاسيم وجه الفتى تشبهني. قامته مثل قامتي، ولربما كان يشبهني تماماً. لكنني لم أحبّ شخصيّته. أرى أن «آيشا» زوجتي كانت على خطأ، من المستحيل أن يكون هذا الفتى ابني. ولسبب ما بدا لي أن دليلي الشاب هذا لم تعد تروق لي صحبته. ران بيننا الصمت، وأخذ الفتى ينظر إليَّ كما لو كان ينظر إلى عدوّ.

«دعني أجرّب حظّي مع هذا القفل». قلتُها وجثوت حتى لامسَتْ ركبتاي الأرض. حاولتُ أن أفتح القفل في هذا الظلام الدامس.

-43-

جُثُوّي على ركبتيَّ من أجل فتح القفل خفَّف نوعاً ما من شعوري بالذنب الذي كان يستفحل في ضميري. ما الذي جاء بي إلى هنا؟ فجأةً فُتح القفل. نهضتُ على قدميّ، أخذت القفل الذي تحرّر من حلقة الغطاء ومددته إلى الفتى، وقلتُ:

«هيا افتحْ الغطاء لنرى». تحدثت إليه كما لو كنت سائحاً ألمانيّاً يكلّم قرويّاً عثر في داره على بئر قديمة من عهد البيزنطيّين. طَبع الغرور والكِبَر الذي كان يتصف به دليلي قد ترك فيَّ أبلغ الأثر.

بذل جهده مع الغطاء إلّا أنّه لم يستطع فصل القطع الحديدية الملتصقة بعضها ببعض بسبب الصدأ. أمضيت بعض الوقت أتفرَّج عليه ثم ما لبثت أن شاركت وإياه في جذب الغطاء الحديدي. شددنا معاً بكل ما أوتينا من قوة ففتح غطاء البئر مصدراً صريراً عالياً وكأنه باب زنزانة لم تفتح منذ ألف عام.

في ضوء مصباح «نيون» بعيد شاحب رأيت نسيج عنكبوت ولمحت سحلية مذعورة. رائحة عفونة راحت تزكم أنفي، وتدفع الكلمات التي ترسبت في ذاكرتي بعد قراءة كتاب «رحلة نحو مركز الأرض».

كان قعر البئر من البعد بمكان لم أستطع رؤيته. ولكن بعد قليل حين اعتادت عيناي على الظلمة اكتشفت أن هنالك سطحاً لامعاً ينعكس عليه الضوء في آخر القعر. إما كان بركة ماء أو طيناً متجمّعاً. كان جوف البئر لانهائيّاً ومخيفاً.

أنا وسرهاد تأمّلنا عُمق البئر بصمت وذهول. فهذا العمق لم يكن مخيفاً وحسب بل كان يدفع الإنسان إلى الانبهار بالحَفّارِ الجريء الذي وصل إلى هذا العمق. وفجأة بعثت الروح في جسد الأُسطى محمود، وتراءى أمام عينيَّ كما كان قبل ثلاثين سنة. سمعته حين كان يصرخ من الأسفل ويؤنّبني.

«أشعرُ بالدوار»، قالها دليلي الشاب، «أخشى أن أقعَ فيه، فقعر البئر يسحب المرء إليه».

«لا أدري لِمَ خطر الله ببالي»، قلتها على نحو مفاجئ. شعرت بحميمية نحو الفتى ورحت كاشفاً له عن سرّ يخص الأُسطى محمود. همستُ في أذنه: «لم يكن الأُسطى محمود يصلّي خمسة أوقات في اليوم، لكنه قبل ثلاثين سنة حينما كان يحفر البئر كان يردّد قائلاً: كلّما أحفر بئراً لا أشعر بأنني أتوغل في عمق الأرض، بل أحسّ أنّني أحفر نحو السماء، باتجاه النجوم. أظن أنّني أعرج نحو ملكوت الله وملائكته».

«الله موجود في كل مكان» قالها الساذج «سرهاد»، «فمثلما هو موجود في الأعالي، موجود في الدنيا. وكذلك في كل الاتجاهات، في الشمال وفي الجنوب».

«أجل موجود بالطبع».

«إذا كان الأمر كذلك فلم لا تؤمن؟».

«بمن؟».

«بالله تعالى، خالق كل شيء».

«كيف عرفت أنّني لا أؤمن بوجود الله؟».

«هذا واضح من تصرفاتك...».

أمضينا بعض الوقت، يرمق أحدنا الآخر بصمت. ومن شدّة غضب هذا الشاب الواقف أمامي شعرت أنّه من المحتمل أن يكون ابني. وقد أسعدني أن يكون ابني عصبي المزاج. وفي الوقت نفسه كنت أخشى أن يتوجه سيل الغضب هذا لينصبّ عليّ.

قال سرهاد: «في الغرب الأتراك الأغنياء العلمانيون يدافعون عن أنفسهم بالقول: لا يحق لك التدخل في علاقتي مع الله»، ثم أردف قائلاً: «ولكنهم يبتغون العلمانية من أجل أن ينفّذوا بطيب خاطر أيّ سوء يخطر ببالهم، على أنّه شيء من الحداثة».

«ما هي مشكلتك مع الحداثيِّين؟».

«في الواقع لا مشكلة لديّ مع أيّ واحد من البشر وليست لي هموم!»، قالها وهو يهدئ بعض الشيء من غضبه. «ولأنني أريد أن أكون أنا، أن أكون نفسي كما أنا فلمْ أقُم بتعريف خواصّ نفسي بالأضداد مثل اليمين واليسار، أو بالديني والحداثي، لذلك أريد أن أقرض الشعر قبل أن أظهر بين الناس. قبيل قليل طرقت بابي. كنت أكتب الشعر. لذلك لم أفتح».

لم أفهم ماذا كان يعني بهذا الكلام، ولكن فكرت أنّ الفتى سوف يتهاود غيظُه ويشعر بالسكينة قليلاً حينما يخرج علينا بمناقشات مستخلصة من الكتب.

«هل الحداثة شيء سيِّئ حسب رأيك؟»، سألته متظاهراً بنوع من الهبل الناجم عن معاقرة الخمر.

«الشخص الحداثويّ هو الشخص الذي يضلّ طريقه في غابة المدينة، وهذا بحد ذاته يعني فقدان الأب. وفي الواقع إن جهوده في البحث عن الوالد ستذهب أدراج الرياح. لن يجد والده في زحمة المدينة، وعندما يعثر عليه سيكون هو قد ضاع. مكتشف الحداثوية الفرنسي «جان جاك روسو» قام بترك أولاده الأربعة عن عَمد من أجل أن يصنع منهم حداثيين. أنت مثلاً تركتني من أجل أن أكون حداثيّاً. فإذا كان هذا هو هدفك، فأنت محقٌّ إذاً. لِمَ لَمْ تجبني على رسالتي؟»، سألني وهو يقترب إليّ أكثر.

«أيّةُ رسالة؟».

«أنت تعرف جيّداً ماذا أعني».

«أرجو المعذرة لا أتذكَّر. فقد أثَّرت الخمرة فيَّ. ما دمت أنت تتذكر كل شيء فصارِحْني بالموضوع، لكي نعود إلى حفل العشاء».

«لِمَ لَمْ تردّ على رسالتي التي ختمتُها بتوقيعي أنا، كوني ابنك؟ وقد كتبت عنواني الإلكتروني في أسفل الورقة».

«قلتَ لي، ما الذي وقَّعْتَ عليه؟».

«يجب ألّا نصطنع أننا حميميّون»، قالها سرهاد، «لقد فهمتَ من أكون أنا».

«لا لَمْ أفهمْ يا سيد سرهاد».

«اسمي ليس سرهاد. أنا ابنك أنور!».

قضينا وقتاً طويلاً ونحن سكوت. حتى الكلب الواقف في مدخل المعمل هدأ، ولم ينبحْ، لذلك ساد صمتٌ عميق في الجوار. وفي لحظة ما تذكرتُ كيف كنت أنسى ملامح أبي الذي تركنا قبل سنوات. كانت هذه المشاعر تغادرني مثل انقطاع التيار الكهربائي أو تشبه العمى المفاجئ. بينما كنت أتأمّل وجهَه كان «أنور» هو الآخر ينظر إلى وجهي ويحاول أن يفهم ما أفكّر به في سرّي. وكان يستفحل في داخلي شيئاً فشيئاً شعورٌ بخيبة أمل. وقد فهمت أنّني لن أقوم باحتضانه، ولن أهتف: ولدي! مثلما يحدث هذا في الأفلام التركية.

قلتُ: «إذن فمن يقوم بالتصنّع هو أنت! ابني أنور ما حاجته في التخفّي وراء لعب دور سرهاد؟».

«لنرَ إن كان سيحب والده، أم سيشعر بالدفء تجاهه. الأبوّة شيءٌ في غاية الأهمية بالنسبة لي».

«ماذا يمثّل الأب بالنسبة إليك؟».

«هو ذلك الرجل القوي، المشفق الذي يحمي ابنه ويرعاه منذ الساعات الأولى التي يوقعه في قرارة رحم الأم وإلى آخر يوم في حياته. إنّه بداية العالم ومركز الكون. إن كان لك أب فإنك ستشعر بأنك على ما يرام حتى وإن لم تتسنَّ لك فرصة رؤيته، وأنت متيقِّنٌ أنّه سيهبُّ إليك لكي يحميك حينَ تكون بحاجة إليه. أنا لم يكن لي أبٌ كهذا...».

«مع الأسف أنا أيضاً لم أحظَ بأبٍ بمثل هذه الأوصاف»، قلتها بدمٍ بارد. «لو كان لي أب لكان يتأمّل مِنِّي أن أكون مطيعاً له، لكي يسحقَ شخصيتي تحت رحمة جبروته وعطفه».

فتح «أنور» عينيه على وسعهما، وقد أدرك أنّ أباه كان يعرف كلَّ هذه الأمور، وقد فرحتُ حين رأيته يراقبني باحترام ويصغي إليَّ باهتمام.

«ترى هل كنت أغدو سعيداً الآن لو أنّني كنت مطيعاً لأبي!»، قلتُها وأنا أفكر بصوت عالٍ ومسموع. «ربما كنت الآن ولداً بارّاً بوالده، ولكن لما كُنتُ رجلاً له شخصيّتُه».

قطع سلسلة أفكاري بشيء من الصّلافة قائلاً: «أغنياؤنا المتشبِّهون بالأوروبّيين بسبب الفضول والقلق لم يستطيعوا حتى أن يكونوا أفراداً، بل وحتى لم يستطيعوا أن يكونوا بشراً. فالأغنياء الأتراك الذين يعيشون في أوروبّا لا يؤمنون بالله، لأنهم يعتقدون أنهم هم أنفسهم يمثلون قيمة عليا، وأن شخصياتهم على درجة بالغة من الأهمية. ومن أجل إثبات أنفسهم على أنهم موجودون خارج القطيع يعمدون إلى إنكار وجود الله، ويخفون ذلك عن الآخرين. في حين أنّ الإيمان هو أن تكون مثل الجميع أو شيء من هذا القبيل. فالدِّين هو جنّة المتواضعين وشغلُهم الشاغل».

«أقبل بهذا الرأي».

«أي أنك تقول أنا أؤمن بالله. هذا بحد ذاته أمر صعب بالنسبة إلى تركي غني يفكر مثل الأوروبيّ».

«أجل».

«إنْ كنتَ تقرأ القرآن وتؤمن بالله فلمَاذا تركت الأُسطى محمود في غيابة البئر؟ كيف سوَّلتْ لكَ نفسُك أن تتركَه هناك؟ فالمؤمن ضميرُه حيّ».

«لقد فكرت بهذا طويلاً. يومئذٍ كنت صبيّاً غِرّاً».

«لا، لا، فقد كنتَ تنام مع النساء وتحبّلهُن».

كنت أنبهر بسرعة البديهة التي كان يتحلّى بها، فغمغمتُ قائلاً: «ها إنك تعرف كلّ شيء».

«أجل فقد قصَّ عليّ الأُسطى محمود كلَّ ما جرى له»، قالها «أنور» بنبرة عدائية، «تركتَه في البئر لأنك مغرورٌ وأناني، وكنت تعتبر نفسك أفضل شخصيةً منه. وكانت حياتُك وجامعتُك ودراستُك فيها أكثرَ أهميةً عندك من حياة ذلك الفقير المُعدَم».

«الجميع يفكّرون على هذا المنوال».

«ليس كلّ البشر».

«أنت محقّ»، قلتُها وانسحبتُ من عند البئر.

صمتْنا بعض الوقت، عاد الكلب في أثنائها إلى النباح.

سألني ابني: «هل أنت خائف؟».

«ممن؟».

«من السقوط في البئر».

«لا أدري»، قلتُ. «هيا بنا نعود... ربما يقلق المحتفلون في مأدبة العشاء الآن... هذا الطراز من الكلام لا أنتظر أن يصدر من ولدٍ هو ابني...».

«كيف يتوجَّب عليّ أن أكلّمكم يا أَبَتِ!» قالها بشيء من الاستهزاء. «إذا أصبحت ولداً مطيعاً فلن أستطيع أن أكون شخصاً أوروبيّاً، وإذا صِرتُ أوروبيّاً حينئذ لن أستطيع أن أكون مطيعاً... ساعدني».

قلتُ: «ابني أنا يكون شخصاً متطوّراً، وفي الوقت نفسه يكون مطيعاً لأبيه، بمحضِ إرادته. فقوّة شخصيّتنا متأتيّة من التاريخ والذكريات، وليس من الحريّة التي نتمتع بها وحدنا. فهذه البئر هي تاريخ حقيقي وذكرى حقيقية. شكراً لك يا سيد أنور لأنك جئت بي إلى هنا... سوف يكون للحديث بقية».

«لِمَ تريد العودة إلى هناك؟ هل أنت خائف؟».

«وما الذي أخاف منه؟».

«لا أعني أنك ربما سوف تسقط في البئر نتيجة لعدم الانتباه مثلاً، لا بل تخشى أن أمسك بك الآن وألقيكَ في البئر»، قالها وهو يحدّق في عينَيّ.

أنا الآخر بدأتُ أحدّقُ في عينَيه. وبعد لَأيٍ قلتُ له: «ما السبب الذي يدفعك لتفعل هذا بأبيك؟».

«لكي أنتقمَ للأُسطى محمود...»، قالها وأخذ يفضفض عن نفسه: «لأنك تركتني، لأنك خدعتَ أمّي التي كانت متزوّجة أصلاً. وبعد انقضاء سنواتٍ طويلة... عدمُ تجشُّمِكَ عناءَ الإجابة عن رسالتي... من أجل أنْ أكون شخصاً لائقاً كما أنت تريد... وبالطبع من أجل أنْ أرِثَكَ من بعد مغادرتك...».

قائمة الأسباب كانت قد أرعبَتْني حقّاً. أردتُ أن أحذّره ليغيّر رأيه: «سوف يجرجرونك في المحاكم، ويبلى بدنُك في السجون والزنزانات الانفرادية»، قلتُ في محاولة لثَنيِه عمّا كان يخطِّطُ له: «سوف تقضي حياتك بين انتظار أمّك القادمة إلى زيارتك وبين توديعها بعد أن تنقضي الزيارة. أن تكون قاتل أبيك أو تشقّ عصا الطاعة على (الدولة-الأب) هو عملٌ مشرّف في أوروبّا وليس عندنا. ستكون منبوذاً، لن تجدَ أحداً يحبّك غير أمّك. وأزيدك علماً أنّ قوانين الدولة تَحرِمُ قاتلَ الأب من الميراث».

قال: «عندما يقدم المرء على عمل كهذا لا يفكر بالنتائج. إذا فكرتَ بمردودات الأشياء فإنك لن تكون حرّاً أبداً. فالحريّة هي أن تتناسى التاريخ والأخلاق. هل قرأتَ نيتشه؟».

كنت قد قرّرت التزامَ الصمت.

«ثم إنّني إذا سحبتُك من ذراعك وألقيتُ بكَ في البئر، وإذا ادّعيتُ أنّ أبي زلّتْ قدمُه وسقط في البئر، فلا أحد باستطاعته أن يثبت عكس ذلك».

«أنتَ مُحِقّ».

فأردف ابني قائلاً: «في الواقع عندما أغضبُ عليك كنت أعاقبك في قرارة نفسي بأنْ أفقأ عينيك»، ثم انتبه لكلامه وقال: «الخصلة التي يتحلّى بها الأب ولا يضاهيها أيُّ شيء في الدنيا، هي أنّه لا يكلّ ولا يتعب من مراعاتك».

«نظرات الأب ربّما هي شيء جميل».

«إذا كان أباً حقيقيّاً! الأب الحقيقي يجب أن يكون عادلاً. أنت لستَ أباً ولن تكون. وقبل كلّ شيء يراودني شعورٌ يدفعني إلى أنْ أفقأ عينيك».

«لماذا؟».

«أنا شاعر ومهنتي هي اللّعب بالكلمات. ولكن التفكير الحقيقي يتجسد عبر الصور وليس بالكلمات. فالفكرة التي لا أستطيع التفكير فيها بواسطة الكلمات أستحضرها كصورة. الآن مثلاً إذا قمتُ بِفَقْء عينَيك حينئذٍ سأكونُ فرداً ذا شخصية متفرِّدة. أتدري لماذا؟ لأنني حينها سأكون نفسي. سأكتب الكلمات الخاصة بي وأروي أسطورتي».

استخدام الولد لكل الصفاقة التي يتصف بها، والسذاجة التي عنده بعدائية واضحة قد تسبّبا في كسر قلبي ومنعاني من أن أهرع إليه وأحتضنَه. كان عليَّ أن أضمّه إلى صدري، وأقبّله كأبٍ حقيقيّ، ولكنني في خضمّ الشعور بالخيبة والندم تصرّفت على نحو خاطئ. قلتُ:

«وأنتَ لست ابناً حقيقيّاً. أنت تظهر الغضب أكثر من اللازم، ومطيعٌ كذلك...».

«أين هي طاعتي! أثبتْ لي ذلك».

انتابني الخوف فخطوت خطوة إلى الخلف. أما هو فقد هجم عليَّ. آنئذٍ اقترفتُ خطئي الآخر وهو أنّني شَهَرْتُ مسدّسي نوع «كرك قاله»، أخرجتُه من جيب سترتي، وبين الجدّ والهزل فتحتُ نابض الأمان في المسدس، وأنا أريه ماذا أنا فاعل. قلتُ:

«قفْ بعيداً عنّي يا ولدي! لا تُكرهْني على القيام بما لا أحبّ. انظرْ مِن المحتمل أنْ تنطلق النار ذاتيّاً».

«أنت لا تستطيع أن تستخدمَ ذلك السلاح»، قالها وقفزَ عليَّ بهدف انتزاع المسدس، فاشتبكنا بالأيدي، وتدحرجنا جوار البئر على التراب الذي يفوح برائحة العَطَن. انقلبَ عليَّ ثم ما لبثُ أنْ طرحتُه أرضاً وصرتُ فوقه. وهكذا تصارعنا وتدحرجنا على التراب، وصرنا نتقلّب. تارة هو يطرحني وتارة أنا أطرحه، حتى جثا على صدري أخيراً وأمسكَ يدي لينتزع المسدس ضارباً يدي على الحافة الخرسانية للبئر.

القسم الثالث

امرأةٌ ما ذاتُ شَعرٍ أحمر

قبل 30 – 35 سنة، أيْ في منتصف الثمانينيّات، في إحدى البلدات التي كنّا نعرض فيها مسرحياتنا، ذات مساء اجتمع كل أعضاء فرقتنا مع لفيفٍ من أعضاء جمعية سياسية محلية على مائدة واحدة. كنّا نتناول عشاءنا بعد الشرب حين ظهرت امرأة أخرى مثلي، ذات شعر أحمر على الطرف الآخر من المنضدة الطويلة التي كنّا نجلس إليها، فأخذ الجميع يتكلمون عن هذه المصادفة الفريدة من نوعها، وهي جلوس امرأتين ذواتي شعر أحمر على طرفي المائدة. هل هذا فألٌ سيِّئ أم جيد؟ أخذ كلُّ واحدٍ من الحاضرين يسأل: إن كانت هذه إشارة ما مجهولة، فعلامَ تدلّ؟ وفي خضمّ هذه التساؤلات قالت المرأة ذات الشعر الأحمر التي كانت تجلس قبالتي على الطرف الآخر من المائدة:

«حمرة شعري أنا طبيعية»، كان كلامها ينمّ عن شيء من الاستهانة بالمقابل والتكبّر، «هاكم انظروا، أنا مثل النساء الأخريات ذوات الشعر الأحمر الطبيعي، وجهي منمّش، وينتشر النمش على ذراعي. هاكم انظروا، فبشرتي بيضاء وعيناي خضراوان».

فالتفتَ الحاضرون إليّ ينتظرون بفارغ الصبر ماذا سيكون جوابي،

فقلتُ: «شعرك أحمر منذ الولادة، أما حُمرة شعري فهي من اختياري أنا».

لم أكن بارعةً في الإجابة السريعة إلى هذه الدرجة، ولكني فكرت بهذا الأمر كثيراً: «إن كان هذا هبة من الله أو قدراً مكتوباً منذ الولادة

فهو بالنسبة لي حَلٌّ اخترتُه بوعيٍ وبمِلء إرادتي». لم أُطل الموضوع كي لا يظنّ الجالسون إلى مائدة الشرب أنّي مغرورة. كانت قد انفلتت القهقهات والمزاحات الغبية من عقالها. لو لم أردّ عليها لكان ذلك اعترافاً مِنّي بأنّ (لون شعري هو مُجرَّد صبغ) وهذا يعني أنّني سُحِقتُ تماماً. والانطباع الذي كان يتولّد لدى الجميع هو أنّني امرأة تعيش عالم أحلامها في تقليد أخريات من بنات جنسها.

لون الشعر بالنسبة لنا نحن اللواتي اخترنا الشعر الأحمر في مراحل لاحقة من حياتنا هو مُجرَّد دلالةٍ على الشخصية ليس إلا. بعد أن صبغت شعري بالأحمر لمرّة واحدة في مُقتبَل حياتي بقيتُ حريصةً على الاحتفاظ بلون شعري أحمرَ مدى الحياة.

في أواسط العشرينيّات من عمري لم أكن ممثلة مسرحية تستقي العِبَر من الأساطير والحكايات القديمة، بل كنت شابّة عصريّة تقدّم عروضاً مسرحيّة وسط الجماهير، وأكثر من ذلك كنتُ يساريّة غاضبة وسعيدة. حبيبي الثوريّ الوسيم الذي كان متزوجاً من امرأة أخرى ويكبرني بنحو عشر سنوات، كان قد هجرَني بعد علاقة سرّية دامتْ ثلاث سنوات. لكم كنّا سعيدَين ورومانسيَّين حين كُنّا نقرأ الكتب بعاطفة متّقدة! وفي الواقع كنت غاضبة عليه، وفي الوقت نفسه أعتبره محقّاً لأن علاقتنا السرية قد كُشِفت وصار كل من يعرفنا في التنظيم يحشر أنفه في تفاصيل حياتنا، ويردد أن هذا بالذات سوف يفسح المجال لتولّد الغيرة، وأن نهايتنا ستكون سيئة للجميع. ولكن وقوع الانقلاب العسكري في 1980 دفع بعضهم إلى الاختباء في دهاليزَ تحت الأرض، وراح بعضهم الآخر يستقلّ قارباً ويهرب إلى اليونان، ومِن ثَمَّةَ يطلب اللجوء السياسي في ألمانيا. وهنالك قسم آخر ألقيَ القبضُ عليهم ولاقوا صنوفاً من التعذيب. «آكن» عشيقي الذي يكبرني عشر سنوات عاد في السنة نفسها إلى بيته وزوجته وولده ورجع إلى صيدليّته. أما «تورهان» فكان يفهمني جيداً، ويتصرف على هواي برغم أنّني كنت غاضبة عليه بسبب تشويهه

لسمعة حبيبي ويريدني خاصةً له. وهكذا تزوجنا لأننا فكرنا أن هذا الزواج سيكون حدثاً مهمّاً في جريدة «الوطن» الثورية، ولكن المغامرة التي عشتها مع رجل آخر أمست تشكل هاجساً لدى زوجي، وهو يرى أن الكوادر الشابة في الفرقة، لا تقيم وزناً لكلامه لهذا السبب بالذات. ولم يكن يوجّه إليّ أيَّ اتهام بخصوص خفّتي وكثرة تَلعابي. عشيقي هذا لم يكن من صنف المغامرين الذين يحبّون ويهجرون بسرعة البرق. وهكذا بدا لي أنَّ زوجي يستصعب المسألة لأنه يتوجب عليه أن يتغاضى عما يراه أمام عينيه ويسكت. فعندما يوجَّه إليه كلامٌ ما يحمل أكثر من معنى كان يشعر بأنهم يقصدون تحصيَبه. وأحياناً كانوا يسمعونه كلاماً نابياً. بعد مدة قصيرة وجد حجّةً كي ينحي فيها باللائمة على أصدقائه في جريدة الوطن الثورية متهماً إياهم بالتقاعس عن الكفاح. ورحل إلى «ملاطية»[34] لتنظيم الكفاح المسلَّح هناك. وهكذا سأرجئ الكلام عن أولئك المواطنين الذين ذهب ليستنهض هممهم فاعتبروه مخرّباً وتطوّعوا في الإدلاء بمعلومات إلى السلطات عنه فوقع في كمين. ولنْ أتكلم عن محاصرته من قوّة من الدرك في أحد الوديان، ولن أتحدث عن كيفية قتله.

الخسارة الثانية الكبيرة التي منيتُ بها في مدة قصيرة من حياتي، جعلتني أفقد حماستي تجاه السياسة. كنت أفكر أحياناً في أن أعود إلى أبي المحافظ المتقاعد وإلى أحضان عائلتي، ولكنني كنت عاجزة عن اتخاذ القرار المناسب. إذا عدت إلى البيت فذلك يعني قبولي بالهزيمة. وبالمقابل كان عليّ أن أهجر المسرح. وكان من الصعوبة بمكان أن أجد بعد هذا جماعة مسرحية تأويني، وقد أصبحت على رأي معاكس تماماً، وهو أنّني أريد العمل في المسرح من أجل المسرح بالذات، وليس من أجل السياسة.

34- محافظة تركية من أكبر المدن في منطقة شرق الأناضول من ناحية الكثافة السكانية. يبلغ تعداد سكانها نحو مليون نسمة. (المترجم).

بعد طول مكوثي بين أفراد الجماعة صاروا يعاملونني مثل زوجة الإنكشاري إبّان الحكم العثماني، الذي كان يرسل إلى الحرب مع إيران وعندما يفقدون الأمل من عودته - وهو لن يعود - يقومون أخيراً بتزويجها بالأخ الصغير. في الحقيقة إن زواجي من «تورجاي» وفكرة تشكيل فرقة مسرحية شعبية متنقّلة كانت من بنات أفكاري - وخاصة بعد فقداني لاثنين من البُعُول - وهكذا يمكن القول إنّ بداية زواجنا كانت بداية سعيدة. كانت طفولة «تورجاي»، وشبابه نوعاً ما، مواثيق تؤكد على استمراريته. كنّا نقضي الشتاء في قاعات جمعيات يسارية بمدن كبيرة مثل إسطنبول أو أنقرة. نقوم بتقديم عروض تمثيلية لا يمكن تسميتها عروضاً مسرحية قَطّ، أو نمثل في غرف اجتماعات خانقة. وفي الصيف نتنقل بين البلدات التي كان أصدقاؤنا يدعوننا لزيارتها، وبين القرى السياحية والثكنات العسكرية، وننصب خيامنا على مقربة من المصانع الكبيرة والمعامل حديثة التأسيس. كان لقاؤنا نحن كامرأتين ذواتي شعر أحمر في العام الثالث من تلك السنوات، وقبل ذلك التاريخ بسنة واحدة كنت قد بدأت بصبغ شعري.

في الواقع لم أستغرق وقتاً طويلاً في التفكير واتخاذ القرار، قلت لمصفّفة الشعر التي كنت أجلس تحت يديها في محلها الكائن في «باكركوي»: «سوف أغيّر لون شعري»، وكانت امرأة في أواسط عمرها، يومها لم أكن قد قرّرت اختيار اللون بعد. قالت لي: «أنتِ شقراء، يلائمكِ الشعر الأصفر».

«اصبغي شعري بالأحمر»، قلت لها فجأةً وكأنَّ أحدَهم وخزَني، «هكذا سيكون أفضل».

فقامت المرأة بصبغ شعري بلون أحمر هو بين لون عربات الإطفاء وبين الأحمر المائل إلى البرتقالي. كان لوناً جذّاباً، ملفتاً للانتباه ولكن لم يُبدِ أحدٌ من محيطي القريب اعتراضَه على ذلك، حتى زوجي «تورجاي» لم يعترض. ربما فكروا أنّ هذا ملائم لشخصيةٍ ما سأقوم بتجسيدها على

المسرح. كنتُ أراقبهم وهم يتهامسون بأنني بذلك أكون قد تجاوزت محنتي وتعافيت من الحزن بعد قصص الحبّ الفاشلة التي خُضتها في الآونة الأخيرة، وأنّه دليلٌ على أنّني أتعافى وأخرج من تجاربي سالمة. فكل أعضاء الفرقة كانوا تلك الفترة يُظهرون تعاطفهم معي إزاء ما كنت أعانيه بقولهم: «إنها محقّة في كل ما تفعل».

من ردود الأفعال بدأت أفهم شيئاً فشيئاً ماذا كان يعني ذلك: فالأتراك مخبولون بموضوعات الأصليّ والمقلَّد. بعد الاعتراض الذي أبدتْه تلك المرأة المغرورة أمُّ الشَّعرِ الأحمر هَجرتُ مصفِّفة الشعر التي كانت تستعمل مركَّباتٍ صناعية في صبغ شعري ورُحتُ أصبغُه بالحِنّاء. أختارُ نوعَ الحناء باعتناء ثم أشتريه، حتى إنّني كنت أكيلُه بنفسي في السُّوق. وكانت هذه النتيجة هي التي تمخَّضت عن لقائي بتلك المرأة أمّ الشَّعر الأحمر. كنتُ أهتمُّ بالشبان الحالمين ذوي المشاعر الجيّاشة والجنود الذين يعانون من الوحدة وطلاب الثانوية ومن هم في سن القبول بالجامعات، وأسبل نفسي لمشاعرهم وأنفتح بصميميّة على أحلامهم. كان هؤلاء سريعي البديهة، يميّزون درجات اللون بسرعة، يكتشفون الحقيقيّ والمغشوش بسهولة ويفرّقون بين المشاعر الحقيقيّة والكاذبة أفضل من الرجال البالغين. لولا أنّني كنت أصبغ شعري بالحناء الذي أحضّره بنفسي لما كان «جيم» يعرفني. ولأنه عرفني فأنا أيضاً قابلتُه بمعرفته. وبسبب الشَّبَه الكبير بينَه وبينَ أبيه كنتُ أحبُّ إطالةَ النظر إليه. لاحظتُ أنّه قد وقع في غرامي. وجدتُه ينظر إلى شبابيك البيت الذي كنّا نسكنه. بدا لي خجولاً، وهذا هو ما كان يؤثّر فيّ تأثيراً بليغاً. أما الرجال غير الخجولين فكانوا يخيفونني. الوقاحة صارت في هذه الأيام مرضاً معدياً يصيب الكثيرين في هذا البلد. عندما أصادف واحداً من أمثال هؤلاء أشعر بالاختناق، وهم كثرٌ عندنا. لا يرضون عنكم ما لم تكونوا مثلهم وقحين بلا حياء. أما «جيم» فكان شابّاً خجولاً ومهذَّباً. عرفتُه منذ ذلك اليوم الذي كان يعبر فيه ميدان المحطة بعد أن حضر لمشاهدة عرضنا المسرحي.

شعرت بالقلق وكنت أدرك بزاوية ما من أعماق عقلي أنّني أعرفُه حقّ المعرفة. وفي الحقيقة تعلّمتُ في المسرح أن الأشياء التي كانت لها معانٍ مفهومة هي تلك التي نستطيع تجاوزها بسهولة. رغبات ابني وأبيه في أن يكونا كاتبَين لم تكن مُجرَّد مصادفة، فبعد ثلاثين سنةً تقابلْنا هنا في «أونجوران» أنا وابني وأبوه وجهاً لوجه. معاناة ابني من فقدان أبيه لم تكنْ من باب المصادفة أبداً. كانت تشبهُ تماماً معاناةَ أبيه بسبب فقدانه لابنِه. ولم يكن من محاسن الصُّدَف تحوُّلي في الحياة من حالٍ إلى حال. من امرأةٍ قضتْ سنوات عمرها تمثّل أدوار البكاء على المسرح إلى امرأة تبكي في الحقيقة بحُرقة.

فِرقتنا الشعبية للمسرح هي الأخرى راحت تغيّر من مواقفها بعد الانقلاب العسكري الذي حدث في سنة 1980 وتقدم تنازلات كثيرة عن صبغتها اليساريّة. ومن أجل أن ننجو من الاعتقال والتعذيب خفّفنا صبغتنا بشيء من الماء. وبهدف جذب الناس إلى الحضور لخيمتنا أضفتُ إلى حواراتي القصيرة بعضَ المقتطفات من المثنويّ[35] وشيئاً من حكايات المتصوّفين القديمة، أو من قصة «خسرو وشيرين» أو بعض الحوارات والمشاهد العاطفية من قصة «كرم وأصلي»[36]. ولكن أكبر إنجاز حقّقناه هو عندما استعرنا بعض الحوار الذي كان يجري على لسان المرأة ذات العينين الدامعتين في قصة «روستم وسهراب»، وهذا بالذات كان قد أوصانا به صديق لنا يعمل ككاتب دراما وسيناريوهات في سينما «يشيل جام»[37] قائلًا: «هذا أفضل، ويلائم كلَّ أوان».

بعد العروض التي كنت أقلّد فيها الإعلانات التلفزيونية وأستهزئ منها ثم أرقص، كان بعض الرجال يتشجعون وهم يتابعون هزّي لوسطي،

35- نوع من الشِّعر سُمِّي بالمثنويّ، نظراً لتشابه القافية في كل بيتين منه. انتقلَ إلى الأدب التركي من الأدب الفارسي. (المترجم).

36- قصة حبّ عذريّة مشهورة في الآداب التركية.

37- أوّل صالة لعرض الأفلام السينمائية في إسطنبول 1896 عرضت فيها أفلام الأخوين لوميير، بعد سنة واحدة على العرض السينمائي الذي قدّماه في فرنسا. (المترجم).

ينظرون إلى تنورتي القصيرة وساقيّ الطويلتين فتبلغ بهم رغباتهم الجنسية إلى حد الوقاحة فيتجاسرون فيها بإسماعي كلاماً فاحشاً. ويعمد أكثرهم صفاقة إلى الصراخ: «افتحي افتحي!». وبينما كنت أمثل دور «تهمينة» أمّ سهراب التي تَرى زوجها وهو يقتلُ ابنَه أمام عينيها وتصرخ. ومع كل صرخة ينتاب الهلع جمهور المشاهدين، ويلوذون بصمتٍ مرعب.

كنت أبكي أولاً بصوت خفيض ثم أبدأ بالنحيب وأندب ولدي، فأرى جبروت قوتي وتأثيري على الجمهور المحتشد، وأشعر كذلك بالسعادة لأنني وهبتُ جُلّ سنوات عمري للتمثيل. كنت أرتدي على المسرح ثوباً سابغاً فيه شقّ جانبي على طوله. أتحزّم بنطاقٍ عريض، أتقلّد إكسسوارات كثيرة، هي مخشلات تاريخية وفي معصميَّ سواران قديمان. في الوقت الذي كنت أقف فيه على خشبة المسرح وأبكي بحرقة كأمٍّ مفجوعة بابنها كنتُ أشعر بأنّ معظم الرجال الجالسين على مقاعدهم يرتجفون خوفاً. تتخضّل عيونهم، وأحسّ بما يعتمل في أعماقهم من شعور عارم بالذنب. كنت أشعر بأنهم يتعاطفون مع الولد سهراب. كان الريفيّون والشباب ومعظم الجمهور الغاضب يعتبرون أنفسهم أقوياء. يتعاطفون مع الولد «سهراب» ويضعون أنفسهم في مكانه منذ بدء النزال بينه وبين الأب «روستم» المتغطرس الذي يكثر من إلقاء الأوامر. وأشعر بأنهم إنما كانوا يسكبون الدموع من أجل ميتاتهم هم. ولكي يندبوا حظّهم كانوا يحتاجون إلى رؤية أمّهم ذات الشعر الأحمر على المسرح وهي تسكب الدموع كالسيل الهتون.

بينما كنت أعيش هذه اللحظات كنتُ أشعر بنظرات مشاهديَّ وقد تركّزتْ على شفتيّ على عنقي وصدري وساقيّ وشعري الأحمر، وأرى في عيونهم ذات المشاعر التي يتداخل فيها الألمُ الفلسفي مع الرغبة الجنسية كما في الحكايات القديمة. مع كل إيماءة من رقبتي وكل خطوة أخطوها وأتدلّل بقوامي الفارع ومع كل نظرة من نظراتي كنتُ أتيقّن تمامَ اليقين أنّني أنجح بشكل منقطع النظير في مخاطبة عقولهم

ومشاعرهم وأرواحهم اليافعة. وإنها لحظات رائعة لا يمكن أنْ تتكرَّر. في بعض الأحيان كنتُ أجدُ شابّاً يبكي بصوت عالٍ، سرعان ما يعدي الآخرين من حوله، وفي أحيان أخرى كان أحدهم يصفّق لي بإعجاب فيتحوّل التصفيق إلى فوضى، ممّا يؤدّي إلى عدم سماع الآخرين ما تبقّى مِن حِواري فينشبُ عراكٌ بينهم. وفي بعض المرّات كنتُ أجدُ الجمهور المحتشد في الخيمة قد جُنّ جنونه. هذا يبكي وينشج في بكائه وذاك يبكي بصمت. منهم من يصفق ومنهم من يسبّ ويشتم، ومنهم من يشبُّ على قدمَيه ويصرخ، وهنالك من يتابع التمثيل من دون ضجيج. وهكذا يختلط حابلهم بنابلهم. أما أنا فكنت أهدف إلى إيصال هذا الهياج إلى ذروته، ولكني كنت أخشى أنْ يتحوّل هذا الغليان إلى عنف جماعي منفلت.

بعد ذلك بمدة قصيرة بحثتُ عن مشهد آخر كي يعيد التوازن إلى المرأة المنكوبة، فوجدتُ نفسي أبكي بصمت وأنا أتابع مشهد النبيّ إبراهيم وهو يصدِّق رؤياه، ويثبت طاعته لله بمحاولة منه لذبح ابنه. آنئذٍ يأتي دوري أنا فأخرج كملاك يسحلُ دميةً تمثّل خروفاً. ولكن لم يكن في هذه القصّة أيّ دورٍ يُذكَر لعنصر نسائي، ولم يكن وجودي مؤثّراً قَطّ. فأعدت صياغة حوار «جوكاستيا» والدة أوديب وأقحمته في حِواري... حكاية أبٍ يقتل ابنه بالخطأ. كفكرة ليس فيها ما يكفي من الإثارة، بل كانت موضع اهتمام الجميع وحسب! يا ليتني لم أكمل الحكاية ولم أروِ ملابسات زواج أوديب من أمّه ذات الشعر الأحمر. فقد كانت تلك علامة شؤم. اليوم يمكنني القول إنَّ ذلك كان سبباً لوقوع بلاء كبير. في الواقع كان «تورجاي» قد حذَّرني من مغبّة هذا الإقحام. وفي أثناء التمارين لم أعبأ بكلام العامل الذي كان يحضر لنا الشاي، حين قال لي: «ما هذا يا أختي؟»، ولم آخذ بكلام المدير «يوسف» الذي عبّر عن رأيه محصباً إيايَ بقوله: «هذا الكلام لم يعجبني!».

كان ذلك في سنة 1986 حين كنتُ أمثل دور «جوكاستيا» أمّ أوديب. رحت أروي قصة ابني «أوديب»، وكيف تزوَّج مِنِّي دون أن أدري، وأنا

أبكي بمرارة أمام الجمهور في بلدة «جودول». حينها تلقينا أول تهديد لنا. وفي اليوم التالي شبت النار في خيمتنا ولم نتمكّن من إخماد الحريق إلّا بِشِقِّ الأنفس. وبعد مرور شهر على تلك الحادثة في أثناء وجودنا في «سامسون» كنّا قد نصبنا خيمتنا جوار بيوت من التنك كانت قائمة عند ساحل البحر. ليلتها مثلتُ دورَ أمّ أوديب وألقيتُ حِواري عن زواج ابني مِنّي فتعرَّضَتْ خيمتنا في صباح اليوم الثاني إلى وابل من الحجارة. قام الصبيان برجمنا بالحجارة. وفي «أرضروم» خرج علينا الشبّان القوميّون يصرخون «لعبة يونانية» وهتافاتهم تندّد بنا. أرعبتْني تلكَ التهديدات والتُّهَم حتّى إنّني لم أغادرْ الفندق، أما خيمتُنا فقد ظلَّت تحتَ حماية أفرادٍ شجعان وصادقين من الشرطة. بينما كنّا نفكّر أنّ الريف غير مؤهَّل في الوقت الراهن بتقبّل الفنّ ذي الطرح الصريح. جاءنا قرار بمنع عرض مسرحيتنا التي لم نقدّمها سوى ثلاث مرّات على الصالة الضيقة المتشبّعة بروائح القهوة وأنواع الخمور في جمعيّة الوطنيين التقدميين في أنقرة بذريعة أنها «منافية للأعراف الاجتماعية وتخدش الحياء العام». لم أجد غضاضة في تبرئة النائب العام في اتخاذه قراراً كهذا في بلد مثل بلدنا، أكثر الشتائم المتداولة فيه هي أنهم يبدؤونها بـ«... أمك».

في العشرينيّات من عمري حين كنت مغرمةً بحبّ «آكن» جدّ ابني، كنّا نتناقش في هذا الموضوع، ويقول لي إنّ الذكور يتعلّمون الشتائم التي لم أكن قد سمعت بها في المتوسطة والثانوية ولا في العسكرية، وكان يذكرها ويردّدها بشيء من الدهشة والخجل ويقول: «هراء!». وبعد ذلك تحدّث عن «سَحق المرأة» وأخذ يروي لي كيف تنتهي مآسيها وكل هذه القاذورات عندما تصل المرأة إلى جنة الطبقة العاملة. فكان عليّ أن أتحلى بالصبر، وأن أناصر الذكور من أجل أن يقوموا بالثورة. ولا تظنوا أنّني سأتطرق إلى موضوع عدم المساواة الموجودة بين اليساريين الأتراك ذكوراً وإناثاً. فحواراتي الأخيرة لم تكن غاضبة وحسب، بل جميلة وشعريّة. أتمنّى أن يطغى هذا الجو على كتاب ابني أيضاً، ويلمس

القُرّاء هذه المشاعر في الكتاب مثلما يتفاعلون عندما يرونني على خشبة المسرح. فأنا من أعطتْ الفكرة لولدي «أنور» واقترحَتْ عليه أن يؤلف كتاباً عن حياتنا بدءاً من جدّه ثمّ أبيه.

ويجدر بي أنْ أقول إنّني امتنعتُ عن إرسال فلذة كبدي «أنور» إلى المدارس لكي لا يفقد الطيبة التي تنطوي عليها سيرته ولا يخسر إنسانيّته، ولكي لا يتشرّب العنف من الرجال الأكبر منه. فكرت أن أعلمه في البيت. أما «تورجاي» فلم يحمل أحلامي هذه بمحمل الجد. حينما بدأ ولدنا بالذهاب إلى المدرسة الابتدائية في «باكركوي» كنّا قد تركنا التمثيل ورحنا نعمل في الدوبلاج على المسلسلات الأجنبية التي كانت رائجة في تلك الأيام وتنتشر بسرعة مذهلة. ذهابنا إلى «أونجوران» في تلك السنين كان بسبب «سري سياه أوغلو»، فعلى الرغم من أفول بريق الاشتراكية وانطفاء فورة اليساريّة فإننا كنّا نلتقي كأصدقاء قدامى، وهو نفسه جمعنا بالأُسطى «محمود» بعد سنوات عديدة.

كان ولدي «أنور» يهوى سماع الحكايات التي يرويها الأُسطى «محمود» فكنا نذهب إلى زيارته في منزله الجميل حيث توجد بئر في حديقته الخلفية. بعد عثوره على الماء في أول بئر حفرها وفي أثناء انطلاقته الأولى في بداية حملات الإعمار شاءتْ الأقدار أنْ يحفر آباراً عديدة وأن يصيب شيئاً من الثراء. عاش في بحبوحة بسبب ارتفاع أسعار الأراضي التي كان قد اشتراها بأثمانٍ بخسة. أهالي بلدة «أونجوران» زوّجوه بامرأةٍ طليقة في غاية الحسن والجمال، لها ولد واحد من زوجها الذي هاجر إلى ألمانيا ولم يعدْ أبداً. احتضنَ الأُسطى «محمود» هذا الولد وعوّضه عن فقدان الأب. ابني «أنور» والصبي – كان اسمه صالح – قد صارا صديقَين. وبسبب تردُّد «أنور» على بلدة «أونجوران» تعلَّمتْ قدماي الذهاب والإياب إليها. بذلتُ قصارى جهدي في أن أجعل «صالح» يحبّ المسرح لكنّي فشلت. ولأنني أعلم أنّ حُبّ التمثيل مُعْدٍ أيضاً لذلك أصبتُ شيئاً من النجاح في تجنيد كثيرين من أصدقاء

«أنور» ومن أبناء بلدة «أونجوران» كأعضاء في فرقةٍ شابّة للمسرح. فكانوا يتردّدون على بيته ويقضون ساعات من اللّهو واللعب في حديقته التي تضوع بالبيلسان، وقد عمل الأُسطى «محمود» غطاءً حديديّاً للبئر ووضع عليه قفلاً كبيراً لئلّا يقع أحدٌ من الأولاد في البئر. وعلى الرغم من ذلك كنتُ أصعد إلى الشرفة المطلّة على الحديقة الخلفية من بيته المكوّن من طابقين اثنين وأصرخ مناديةً عليهم: «لا تقتربوا من البئر!»، فالأحداث التي تجري في سياق الحكايات القديمة والأساطير لا بدّ أنها ستتحقق يوماً ما وتكون حقيقة واقعة. فعلى قدر ما تقرأ وعلى قدر تصديقك بالأساطير ستُبتَلى بأحداثٍ مماثلة لها. لأن الحكاية التي تسمعها سوف تطلق عليها تسمية أسطورة بعد أن تعيش أحداثها.

يعود الفضل لي أنا في إنقاذ الأُسطى «محمود» من البئر. قبل يوم واحد، مساءً، بعد أن شرب حبيبي طالب الثانوية كأساً إضافية أخرى من عرق «كلوب» ومارس الحب معي كأيّ مبتدئٍ عديم الخبرة، تركَني حُبلى، أحملُ جنينَه في أحشائي (هذه المسألة لم تخطرْ ببال أيّ واحد منّا على الإطلاق)، روى لي كلّ شيء (مثلما يقول هو)، ذلك أنّ مُعلّمه الأُسطى «محمود» كان يقسو عليه بينما هو يريد العودة إلى البيت، إلى أمّه، وأنه فقد الأمل كليّاً من التوصل إلى الماء، ولا ينتظر هنا في «أونجوران» من أجل رؤية انبثاق الماء من البئر، بل من أجلي أنا.

في ظهيرة اليوم التالي اختلط عليّ الأمر حين أبصرتُه في ميدان المحطة يحمل حقيبته الصغيرة وهو يصعد القطار بارتباك واضح. فبعضٌ من الرجال الذين يأتون إلى خيمتنا ويشاهدونني كانوا في الغالب يقعون في غرامي (طبعاً لمدة قصيرة) وتتملّكهم مشاعرٌ مبالغ فيها من الغيرة.

حزنت حينها وتصورت أنّه من المحتمل جدّاً أنّني لن أرى «جيم» بعد ذلك. كان قد تحدّث لي قليلاً جدّاً عن أبيه. ربما قد طرقتْ سمعَه أخبارٌ ما منذ ذلك الحين. وكان من المقرَّر أن نذهب نحن في القطار التالي ولكنني لم أفهم لماذا يهجر «جيم» بلدة أونجوران وهو يعدو مضطرباً

مثل من اقترف جريمة. كان هنالك ازدحامٌ كبير في المحطة. قرويّون يحملون سِلالهم وهنالك أولاد ونساء جاؤوا للسوق. قبل ذلك بليلة واحدة كان «تورجاي» قد جاء بالأُسطى محمود - بمساعدةِ من العامل عليّ - إلى المسرح وتابع تمثيليّتنا بكياسة وأدبٍ جَمّ. وكان أصدقاؤنا على علم بأنّ العامل «عليّ» لم يعد يعمل هناك، وأن ربّ العمل الذي طلب حفر البئر قد قطع دعمه المالي. انتابنا القلق بشكل جدي فأرسلنا «تورجاي» إلى الهضبة، وهكذا فاتنا القطار. ثم رحنا جميعاً، كما في الحكايات القديمة، لننظر في البئر، وأنزلنا علياً إلى الأسفل فأخرج الأُسطى «محمود» وهو شبه مغمى عليه.

نقلوه إلى المستشفى. وبعد مدّة سمعنا أنّه قد عاد إلى العمل في البئر، ولم يكن قد شفي تماماً من الحادث الذي تعرّض له قبل ذلك، وكسر عظم الترقوة في كتفه. ولم نطّلع على أيّة معلومات أخرى، على سبيل المثال، مَن الذي كان يساعده في الآونة الأخيرة، لأن فرقتنا المسرحية غادرت بلدة «أونجوران». هنالك حيث شاركني طالب في الثانوية فراشي، بعد أن أسكرَتْه التمثيليّة التي قدَّمناها في تلك الليلة، وفي الحقيقة كنت أريد نسيان حبّي - لأبيه - الذي بدأ يخبو. قبل أنْ أبلغ الخامسة والثلاثين من عمري بدأتُ أكتشف الكبرياء والضعف والفردية التي تسري في عروق الرجال، وأعرف أنهم على أهبة الاستعداد لقتل آبائهم وأولادهم. وبينما يتوَّجون بأكاليل النصر فلن يبقى لي خيارٌ آخر سوى البكاء. ولربما يتوجَّب عليّ أن أتخلّى عن طباعي فيما تعلّمتُه وأهاجر إلى أماكن أخرى.

ليس «تورجاي» وحدَه من ساورَته الشكوك في كون «جيم» هو والد ابني «أنور»، بل حتى أنا كنت أتردّد بين الشكّ واليقين. وعلى الرغم من أنّ هذا الاحتمال قد راودني مراراً وأنا أعدّ الأيام دون التركيز على ذلك بجدّية. ولكن كلّما كبر «أنور» وتبيّن شكلُ عينَيه وحاجبَيه وأنفِه - وعدم وجود أوجه الشبه بينه وبين «تورجاي» بدأتُ أفكّر بجدّ أنَّ أبا

ولدي هو عشيقي الطالب الإعدادي. تُرى هل كانت هذه المسألة تؤرِّق «تورجاي»؟

العلاقة بين «أنور» وبين «تورجاي» لم تكن قَطّ على ما يرام. كلّما نظر إلى ابننا وتذكر كوني حبيبة أخيه الأكبر «تورهان» وزوجته، فيعتبره مخدوعاً لأنني في الوقت نفسه أخوض غمار علاقة أخرى مع رجل آخر. لم يكن يفصح عن رأيه هذا علناً ولكنني كنت أشعر بما يخفي. فرؤية شعري الأحمر كانت تزعجه وتتسبّب في إثارة أعصابه، لأنها تذكره بتلك الهواجس!

اخترت بعض الصفحات من كتب ونصوص مسرحيات مترجمة من الفرنسية والإنجليزية بخصوص النساء ذوات الشعر الأحمر على أنهن سريعات الغضب، ويعتبرن في الغرب رمزاً للنساء المشاكسات اللائي يملن إلى الشجار، ودفعت بها إلى «تورجاي» ليقرأها، فلم يأبه بها على الإطلاق. كان هنالك مقال بعنوان «صنف النساء المفضلات لدى الرجال» قصاصة كانت قد أخذت كما هي من مجلة نسائية، أو من جريدة تصدر في أوروبّا. صورة لامرأة جميلة ذات شعر أحمر، كتب تحت الصورة: «غامضة وغاضبة». كانت تشبهني في وقفتها، وفي شكل شفتيها. قصصت الخبر بعناية وألصقته على الحائط ولكن ذلك لم يثر اهتمام زوجي. زوجي الذي كان محليّاً حتّى النخاع، على الرغم من ظاهره الذي يوحي أنّه يساري أو أمميّ. كان نموذج المرأة ذات الشعر الأحمر بالنسبة إليه هو امرأة تضاجع كل من هبّ ودبّ من الرجال. أما إذا كانت تعمد إلى صبغ شعرها بالأحمر فذلك يعني أنها تختار هذه الهويّة بوعي تامّ، أما كوني فنانة مسرحية فكان يحوّل تهمتي هذه إلى لعبة أقلّ وطأة.

وهكذا في السنوات التي كنّا نعمل فيها على دبلجة المسلسلات ابتعدنا عن بعضنا بعضاً شيئاً فشيئاً. عشنا في شقّة في منطقة «باكركوي» ورثها «تورجاي» عن أبيه. أما «أنور» فلم يكن يرى أباه «تورجاي» لأنه

كان يعمل في مجال هندسة الصوت في الإعلانات ويشتغل في أعمال إضافية أخرى. يأتي إلى البيت ليلاً في وقت متأخر، وفي أحيان كثيرة لم يكن يأتي إلى البيت أصلاً. فأنا أعرف أحسن من غيري ماذا تعني تربية طفل يفتقد أباه. ينتظره على العشاء وهذا يتأخر دوماً في الحضور. ربما يأتي أو لا يأتي قَطّ. وبسبب ذلك صرت أكثر قرباً إلى «أنور» أراقب حالاته المختلفة، وأتابع عن قرب تطور روحيّته وأحاسيسه ومشاعره. فلمست لمس اليد هواجسه، صمته ودهشته. رأيت تعصّبه ووحدانيّته بشكل واضح، وشعرت كذلك بيأسه. ولدي الذي كنت أحب أن ألمس بشرته ذات الزغب الناعم كالقطيفة وأمرّر باطن كفي على ذراعيه وساقيه ورقبته وأذنيه. ومثلما كنت أراقب بشغف تغلّظ منكبيه ونمو (بلبوله)[38] كنت أفرح لفصاحة عقله وثراء منطقه. وأتابع بمزيد من الفخر والاعتزاز اغتناء سخافاته شيئاً فشيئاً. أحياناً كنّا نصبح صديقين حميمَين فنتجاذب أطراف الحديث طوال النهار. نلهو معاً. نلعب الغمّيضة داخل البيت. نحلّ الألغاز أو كنّا نخرج إلى السوق معاً. وفي بعض الأحيان يخيِّم علينا الحزنُ وتلقي الوحدة علينا بظلالها. نشعر بالخوف من اتّساع العالم، ننزعج من موقعنا الذي نحن فيه، ثم ننطوي على أنفسنا. حينها كنت أدرك كم كان صعباً أن تفهم شخصاً آخر أو أن تتقرَّب إليه أو أنْ تتماهى روحك مع روحه، وهذا الشخص هو ابني «أنور» الذي أعتبره أثمن ما أملك في الحياة. أمسكت بيده وأريته العالم بأسره، من دروب وأزقّة إلى بيوت ومتنزّهات ومن مناظر وصُوَر إلى بحرٍ وسُفِن. أردتُ أن أحميه وهو يلعب مع أقرانه في أزقة «باكر كوي» وفي دروب «أونجوران»، لئلّا يتعلم الكلام البذيء ويبتعد عن الأشقياء الذين يشتمون بعضهم بعضاً: «... أمك»، ولم أكن راغبة في أن يكون مثل السفهاء الذين كانوا يتردّدون على خيمة المسرح.

أنور كان مُقِلّاً في الخروج إلى اللعب في الزقاق قياساً بأترابه

38- العضو التناسلي الذكري في لغة الأطفال. (المترجم).

الآخرين، ولكن عدم نجاحه نجاحاً باهراً في الدراسة، وعدم استطاعته إحراز درجات متقدِّمة في صفّه جعلني أحزن من أجله. أحياناً كنت أسأل نفسي لمَ ينتابني الحزن لهذا السبب. كنت أرغب أن يتّصف بشيء من الإنسانية، وأن يكون صادقاً وسعيداً بمعنى الكلمة بدلاً من كسب المال الكثير. كان عليه أن يكون إنساناً سعيداً وبطلاً في الوقت نفسه! وقد تخيلت ذلك وبنيت أحلاماً كبيرة في الهواء. كنت أقول لنفسي ألّا يكون ابني إنساناً يفكر بأشياء صغيرة تافهة. كنت أتضرّع بالدعاء من أجل «أنور» الذي يفتح شفتيه الورديّتين ويبكي بعينين حمراوين في طفولته، وأتمنّى ألّا يتوجع في حياته قَطّ. قلتُ له وأنا أحدّق بتمعُّن في عينيه الجميلتيَن: إنّك إنسانٌ تمتلك جوهراً خاصّاً بك.

قرأنا معاً كتب أطفال وحكايات قديمة وأشعاراً. كنّا نتفرج على أفلام الكارتون ونتابع تمثيليات الأطفال على شاشات التلفاز. كنت أراه وقد غدا حساساً وذا مشاعر مرهفة. قلت له أنتَ ستكون كاتباً مسرحيّاً في ذات يوم. فقد قَبِلَ أن يكون كاتباً، إلّا أنّه لم يتقبل المسرح قَطّ.

فالحالات العصبية ومظاهر العناد التي لم تظهر بوضوح على سلوك أبيه وجدّه بدأت تطغى على تصرفاته بعد أن أكمل دراسته الابتدائية. أخذت أواجه غضباته باحترام متصوّرةً أنّه ربما اكتسبها مِنّي، فقد كان أكثر بهجةً عندما كان صغيراً. عندما كنت أغسله بالماء الدافئ وأفرك جسمه الجميل وأطرافه التي كانت تتراءى لي وكأنها أغصان لدنة، وأغسل رأسه الشبيه بالبطيخ ومؤخر عنقه وبلبوله الصغير مثل حبّة الفاصولياء، يبدو لي جذلاً حين أمرّر باطن كفي على صدره وحلمتيه اللتين تبدوان كأنهما قطعتا فراولة. وفي بعض الأحيان كنت أغتسل أنا من بعده في الحمام الساخن. إلى أن بلَغ العاشرة كنّا نغتسل معاً في الحمام - الذي يسخن ماء حوضه بصعوبة - في شقّتنا الكائنة في «باكركوي». بعد ذلك علَّمتُه كيف يستحمّ لوحده وكيف يغسل رأسه برغوة الصابون دون أن يفتح عينيه المغمضتين.

كلّما مرّت السنون غلظت ساقه واشتدّ عودُه كما ازدادت موجات غضبه. أظنّ أن تأخر «تورجاي» المتكرّر عن البيت كان سبباً في إثارته. وحزنه كان ناجماً عن قبوله في كلية متواضعة، وشعوره بخيبة الأمل التي تعرضت لها أنا من جرّاء ذلك - برغم أنّي لم أكشف عنها يوماً ما - كل تلك المشاعر تركتْ في نفسه آثاراً بليغة. في تلك السنوات كان يتلذّذ من المجادلة والمعاكسة معي، والعمل على الضدّ مِنّي. فعندما كنت أتهكّم وأحرّك أنفي ساخرةً من الروايات المصوَّرة التي يقرؤها، أو حين أغيّر قناة التلفزيون كان يقول بغضب: «أنتِ ماذا تفهمين»، عندما كان يقصّ شعره قصيراً مثل الهاربين من السجون، أو حين يطلق لحيته مثل المتديّنين أو حين يتجوّل مثل المجانين دون أن يحلق لحيته لثلاثة أيام ويفرح حين يراني قلقة عليه. يتشاجر معي. كثيراً ما كان أحدنا يصرخ في وجه الآخر، وينتهي الأمر بأنّ يضرب مزلاج الباب ويترك البيت.

في سنوات الدراسة في الكلّية أخذ يتردَّد كثيراً على «أونجوران» لأنه كان يبحث عن أصدقاء طفولته، وفي أثناء ذهابه وإيابه إلى الأُسطى «محمود» تعرَّف هناك على شلّة من الشباب كانوا أنصاف عاطلين وأنصاف مثاليّين وأخذ يعاشرهم. هنالك اعتاد على الذهاب إلى منطقة «ولي أفندي»[39] القريبة إلى بيتنا، ولعب القمار هناك. ولكنه ترك القمار لأنه خجل من أن يَطلب نقوداً مِنّي. عندما كان في «بوردور»[40] لأداء الخدمة العسكرية كان يخابرني عندما يسمحون لهم بالنزول إلى المدينة في إجازة السوق، يبكي ويكشف عن تذمّره ومعاناته من الوحدة. فكانت عيناي تتخضّلان من الفرح والحزن عندما أراه في إسطنبول، وأرى قَصَّة شَعرِه القصيرة ورقبتَه التي ضعفت مثل غُصين الفراولة، ومؤخَّر عنقه المحمَّص بفعل أشعة الشمس. وبعد حين نتخاصم ونزعل ونمضي

39- منطقة «ولي أفندي» كانت ساحة شعبية لسباق الخيل في السابق. أما الآن فصارت مضمارا كبيراً لسباق الخيل. (المترجم).

40- هي إحدى محافظات تركيا. عاصمتها مدينة بوردور تقع في جنوبي غرب تركيا... (المترجم).

أياماً طويلة لا يكلّم فيها أحدنا الآخر. في تلك الأيام حين يتأخّر في المجيء إلى البيت ليلاً - والأسوأ من هذا إنْ لَمْ يأتِ قَطّ - كان يصيبُني الأرق، وينتابني الذُّعر حينَ أتصوَّر أنّه ربما كان قد تورَّط بعلاقةٍ عاطفية مع فتاة مغرورة أو مع امرأة متوشِّحَة بالحزن. ولكن كلَّ هذا الخصام وكلّ هذا الزعل والكلام الذي يحتمل أكثر من معنى، وكل هذا الصمت الذي يخيّم علينا وفي لحظةٍ غير متوقعة كنّا نتعانق بقوّة ونتصالح ويقبّل أحدُنا الآخر. حينها كان يتأكَّد لي أنّني لن أستطيع العيش بعيداً عن ابني ولا أطيق الحياة من دون أنْ أراه. كنّا قد ابتعدنا عن أبيه «أو عن الشخص الذي كان يعتبره أنور أباً» بما فيه الكفاية. انفصالي الرسمي عن «تورجاي» وموته لم يهزّ شعرة فيه.

كنت أفكر أن السبب الأساسي في معظم أزماته وغضبه، وفورات هياجه من غير سبب، وغرقه في الصمت وتوجيهه أصابع الاتهام إلى محيطه، نشأته بلا أب، ورهافة أحاسيسه هو كونه مفلساً لا يملك شروى نقير. ففي الأيام التي كنت أرى صورة «جيم» وصور منشآته في الإعلانات المنشورة على صفحات الجرائد أصبت بالدهشة، واختلط عليّ الأمر حين قرأت الخبر الذي يؤكد أنّه صار بإمكان المرء أن يعرف من هو أبوه الحقيقي بفضل التطورات العلمية في مجالات الطب الحديث في الغرب. وبحسب الخبر، حتى المحاكم التركية باتت تعتمد على تلك النتائج.

لو كنت في أيام شبابي لما قبلت بإقامة الدعوى ضد أب لكي يقبل بابنه، ولا أريد منه أن يعترف بأبوته لابنه قسراً بقوة وسطوة الدولة، وطلب النقود منه تحت تهديد إقامة الدعوى. ولا الحضور في أحد اجتماعاته مِن دون توجيه الدعوى إلينا. ولأنني قمت بكل هذه الخطوات صار ولدي يشعر بالخجل والعار. ولكنني لم أقدم على هذا العمل من أجلي أنا، وكان يدرك جيداً أنّني أقوم بكل هذا من أجله هو، وبرغم ذلك كان يقيم الدنيا ولا يقعدها ولكنه كان يلين فيما بعد.

الصعوبة الحقيقية كانت تكمن في إقناع ولدي. توسلت إليه على مدى أشهر عديدة لكي يقيم الدعوى. تشاجرنا، تجادلنا، تعالت صرخاتنا. لم يكن سهلاً أبداً أن يتقبَّل أن تكون أمه متزوجة من رجل وتكون حبلى من رجل آخر. كان من الصعب عليه أن يقبل بهذا. وكم من مرّة صرخ في وجهي: «هل أنتِ متأكدة مما تقولين؟» فقلت له: «يا ولدي، لو لم أكن متأكدة هل كنت أتكلم؟»، تارة هو وتارة أنا كنت أخجل من نفسي وأطأطئ رأسي. ثم نلوذ بأذيال الصمت.

في معظم الأحيان كنّا نتشاجر ويصرخ الواحد منا في وجه الآخر. كنت أردّد جملتي التي كانت أكثر الجُمل تأثيراً وهي: «من أجلك يا ولدي!» وفي ذات مرّة تلقَّف صورةَ المرأة ذات الشعر الأحمر التي كانت معلَّقة إلى الحائط مزَّقها ورماها. كان قد رآها في الإنترنت، وكانت مثلي. بعد ذلك أنا أيضاً شاهدتها على الإنترنت. أما القصاصة التي أخذتُها من إحدى المجلات فكانت لوحة للرسام «دانتي روزيتي»[41] تمثل صورة لامرأة ذات شفتين رائعتين لها نظرات جميلة. هي موديل اعتاد الرسّام أن يرسمها فعشقها ثم تزوّجها. حملتُ القصاصة ولصقتها بالشريط اللاصق ثم علّقتها إلى مكانها.

ابني لا يتحدّث عن موضوع إقامة الدعوى القضائية على أبيه إلّا عندما يكون مخموراً. وكلّما شرب أكثر تحدث بحكمة وبارتياح أكثر، وفي الوقت نفسه تجده يتحوّل إلى شخص قاسٍ لا يطاق. يتشدّق بالكلام البذيء نفسه الذي كان الجنود يطلقونه على والدته في تلك البلدة. فكان يضرب الباب بشدّة ويخرج من البيت. بالضبط مثلما كان يفعل عقب تخرّجه من الجامعة، في أثناء مشاداتنا التي دامت طوال سنواتنا الأولى في «أنجوران»، ففي كل مرّة كان يشتمني ويقسم بأغلظ الأيمان أنّه لن يكلّم غانية مثلي - وكان يطلق عليّ تسميات أكثر بذاءةٍ منها - ولن يلتقي

41- دانتي روزيتي: رسام وشاعر إنكليزي (ولد سنة 1828 وتوفي سنة 1882)، وقع في غرام إحدى موديلاته وهي فتاة ذات شعر أحمر، وقد رسمها في العديد من لوحاته.

بي مدى الحياة، إلّا أنّه بعد يوم أو يومين كان يستقل القطار ويأتيني إلى «باكركوي» ويحضر للعشاء، فكنت أستقبله بلهفة قائلة: «حسناً فعلت إذْ جئتَ، عملت كفتة أزمير».

كنا نتجاذب أطراف الحديث عن موضوعات شتّى، ونتطرق إلى أخطر الموضوعات وأكثرها حساسية، وكأننا لسنا مَن كانا متخاصمَين قبل يومين. بعد ذلك كنّا نجلس جنباً إلى جنب لمتابعة التلفزيون مثلما كنّا نفعل أيام كان ولدي صبيّاً أو عندما كان في الثانوية وننتظر على العشاء وصول الأب الذي لن يأتي. وعندما ينتهي الفيلم لا يرغب في الذهاب إلى الفراش بل كان يسأل: «ماذا يوجد في البرامج بعد هذا؟»، ويتابع برنامجاً آخر على قناة أخرى بالحماسة نفسها.

كان يغفو مستلقياً على الكنبة أمام التلفزيون وكنت أطيل النظر إليه وأشعر بالندم لأنني لم أعثر له على فتاة لكي أزوّجه. وفي الوقت نفسه كنت أخشى أن يقع اختياره على فتاة ما أنا لا أقبل بها، أو أختار له فتاة هو لا يقبل بها. ولم يتحول ندمي إلى حزن عميق لأنني كنت أعرف أنّه سيقوم برفض الفتاة التي أختار من أجل معاندتي ليس إلا. ابني وأنا أعرفه ليس له صيت ذائع ولا مال كافٍ لكي يتزوج زواجاً مرموقاً. لم أندم في حياتي أبداً على أيّ قرار اتخذته اعتباراً من اليوم الذي قرّرت فيه أن أصبغ شعر رأسي بالأحمر، فإنني شعرت بالندم لأنني طلبت إليه أن يعرف أباه الحقيقي، أنْ يتعرّف عليه وأن يكون قريباً منه، وإصراري على ذلك. كان «أنور» يبدي اهتمامه بما أبذل من جهود بهذا الخصوص وفي الوقت عينه كان يقلّل من شأنها. وينعتني باللاهثة وراء السراب. وفي أحيان أخرى يتّهمني بأنني أدبّر حيلاً هدفها الابتزاز. توجيه الجرائد بأصابع الاتهام إليه باللهجة نفسها وخاصة بعد وفاة أبيه لم يكن مصادفةً قَطّ، ولكن ابني «أنور» لم يقصد قتل أبيه. في الحقيقة إنّه لا يعتبر قاتل أبيه! الصحف هي التي صنعت الخبر من خلال ترديد الكلام القبيح نفسه حتى صارت وصمة عار في جبينه.

ابني، لدى البئر لم يكن ينوي عملِ أيّ شيء سوى أنّه كان يريد الدفاع عن نفسه، عندما رأى أباه يشهر مسدَّسَه في وجهه. وقد تواجد هنالك بدافعِ واحدٍ لا غير، وهو أنّه كان يطمح في رؤية والد الابن الذي ترعرع بلا أَبٍ. أنا من ولَّدَتْ في نفسه هذا الطموح. لهذا أنا نادمة. ولكنني لا أشعر بالندم إطلاقاً لأنني قصصتُ عليه في أيام طفولته قصّة «روستم وسهراب»، حكاية أوديب وأمّه، أو قصة النبي إبراهيم وابنه. فالشباب والطلاب والغاضبون الذين كانوا يتقاطرون إلى الخيمة الصفراء للفرقة المسرحية... لم يقم أحدٌ بقصّ تلك الحكايات عليهم، وبرغم ذلك كانوا يعرفون تلك القصص مثلما كانوا يعرفون الخواطر المنسيّة.

أنْ تكون على بينة من تقليد أساطير وقصص الحياة أو على معرفةٍ بتلك الحكايات القديمة ليست دليلاً لإثبات التهمة على ابني، على العكس مما كان يدَّعيه النائب العام. فقد رغب «أنور» كثيراً بالابتعاد عن البئر، دون أنْ يتسبّب في مقتل أبيه. فكم كان لديه من الوقت للتفكير بهذا الأمر حين كان ينازع أباه من أجل أن يأخذ المسدس من يده؟ ابني لم يقتلْ أباه عمداً، فمن خلال ما رواه لي بصدق لم أجد صعوبةً قُصوى في التأكّد من براءته. حتى الصُّحف صارتْ على بيِّنةٍ من هذا الأمر ولكنّها لم تنقل الخبر إلى قُرّائها بأمانة.

كِبَرُ «شركة سهراب»، ثراءُ «جيم»، وعثورُ «أنور» على أبيه بعد سنوات طويلة بفضل تطورات الطب الحديث، ثم قتلُه إيّاه... كان الصحفيُّون يعلمون أنَّ هذه الأخبار تستهوي القرّاء. قيل الكثير عن حضوري إلى مكان الحادث في اللحظات الأخيرة وقد كُتِبَ في وصف حزني وسكبي الدموع. الصحفيون ذوو النوايا الطيبة الذين يهوون التمثيليات الميلودرامية كتبوا أخباراً مطولة مؤلمة بعناوين مبهرة: فنانة المسرح سابقاً وفنانة الدوبلاج حاليّاً شاهدة عيان على قتل ابنها لأبيه. أما ذوو النوايا الخبيثة الذين يهوون التمثيليات الميلودرامية ويحصلون على عروض إعلانات مغرية من «شركة سهراب» فقد كتبوا أن الحادث لم

يكن عرضيّاً بل جريمة قتل متعمّد مع سبق الإصرار والترصُّد، وأخذوا يتّهموننا جُزافاً ودون أيّ وازعٍ من ضمير بأنّ هدفنا هو الاستحواذ على ثروة جيم. وذهب بعضٌ منهم إلى أبعد من ذلك وكتب يقول إنَّ خيرَ دليل على «خِسّةِ شخصِي ووضاعةِ طَوِيَّتي» هو كون شعري أحمر. ولكن مَن جاء إلى «أونجوران» متحزّماً بمسدّس «كرك قاله»[42]، ومَن الذي وقَفَ عند البئر وأخذ يرعد ويزبد! بالطبع لم يكن ابني بل أبوه. أنا متأكّدة أنَّ القاضي سوف يتأكد من أنّ السلاح مسجَّل بترخيص يحمل اسم «جيم»، وهذا خير دليل على حسن نوايا ابني وأننا لم نكن ندبر لأمرٍ سيِّئ. ولكن الصحفيين لم يأخذوا هذا التفصيل بعين الاعتبار، وهكذا صرنا «أنا»، كوني امرأة ذات شعر أحمر، والدة القاتل، و«ابني» الذي أزهق روح والده نذكر في تاريخ مدينة إسطنبول. وهذا كان يزعجني إلى أبعد حد.

عندما كنت أذهب لزيارة ابني في سجن «سيليفري» كان بعضٌ من السجناء، ممَّن يصدّق الأخبار المنشورة عنّا، ينظر إليَّ شزَراً ويرمي إلينا كلاماً بذيئاً. حتى السجان الذي كان ينوي تقديم المساعدة لنا بدافع الشفقة كان يتسبّب في تحطيم قلبي على نحو لا يمكن إصلاحه على الإطلاق. هضْمُ هذه الكلمات النابية والصبر على تلك النظرات الثقيلة كان أشدَّ وقعاً من تلك الصيحات التي كان عديمو الأخلاق من المشاهدين يتشدَّقون بها وهم يصرخون: «افتحي! افتحي!»، ولهذا السبب وحده طلبت إلى ابني «أنور» أن يكتب عن قتله لأبيه قضاءً وقدراً، وقلت له: إن الحاكم حين يقرأ كتابك سيجدك بريئاً لأن الحادث كان مُجرَّد دفاع عن النفس. ولكن كان عليه أن يبدأ بالقصة منذ اليوم الأول الذي ذهب به أبوه «جيم» لحفر البئر. إذن عليَّ أن أعرف كل شيء، وأن أطلعه على التفاصيل بحذافيرها. الأمر الذي سيجعل هذا الكتاب بمثابة مرافعة مكتوبة تقدم إلى قاضي الأحكام الثقيلة الموجود في «سيليفري» ويتوجَّبُ أنْ يُقرأ الكتاب باهتمام بالغ، على أن تُعتَبر تفاصيله أدلّةً قانونية

42- مسدَّس نصف أوتوماتيكي يصنّع في مدينة «كرك قاله»... (المترجم).

دامغة في مجرى التحقيقات الخاصة بالجريمة. بالضبط مثل أوديب سوفوكليس.

لقد فسروا مسعاي في التقريب بين ابني - باسم مستعار هو «سرهاد» - وبين أبيه كدليل على سوء نوايانا، أنا وابني، أما فيما يخصّ الدعوى القضائية التي أقامها ابني مطالباً أباه بحقوق الأبوّة فقد لفَّقوا أكاذيبَ ما أنزل الله بها من سلطان. جميع التفاصيل في هذه الرواية هي دقيقة وحقيقيّة. وهأنذا أُكمل رواية الحكاية:

حين تأخَّر ابني وأبُوه في العودة إلى مائدة الطعام هرعتُ إلى البئر، فتبعني آخرون غيرهما.

اصطحبنا الحارس إلى المبنى القديم الذي يضمّ حجرة الطعام. وما إنْ دخلنا حتى اندفع نحونا كلبٌ شرسٌ ينبح وكأنّ أحدهم يخنُقُه. وجدتُ ابني جالساً لوحده على مقربة من البئر التي كان غطاؤها مفتوحاً، فعلمت بما حصل. لقد قتل ابني أباه على مضَض. هرعت إليه وعانقتُه بكل ما أوتيت من قوة. أردت أن يتأكد بأنّي أسانده وأفهمه، وأن يكون على يقين بأنني على استعداد لحمايته بحناني وحبّي. شعرت بوجعي في إهراق الدموع، بعدها بدأت أبكي مثل «تهمينة» أم سهراب. وكأن الصراخ كان مخنوقاً في رئتيَّ. نعم، مثلما كنت أفعل على خشبة المسرح، ولكن حزني أعظم مما كنت أشعر به على المسرح وأشدّ ألماً. لم أكن أنشج في بكائي وحسب بل كنت أبكي بصوت عالٍ كأنني أصرخ. أعتقد أن البكاء دواءٌ لدائي. وجدتُ أنّ أكثر الجنود صفاقةً، وأكثر السكارى وقاحةً، وأشد المتحرّشين الجنسيّين خِسَّة تتهاود همَمُهم عندما يرَون امرأةً تبكي. فالعالم قد بني على أساس بكاء الأمّهات. ففي أثناء البكاء لا أشعر بأي شيء سوى بالمسألة التي تبكيني.

نهض بعض العاملين القلقين في «شركة سهراب»، جاؤوا إلينا يرعدون ويزبدون، يتساءلون ويبحثون عن ربّ العمل «جيم»، قال لهم ابني إن السيد جيم (لم يقلْ لهم أبي) قد سقط في البئر. فأخبروا الشرطة.

وقبل وصول سيارة الشرطة سبقتهم زوجته السيدة «آيشا» بالحضور، فجاؤوا بها إلى حافة البئر. لم تشأ أن تصدق أن زوجها موجود في قعر البئر، حالها حال كل الناس. كنت أود أن يجلس كلانا، أنا وزوجة «جيم» لنذرف الدموع من أجل الحياة التي تقاسمناها، وددت أن أعانقها وأحتضنها بقوة. أن نبكي معاً من أجل الأب القتيل والابن الذي تلطَّخَتْ يداه بدماء أبيه، ولكن هذا الحشد المتجمهر من الناس لم يسمحوا لي بالدنُوّ منها.

كتبت الصُحف عن عمق البئر ووصفوا الغريق في قعره، ودهشوا لأن من حفروا البئر قبل سنوات طويلة ووصلوا إلى هذا العمق لم يستخدموا سوى المجرفة والمعول. كتبوا بفكر طافح بالشؤم، وقد كتب بعضهم عن القضاء والقدَر وهذا ما سرَّني فعلاً. في الأيام التالية بعد القبض على ابني كانت بي رغبة شديدةٌ بالتحدث إلى السيدة «آيشا». كنتُ أودّ أنّ أواسيها وأساعدها في تخفيف حقدها علينا.

أردتُ أن أعبّر لها عن أسفي، ذلك أننا «أنا وهي» كنساء لا يمكن لأحدٍ أن يلقي باللائمة علينا في هذه الأحداث التي جرتْ خارج نطاق إرادتنا. أردتُ أنْ أقولَ لها إنَّ الأساطير والتاريخ هي التي كَتبت لنا أقدارَنا. أمّا السيدة «آيشا» فكانت محقّة تولي جُلّ اهتمامها بما تكتب الصحف لا بما تمَّ تدوينه في الأسفار القديمة، أو بما تقول الأساطير. فلا يمكن تغيير رأيها بخصوص الجريمة التي حدثت. فالحقيقة الوحيدة هي أن زوجها قُتِلَ من أجل الميراث. وأنا أقف وراء مقتله، لكون القاتل ابني. وما كان يقضّ مضجعي أكثر من أيّ شيء آخر هو أنّ العاملين في «شركة سهراب» كانوا يزوّدون الصحف بمعلومات وأخبار تجعلنا تعساء أكثر فأكثر.

وجدتْ الشرطة خرطوشةً واحدة عند البئر، ولكن لم يكن هنالك في الجوار أيّ أثرٍ للمسدَّس. فجيء بأمهَر غوّاص له خبرة في البحث في أعماق أيّ مكان في المضيق، وأُنزِلَ بواسطة الحبال إلى البئر ليبحث

في مائها الطيني. وبعد يومين أُخرجَتْ جثّة المسكين «جيم» والد ابني وكانت في حال يصعب التعرُّف عليها. أجريت على الجثة عملية تشريح في غاية الوحشية، حيث بقروا بطنها وقطعوا أحشاءها. ونظراً لعدم وجود ماء طيني في رئتيه توصلوا إلى رأي مفادُه أنّ حالة الوفاة قد تحقّقت قبل سقوط المَجني عليه في البئر. وقد ظهرت النتيجة نفسها في تقرير الطب العَدْلي. وفي صباح اليوم التالي نشرت الصحف نَصَّ التقرير على صفحاتها الأولى مع مانشيت عريض «أصاب أباه في عينه». لم يكتبوا أيّ شيء عن الشجار الذي وقع بين الأب وابنه عند حافة البئر، ولا عن الإفادة التي أدلى بها ولدي أمام المحكمة أنّه عندما تصارع مع أبيه أراد أن ينتزع المسدس من يده بهدف الدفاع عن النفس، وفي أثناء ذلك ثارت طلقة دون قصد. بيد أن القاضي أرسل الغوّاص لكي يغوص مجدداً في وحل البئر، فخرج في المرّة الثانية وهو يحمل مسدساً من نوع «كرك قالة». وهو مسدَّسٌ مرخّصٌ باسم «جيم»، ولكنَّ الأمر الذي تمّ تثبيتُه لدى المحكمة هو أن الطلق الناري الذي أصاب «جيم» واخترق محجر عينه اليسرى قد خرج من المسدَّس نفسه، وهذا بحدّ ذاته كان كافياً لقلب الموازين لمصلحتنا في المحاكمة. وقد ازداد الجميع قناعةً بأنّ القاضي قد تأكَّد بأنّ الأمر كان دفاعاً عن النفس، وأنّ ابني لم يقترف الجريمة. فالسلاح الذي وُجد في مسرح الجريمة، عند البئر، لم يأتِ به الولد الغاضب، بل جلبَهُ الأب الذي كان خائفاً من ابنه. وبعد العثور على المسدس وإخراجه من قعر البئر تغيّرتْ نظرة السيدة «آيشا» تجاهي، وكذلك تغيّر موقف الشركة ومنتسبيها.

بعد أن أدركوا أنّ ابني «أنور» لم يخطِّط مسبقاً لقتل أبيه، وكان من المتوقَّع أنْ تُصدر المحكمة حكماً بالبراءة بحقّه بسبب دفاعه المشروع عن النفس، ولكونه الوارث الوحيد لجيم، أيْ أنّه صاحب أكبر حصة في سهراب، الأمر الذي دفع منتسبي الشركة إلى معاملتنا بلين.

في أوّل لقاءٍ لي مع السيدة «آيشا» في أحدِ مكاتب الشركة وجدتُها

هادئة ووقورة، إلّا أنَّ نظراتها كانت تفضح مدى تصديقها الشائعات البذيئة التي تنشر عني في الصحف، وكم كانت تُجهِدُ نفسَها في كبح جماح ثورَتها، وتهدِئة حِدّة انفعالِها. بدا لي من أحوالها أنّها قد دفنتْ حزنها في قلبها، في الأقل في الوقت الحاضر، وأنها استجمعت رباطة جأشِها، واتخذت قرارها بكامل إرادتها في التصرّف معي بحكمة. أردتُ أنْ أريحها، ولا بدّ أنّني لا أستطيع التكلّم باسم ابني «أنور» الذي ما يزال قابعاً في السجن. ولكن لم يخطر ببالنا لا أنا ولا ابني أن نهدم ما بناه أبوه بذكائه ومثابرته، ولم نكن نفكّر قَطّ في طردِ مئات العاملين في «سهراب» بل على العكس كنّا نتمنّى لها دوام النجاح. قلتُ اليوم هو عيد تأسيس «سهراب» وهو اليوم الأول الذي جاء فيه أبوه المرحوم مع الأُسطى «محمود» وبدؤوا بحفر بئرٍ هنا قبل ثلاثين سنة، وتحدّثتُ لها عن مجيء والد ابني بالتناوب مع الأُسطى محمود إلى الخيمة الصفراء حيث كانت فرقة «مسرح الأساطير المثالية» تقدّم تراجيديا «روستم وسهراب» وعن مدى تأثرهما بالتمثيلية. ومدى الفرق بين دموع اليوم وبين الدموع التي سكبتها في الخيمة أيامئذ. ثَمَّةَ شبه بين بكائي هناك وبين بكائي من أجل الأب وابنه عند حافة البئر، بعد ثلاثين سنة، هو شبه إلزامي بين الحياة وبين الأساطير.

«الحياة هي التي تعيد روح الأساطير»، قلتُها بانفعال، «ألا تتّفقين معي في هذا المجال؟».

«بلى»، قالت السيدة «آيشا» بأدب. كنتُ أرى السيّدة ومن معها من مدراء أقسام الشركة يحرصون على ألّا يأتوا بأيّ تصرّف يزعجنا أنا وابني.

«لا تنسوا عندما تمّ حفر أوّل بئر لشركة البناء هذه كنتُ أنا حاضرة هنا في «أونجوران»، حتى إنّ اسم شركتكم «سهراب» قد استُلهم من أحد حواراتي المسرحية في تلك الأيام.

انتبهتْ السيّدة «آيشا» لكلامي بمزيدٍ من الحيرة والارتباك، وراحتْ

عيناها ترفّان. فالتسمية لم تُستلهم من حوارٍ يعود إليّ، بل من كتاب شاهنامة للفردوسيّ الذي كُتب قبل ألف عام. فهي مع زوجها وعلى مدى سنين طويلة قرأا العديد من الكتب في هذا المجال، وعملا أبحاثاً، وراجعا الكتب، ودقّقا في كثير من الرسومات في متاحف العالم والمتاحف الأوروبيّة. ومن نوافذ المبنى الذي يضمّ مكاتب الشركة أخذتْ تجولُ ببصرها على العمارات العالية في إسطنبول، على السطوح والمداخن وعلى البحر، وتتحدّث عن ماضيها السعيد متذكرةً مشاهدَ كثيرة لكي تسوقها كإثباتٍ لكلامها. تكلّمتْ بشوقٍ وسعادة واضحة يكلّلها فرح القدرة على استحضار الخواطر، وبنبرة مفعمة بالغموض عن الإشارات والرسومات التي وجدوها في متحف سانت بطرسبورغ، في بيت أثريٍّ قديم في طهران، أو أثينا، وفي الآثار التي انتشرت على مساحة جغرافية شاسعة من اليونان. هذه المرأة كانت قد عاشت مع والد ابني حياةً سعيدة. وها هو ذا ابني - وبسبب سخافة النظام القضائي والقوانين - على وشك أن يتربّع على قمّة الهَرَم في الشركة، لأنّه صاحب أكبر الأسهم فيها. والله وحده أعلم كم بذلتْ المرأة هي وزوجها من مجهود في بداية تأسيس الشركة، وكم ضحَّيا من أجل أنْ يكبر «سهراب»[43] ويقفَ على رِجلَيه.

وهكذا أخذتْ السيّدة «آيشا» تروي القصَّة ابتداءً من اليوم الأوَّل لذهاب زوجِها إلى مكتبة «دنيز» وأوّل يومٍ تعارفا فيه أثناء دراستهما الجامعية. وفي خضم سعيها الحثيث للبحث عن أسلوب في الكلام لتخفي حقدها شعرت أنها حريصة على ألّا تغضب ابني المسجون، أو تجعلني أشعر بالندم والفشل. وكلّما كانت تتذكّر وتقوم بسرد تفاصيل القصة وتستحضر ذكرياتها السعيدة، تشعر بأنها إنما تنتقم مِنّي. كنت أراقبها بدقة وأنصت إليها بتواضع، من دون أن أسمح لها بإثارة غضبي، لأن الولد و«سهراب» سوف يعودان إليَّ في نهاية المطاف.

ففي الأيام التي أقوم فيها بزيارة ابني في سجن «سيليفري» بدأتُ

43- المقصود هنا هو «شركة سهراب» وليس سهراب بن روستم. (المترجم).

أقصّ عليه بعضاً ممّا كانت تَرويه السيدة «آيشا». على الرغم من بُعد السجن عن منطقة «باكركوي» فقد كنتُ أغيّر ثلاثة باصات لكي أصل إلى باب السجن، الذي يتباهى الجميع من الموظَّفين الإداريِّين إلى السجانين، لأن سجنهم هذا يُعَدُّ أكبر معتقَلٍ ليس في تركيا وحسب، بل وفي عموم أوروبّا. وأسألُ نفسي عن معنى اعتقال ابني في سجنٍ هو أكبر السجون الأوروبيّة.

كنت أمرُّ بأجهزة التفتيش وبالسجَّانات اللائي يحصبنني بسبب لون شعري، وأيديهن ذات المهارات العالية تتجوّل على أنحاء جسمي. أتنقّل بين غرف الانتظار، وبين الأبواب التي تفتح والأبواب الموصدة، الأقفال التي تقفل وتلك التي تُفْتَح، أراوح بين المحاجر وبين الرّدهات حتى لكأنّني كنت أنسى نفسي، ولا أدري في أيّ زمن أنا. وفيما كنت أنتظر ابني خلفَ الزجاج المانع للصوت كنت أصنع لنفسي أحلاماً وردية، أتوهم فأشبهّه بأناس آخرين، كنت أغفو حيناً وحيناً آخر كنت أفقد صبري، وفي معظم الأحايين كنت أستشيط غضباً ولكنني كنت أتمالك نفسي. وفي بعض الأحايين كنت أتصور أن هذا الشخص الذي ظهر قبالتي في الجانب الآخر من الجدار الزجاجي العازل ليس ابني، بل هو أبوه المتوفّى، لا بل كنت أتصوّر أنّه جدّه الميت.

عندما يكون المحامي معي في أثناء الزيارة كنّا نتحدث أولاً عن الدعوى القضائية، ثم نغوص في آخر التفاصيل في ملف القضية، ونتكلم عن السخافات المنشورة في الصحف اليومية، ونتداول معاً الصعوبات التي تواجه ابني في الردهة التي يُسجَن فيها، وكان يتشكّى من بعض النزلاء الذين يحتقرونه لأنهم يصدقون أنّه قتَل أباه من أجل مالِه. ويظهر استياؤه من سوء الطعام المقدَّم إليهم، ومن الشائعات التي تتحدَّث عن قرب صدور قرار بالعفو، ولم يصدر أيّ قرارٍ بالعفو. كان ابني يقصُّ علينا قصصاً محزنةً عن الصحفيّين المعارضين وعن الأكراد الذين نزلوا في الزنزانات نفسها التي كان يشغلها الانقلابيّون من العسكر في السابق. ثم

يخيّم الصمت علينا، ويشعر بالحاجة إلى قليل من الهواء النقي، وإلى كتابة طلب رسمي لا تُرجى من كتابته أيّة فائدة، ليوضح فيها الظلم الواقع عليه بسبب جريمة لم يرتكبها. كل هذه الأمور كانت تأخذ منا وقتاً طويلاً، وتنتهي الزيارة دون أن يكون لنا متَّسعٌ من الوقت لكي نسوق بعض الكلام الخاص والطيّب بيننا نحن كأُمٍّ وابنها. ففي أثناء الزيارة لم يكن هناك من أحدٍ بإمكانه أن يسمعنا سوى واحد من السجّانين. كنتُ أحاول جاهدة أنْ أقصّ على ابني شيئاً من القصص التي سمعتُها من السيدة «آيشا» أو من الكتب التي قرأتُها أو مرّت بي عناوينها، وأشياء من بنات أفكاري، توقّعاتي وخيالاتي. كان يكره سماع الأساطير القديمة لأنها تذكّره بالجريمة التي اقتُرِفَت، ولكنه كان يغضّ الطرف ويذعن لي وهو يشعر بمحاولاتي الحثيثة والمفضوحة في إدارة دفّة الحديث إلى موضوعات أخرى. ولم يكن يصدّق بي لو قلت له إنّني سمعت هذه القصص على لسان الأُسطى «محمود» ومع ذلك كان يصغي إليَّ. كنتُ أشعر بأنني أسترسل فيما أقصّه، ليس حبّاً بالأساطير وحسب، بل لأنني كنت في حاجة ماسّة للتحدُّث إليه وجهاً لوجه. كنتُ أَسكُتُ حيناً، وأفكّر حيناً آخر، وأنا أنظر إلى ابني، وأراه قد بدأ يسمن باطّراد في السجن حتى صار إلى حدّ ما يشبه قاطع طريق. تخنقني العَبَرات ولكنني كنت أتمالك نفسي.

أشدُّ ما كان يؤثّر بنا هو الافتراق من بعد زيارةٍ تدوم لمدة ساعة واحدة. أنا كنت أجدُ في نفسي الشجاعة لكي أخرج من الغرفة، أمّا ولدي فلم يكن يرغبُ بالابتعاد عنّي مثلما كان يفعل حين كان طفلاً. وبرغم أنّه كان يستجيب لتحذير السجّان: «انتهت الزيارة» وينهض من الكرسي الذي يجلس كأيّ رجل ذي بأس، إلّا أنّه لم يكن ليقوى على ترك الغرفة والخروج من الباب، مثلما كان يقف لدى الباب وينظر إليّ نظرةً ملأى بالعجز والوهن كما كان يفعلُ أيّام طفولَته، يومَ لم يكن قد باشر بالذهاب إلى الأوّل الابتدائي. أتذكَّر كيف كان يتوسّل بي حين أطلب إليه أنْ أذهب إلى البقّال. لم يكن يصدق بكلامي رغم أنّني كنت أطمئنه

قائلةً: «سأعود خلال دقائق»، كان يقبض على تلابيب ثوبي ويمنعني من الخروج، يتوسّل إليّ قائلاً: «ماما! لا تتركيني لوحدي».

في أثناء الزيارات المفتوحة التي كان مسموحاً بها لمرّة واحدة في الشهر كنّا نشعر بأننا سعداء جدّاً، لأنه يُسمح للمعتقلين وزوّارهم أن يتواجدوا مع بعضهم وجهاً لوجه، وأن يلمس أحدهم الآخر، فكان نزلاء القسم شأنهم شأن الزوّار ينتظرون هذا اليوم بفارغ الصبر، وعندما تؤجَّل المواجهات الحيّة هذه، لسبب أو لآخر، يعمّنا الحزن، وكنا نفرح حين يصدر الوزير من أنقرة قراراً بالسماح بمعاودة الزيارات بمناسبة العيد أو بذرائع أخرى. ولمّا كان أكثر المعتقلين إما يساريين أو أكراداً فكان إدخال الأطعمة والكتب والهواتف الجوالة من ضمن الممنوعات، ولكنني استطعت - إذ أعطيت بضعة قروش قدمتها للسجانين - أن أُدخِلَ دفتر أشعار ولدي الذي نسيه في «أونجوران» وأقلامَه، وكتاباً أو اثنين من كتب أنطولوجيا الشعر. لأنني وجدت الكتابة بالنسبة إليه بمثابة مسكّنٍ لآلامه، ودواء ناجع لتهدئة ثوراته. طلبت إليه أن يكتب كل الأحداث التي سبق أن عاشها، وأردت أن يكمل هذه الحكاية التي شارفنا على نهايتها وأن يكتبها على شكل رواية. استطعتُ زرعَ هذه الأفكار في نفسه وبناءها في أثناء الزيارات المفتوحة.

في الصالة التي كانت تغصُّ بالمعتقَلين على ذمّة التحقيق في قسم التحقيق القضائي من المهرّبين ومختلف أنواع القَتَلة واللّصوص والمحتالين والمغتصبين، هم وعائلاتهم وزوّارهم، كنّا «أنا وابني» كأمٍّ وولدِها ننزوي في ركنٍ ما، بعيداً عن أعين الناس ويعانقُ أحدُنا الآخر بقوّة. بمُجرَّد أنْ ألمسه كنتُ أرى مسحة السعادة تتجسّد على مُحيّاه حينَ كان طفلاً، تلك المسحة التي كانت ترتسم على وجهه حين كنت أغسله. كان يتحدّث لي بمرح عن المحكومين القابعين هنا، وعن السجّانين المرتشين وعن المؤامرات التي تحاك هناك وراء قضبان السجن، ليريني أنّه ليس تعيساً هنا كما أتصوّر أنا، على الرغم من أنّه يعرف أنّي لن أصدّق

بكلامه هذا. ومن بعد ذلك كان يجد في نفسه الجرأة الكافية ليقرأ لي الأشعار التي كتبها عن المنظر الذي يراه عبر النافذة، وعن قطعة السماء الظاهرة من خلال فتحة التهوية.

وبعد أن كِلْتُ المديحَ لشِعرِه الجميل بكلّ صدق وحميميّة أدرتُ دفَّة الحديث إلى الكتاب الذي يتوجَّب عليه كتابتُه. يجب ألّا يكون الكتاب بمثابة مرافعة للدفاع عن نفسه ضد التهمة الموجهة إليه وحسب، بل ليكنْ كذلك عبرةً لمن يعتبِر. تارةً كنت أغنّي أفكاره وأنا أحدّق إلى عينيه بكل عنفوان وثقة، وتارة أخرى أروي له مقاطع من أوديب وسهراب (المكتبة لم تكن تحتوي على الكتابين، ولكنني أحضرتهما ورشوت السجَّانين لإدراجهما هناك). وأصوّرُ له تلك السنين التي ذهب بها أبوه المرحوم إلى طهران، والصائفة التي تعارفنا فيها، والمسرحيّات التي قدّمناها تحت الخيمة الصفراء، ومفاهيم الحوارات المطوَّلة التي كنت أختتم بها التمثيليّات... (وفي الحقيقة هذه الخاتمات النابعة من صميم قلبي هي التي كانت تشدّني إلى الاستمرار في تمثيل الحكايات).

كنا نلوذ بأذيال الصمت أحياناً، ونطيل النظر إلى وجوه بعضنا بعضاً وكأننا تعارفنا توّاً. كنت أتقرَّب إليه وألتقط سنبلةً علقت في ثنايا سترته المنسوجة من الصوف، أو أتفحص زر قميصه، أو أصفّف بيديَّ شعره المتناثر. تُرى كم يتذكر أيام طفولته، لِمَ هو غاضب، لماذا أطلقَ النّار وأصابَ عينَ أبيه، ولماذا يبدو الآن سعيداً إلى هذا الحدّ؟ كنتُ أنوي أنْ أُلقي عليه كلَّ هذه الأسئلة ولكنّني كنتُ أتحكَّم في إرادتي. في الزيارات المفتوحة هذه كنت أتعمّد أنْ أمسك يدَيه، أُمسّد رقبته وأمرّر كفّي على ذراعيه وكتفَيه وأطبطب على ظهره. هو أيضاً كان يمسك يَدَي والدته التي جاوزت الستّين من عمرها ويقبِّلُهما بكلّ احترام.

في آخر زيارة مفتوحة شهدها معتقل «سيليفري» صادفتْ يوماً من أيام عيد الأضحى جلسنا جنباً إلى جنب، أطال أحدُنا النظر في عينَي الآخر، ثم تعانقنا بصمت. فيما كانت تخيّم علينا سماءٌ خريفيّة مشمسة،

قال لي ابني أخيراً إنّه يبدأ بكتابة الرواية وسيتطرّق فيها إلى: «كل شيء». فالأفكار التي تعجّ في رأسه مثلها مثل النجوم التي لا تُعَدُّ ولا تُحصَى وتزدحم في قطعة السماء التي تظهر من خلال نافذة الزنزانة في أيام الصيف. وإنه لمن الصعوبة بمكان أن يحوّل كل تلك الأفكار إلى كلمات مُجرَّدة، كما لو كانت مشاعر خاصة به، وفي الوقت ذاته كان يجني نفعاً من الكتب الموجودة في مكتبة المعتَقل المغلَقة أمام السياسة. بينما كانت أبوابها مشرَّعة لكتب مثل «رحلة إلى مركز الأرض» لجول فيرن، وقصص «إدغار آلان بو» وكتب الشِّعر القديمة، وكان فيها متَّسع للكِتاب المعنون «أحلامكم حياتكم». سوف يقرؤها مثل أبيه، لكي يفهم طريقة تفكيره ولربما وضع نفسه في مكان أبيه. سألني بضعة أسئلة تخصُّ أباه، فأجبتُه بانفعال، وعانقتُه بودّ، لكي أحظى مجدداً بعبقِ الرائحة التي كانت تفوح منه في طفولته، وهي رائحة خليطة مكوَّنة من رائحة صابون رخيص ومذاقِ البسكويت. حين أُعلِنَ عن انتهاء وقت الزيارة تضرّعت إلى الله أنْ يسهّل على ولدي وقع الفراق في يوم العيد هذا.

«سآتي يوم الاثنين مجدداً»، قلتُها مبتسمةً وأخرجتُ من حقيبتي صورةً شُقّتْ ثم أُلصِقَتْ لامرأة ذات شعر أحمر، رسمها «دانتي روزيتي» وقدمتها إليه.

«أسعدني كثيراً سماعي أنك ستكتب روايتك»، قلتُ له، وأردفتُ قائلة: «حين تنتهي من الرواية تضعُ هذه الصورة على الغلاف، وتكتب عن والدتك الجميلة وأيّام صباها. هذه صورة المرأة، هاك! إنها تشبهني بعض الشيء. بالطبع أنت تعرف أفضل من غيرك كيف تبدأ بروايتك. أريدها أن تكون مفعمة بالحيوية مثل حواراتي في المشاهد الأخيرة، وصادقة مثل أيّة حكاية واقعية. قريبة إلى النفس شأنها شأن أيّة أسطورة. حينئذ ليس القضاة وحدهم وحسب، بل الجميع سيفهمون ماذا تعني! ولا تنسَ أنَّ أباك بالذات كان يتمنّى أنْ يكون كاتباً أيضاً».



أورهان باموق، كاتب وروائي تركي فاز بجائزة نوبل للآداب، سنة 2006 ولد في إسطنبول في 7 يونيو سنة 1952 وهو ينتمي لأسرة تركية مثقفة. درس العمارة والصحافة قبل أن يتجه إلى الأدب والكتابة كما يعد أحد أهم الكتاب المعاصرين في تركيا وترجمت أعماله إلى 34 لغة حتى الآن، ويقرأه الناس في أكثر من 100 دولة. في فبراير 2003 صرح باموق لمجلة سويسرية بأن "مليون أرمني و30 ألف كردي قتلوا على هذه الأرض، لكن لا أحد غيري يجرؤ على قول ذلك".

ذات مساء مشيت من دون وعي باتجاه قصر الزيزفون. «صيدليّة الحياة» كانت مغلقة الأبواب، فقد ضرب عليها قفل أسود، كأنها لن تفتح أبداً... ثَمّةَ سحابة من الضباب تنبعث من قصر الزيزفون. بعد وقت من الزمن ليس بطويل قالت والدتي لم نعد نسمع أخبار أبيك كما لم تعد تأتينا أيّة واردات من الصيدليّة، وموقفنا المالي بائس لا نُحسد عليه.

كنت في الثانوية العامة، أذهب إلى ثانوية «كاباتاش» وأعود مشياً على القدمين ولم تكن لي مصروفات إضافية زائدة عن اللزوم غير ارتياد السينما واقتناء لفّة شاورمة أو شراء الروايات المصوَّرة. لي بعض الأصدقاء ممن يمتهنون بيع وشراء المجلات التي تنشر روايات مصوَّرة، وبعض منهم يقومون بتأجير المجلّات. لكنني لست صبوراً مثلهم كي أنتظر متداولي تلك في المجلّات الأزقة الخلفية أو أمام أبواب الخروج الجانبية لسينما «بشيكتاش».



مكتبة نوبل

٢٠٠٦